دليل الحج للوارد إلى مكّة والمدينة من كل فج

تأليف
حضرة محمّد باشا صادق
من ضباط أركان
حرب سابق

مسيحيَّة سنة ١٨٩٦ هجريَّة سنة ١٣١٣

obeikandl.com

obeikandl.com

(بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)

المقدِّمة

حمدًا لك يا من هديتنا إلى طريق الرشاد ووفقتنا للسعي في مصالح العباد ويسرت لنا مشاهدة عوائد وطبائع بعض البلاد والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ونبينا محمَّد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين (أما بعد) فيقول المعتمد على ربه الخالق محمَّد باشا صادق من ضباط أركان حرب في السَّابق: إني استخرت الله بأن أجمع كتبي الثلاثة التي ألفتها مدة سفري إلى الأقطار الحجازيَّة، أحدها جريدة استكشافيَّة من الوجه إلى المدينة المنوَّرة ومنها إلى ينبع البحر حين كنت مهندسًا بمعيَّة المرحوم سعيد باشا والي مصر وتبعته في سفره إلى المدينة في رجب سنة ١٢٧٧ هجريَّة، وفي سنة ١٢٩٧هـ تعينت أمينًا للصرة وتوجَّهت مع المحمل في شهر شوال بطريق البر وعند عودتي ألفت كتابًا في كيفيَّة الحج ومعالم الطَّريق وسميته بـ «مشعل المحمل»، والثَّالث بتلك الوظيفة أيضًا بطريق البحر في ذي القعدة سنة ١٣٠٢هـ وسميته «كوكب الحج» شارحًا بها سير المحمل من يوم خروجه من مصر المحروسة إلى وصوله مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة وعودته إليها مع رسم خريطة الطَّريق وبيان المسافة بين المحطَّات بالضبط وذكر نوع أرضها وصلاحيتها وما بها من آمن ومخوف، والبلاد المار عليها الحج وسكانها وعاداتهم وتعدادهم حسب الاستكشافات العسكريَّة وكيفيَّة الحج ومناسكه ورسم مسطَّح الحرمين الشَّريفين المكي والمدني فجاءت بفائدة عظيمة للمسافر والمقيم ونفع عميم فاهتممت وجمعتها في كتاب واحد ليتخذه المطالع والحاج علمًا يهتدي به، وإمامًا يقتدي به برًّا وبحرًا وسميته (دليل الحج للوارد إلى مكَّة والمدينة من كل فج) فصار دليلًا مختصرًا للأمة

المحمَّديَّة ولم أذكر إلا ما شاهدته أو ممن أعتقد صدق سمعته، فإن الكلام البسيط عادتي وقول الحق من غير مبالغة سجيتي وأرجو مسامحتي فيما يرى فيه من سهو أو غلط وقد قيل: من ذا الذي ما ساء قط؟.

وإن وجد فيه ما يلام عليه فلا يلومني في ذكره؛ فإني ذكرته أداءً لحق الوظيفة مع التلطيف ليكون قدوة ودليلًا لمن يتوظف من الآن وليس الخبر كالعيان وقد تيسر لي في سفري سنة ١٢٩٧ هجريَّة أعني: سنة ١٨٨٠ مسيحيَّة أخذ المناظر المقدَّسة بالبلدتين المشرفتين بواسطة الآلة الفطوغرافيَّة حيث لم يسبق لأحد غيري ومنحت بسبب ذلك بمداليا من الذهب ومن الدرجة الأولى بمعرض ونيزنا سنة ١٨٨١م.

وجوب الحج

ولنبدأ بسير المحمل برًّا فنقول: اعلم أولًا أن الحج واجب شرعًا على كل مسلم حر بالغ عاقل صحيح البنية قادر على الزاد والراحلة ونفقة عياله والمسكن له أن يعود من سفره مع أمن الطَّريق مرة واحدة في عمره، والذي لا قدرة له على ذلك فليس بمكلف؛ لأن الفقراء يكابدون المشاق في القوت والسير زيادة عن الغير من أن بعض الحجَّاج المتيسر لهم ذلك يسخطون جهارًا من مجيئهم للحج لما يقاسون من التعب وضعف الجمال ورذالة الجمالة وعرب الطَّريق والمشاجرة اليوميَّة حتى يعودوا إلى أوطانهم آثمين، وأما الفقراء فأغلبهم يتخذ حرفة السؤال والبعض يستخدمون بوظيفة فراش أو ضوي أو عكام من حمار وشيار وبوصولهم إلى مكَّة منهم من لا يحج ولا يسعى وكما خرج من بلده عاد وعلى وجهه قناطير من السواد، ومع هذا لا يتركون الفشر واللقلقة ولا يدعون الكذب والمشدقة، بل يسمون أنفسهم بالحاج بدوي عجورة والحاج علي أبي قورة وجميعهم بهذا المثل من الدفة إلى الشابورة،

وعاينت هذه الأفعال بعيني دون غيري.

ولما وفق الله تعالى وتعينت أمينًا لصرة الحج الشَّريف في طلعته سنة ١٢٩٧ هجريَّة وعودته سنة ١٢٩٨ كان سعادة عاكف باشا أميرًا على الحج وعاطف بيك القائمقام رئيسًا على أورطتي السواري وهاتان الأورطتان عبارة عن ثمانية بلوكات معها مدفعان جبليان من الششخانة وثلاثة وعشرون طوبجيًّا، وكان عدد الجميع بضباطهم مائتين وأحدًا وأربعين شخصًا تابعين للصرة حفظًا لها وللحجاج ووكب المحمل بالبنادر التي يمر بها.

الصرة

وأول من جاد وأرسل الصرة إلى الحرمين المقتدر بالله من الخلفاء العبَّاسيين واستمرت للآن وكان مبلغ الصرة ١٣٦٣٤١٧ غرشًا عنها ٥٦١٩ جنيه و٢٢٣١٠ غروش من ذلك مصروفات خدمة الصرة ذهابًا وإيابًا ومرتبات العربان ومجاوري مكَّة والمدينة ومبلغ ١٦٠٩١٢ غرشًا مرتب تكيَّة مكَّة و١٦٥٦٧٠ غرشًا مرتب تكيَّة المدينة فضلًا عن الأمانات التي ترسل إلى أربابها من الروزنامجة والأوقاف وبعض الدوائر لزوم مرتبات أهالي الحرمين وأشخاص مقيمين بالحجاز وثلاثين قنطارًا من الحلواء وثلاثة قناطير من الشمع السكندري وعدد من الأكراك والبنشات والأقمشة والشيلان الكشميريَّة والشاش الأبيض.

والمستخدمون بالصرة مع الأمين هم حكيم وأجزجي برتبة يوزباشيَّة وصراف وكاتبان وبيرقدار المحمل ومبلغ الجبل وضويَّة وعكامة وفراشون لنصب خيام المتوظفين وسقاءون وأمينًا كساوي لتفرقتها على العرب وغيرهم ومقدار كاف من الجمال لحمولتهم وحمولة مؤن العساكر والمياه وجميع الترتيبات المتعلقة بالمحمل

والصرة والمشتروات والتجهيزات جار عملها بمعرفة الروزنامجة بناء على أمر الداخليَّة.

كسوة الكعبة

وأن مرتب أمير الحج خمسمائة جنيه إنعامًا عند السَّفر والآن بما فيها ماهيته مدة السَّفر ومرتب الأمين خمسة وسبعون جنيهًا إنعامًا سوى ماهيته المرتبة مع خرج أحد عشر شخصًا ولسائر مستخدمي الصرة مرتبات على حسب درجاتهم وصار تسليم واستلام المحاملي كسوة الكعبة الشَّريفة من يد ناظر تشغيلها بمسجد سيِّدنا الحسين رضي الله عنه بحضور كل من أمير الحج وأمين الصرة ونائب القاضي وهي عبارة عن ثمان قطع من الحرير الأسود المنسوج كل منها على طول الكعبة وكل قطعتين بعرض جهة من جهاتها تسدل على أربعة جهاتها من الخارج من الأعلى إلى الأسفل وطراز مزركش عرضه ٧٠ سنتي مرسوم عليه بالمخيش آيات قرآنيَّة محوط كالمنطقة على الكسوة في ارتفاع ثلثي الكعبة وستارة كبيرة لبابها من الأطلس الأخضر مزركشة جميعها بالمخيش وستر مقام سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السَّلام وستارة باب هذا المقام من خارج وأخرى من داخل جميعها مزركش ومنقوش في غاية الظرف وصار حزم جميعها وحملت لتكون مع المحمل، وجميع ذلك يوضع على الكعبة والمقام في ١٠ الحج والعادة أن كسوة البيت في آخر العام تكون لحضرة الشَّيخ الشيبي فاتح بيت الله ما عدا الأشياء المزركشة فإنها لشريف مكَّة وهذا ما لم يكن الحج بالجمعة وإلا فالمزركش يحمل إلى مولانا السلطان.

وأول من كسا الكعبة كرب بن سعد ملك حميَر من ملوك اليمن وعبد الملك بن مروان أول من كساها بالديباج وقاية من السيل ومن بعده المأمون أجرى تجديدها

في كل عام من الأبريسم الأسود، وفي سنة ٧٥٠ اشترى الملك الصالح بن الناصر بن قلاوون ملك مصر ثلاثة قرى من القليوبيَّة ووقف إيرادها على كسوة الكعبة واشترط في وقفيته أن تكون من الحرير الأسود وتعمل سنويًّا وترسل، ثم السلطان سليمان خان القانوني اشترى سبعة قرى بالشَّرقيَّة وأوقفها لمصاريف الكسوة حيث أن القرى الثلاثة الأولى خربت مع طول الزمان وصار إيرادها لا يفي لمصاريف الكسوة وللآن جار تشغيلها وإرسالها من مصر سنويًّا عند طلوع الحج مع المحمل، والآن المصاريف التي تصرف كل عام على الأقمشة والمخيشات وأجر التشغيل تبلغ ٤٥٠٠ جنيه مصري، وهذا غير أثمان الشيلان والكساوي والحلويات المرتبة للعربان بمائتي جنيه.

وفي سنة ١٣٠٤هـ تيسر لي التوجه إلى مكَّة وطفت بالبيت في خامس رجب فوجدت كسوته تمزق منها بعض محلات ورقعت ولون صباغها قد تغير والمخيش زال طلاؤه مع أنه باق على تغييرها أربعة أشهر فكلفني سعادة الشَّريف والشَّيخ الشيبي أن أعرض ما رأيته على جناب الخديوي عند عودتي إلى مصر فعرضت عليه ذلك وأمرني بتحرير جواب مني إلى الماليَّة بما رأيته وقد صار فتأكد على ناظر التشغيل بالانتباه والدِّقة حسب المرغوب.

وقد وضعت حرف (س) علامة للساعة وحرف (ق) للدقائق.

وفي يوم الاثنين ٢٢ ل سنة ١٢٩٧ هجريَّة ١٨ توت سنة ١٥٩٧ قبطيَّة ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٠ مسيحيَّة تهيأ محفل المحمل الشَّريف بميدان محمَّد علي السَّاعة الثَّالثة بحضور جناب الخديوي الأعظم المرحوم محمَّد توفيق باشا وبحضور النظار العظام وقاضي أفندي وشيخ الإسلام والعلماء والذوات الفخام واستلم جنابه زمام جمل المحمل وسلمه ليد أمير الحج كما هي العادة وسار المحمل في موكب عظيم

مبتدئًا بعساكر البيادة مع موسيقاها ومن بعدهم السواري ثم الطوبجيَّة ويليهم أرباب الأشائر وعساكر البوليس الخيالة ومن ورائهم أمين الصرة وتوابعها ثم الضباط المعينون للموكب ثم أمير الحج وأتباعه ثم المحمل وما يليه من شيخ الجمل وحامل البيرق وشيخ القطط والفرايحيَّة أي: الطبالة وسار بين جم غفير من العالم حتى وصل إلى العبَّاسيَّة السَّاعة خمسة وحط بالقرب من المحمَّدي أمام صوان الأمير.

المحمل

وأصل إيجاد المحمل على ما قيل هو لما سافر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام إلى الشام قبل رسالته النَّبوية فالجمل الذي كان حاملًا متاعه عليه السَّلام امتاز عن باقي جمال القافلة بهذا السبب فسمي بالمحمل ثم فيما بعد صار ترتيب جمال لمشال الكسوة والهدايا المرسلة سنويًّا إلى الحج مع القافلة وسمي محملًا على قبول التبرك وقيل: إن شجرة الدر زوجة أحد ملوك مصر لما أرادت الحج سنة ٦٤٥ صنع لها تختروان مربع بقبة لحملها وكُسي بالحلل وقافلة الحج تتبعه كعلم لها فسمي بالمحمل، وقيل: إن أول اختراعه كان من ذلك الوقت واستمر للآن وهو مربع الشَّكل يعلوه قبة على أضلاع أربعة وكسوته من الأطلس الأحمر مزركشة في غاية الظرف ومكتوب عليها بالمخيش آيات قرآنيَّة وبزواياه الأربع وعلى رأس القبة عساكر من الفضة وكلما تجدد وال لمصر تجددت الكسوة أو بقيت على حالها إن كانت جديدة، ولحجاج الشام محمل أيضًا شبه هذا لكنه أقل عرضًا منه قد رتبه السلطان سليم سنة ٩٢٣ وأرسل في شهر شوال إلى الحجاز بعد إجراء موكب عظيم له وهو بأربعة أركان وأعلاه مخروطي الشَّكل محفوف بقبة وعلى القبة والزوايا الأربعة كرات من الفضة منقوشة ومزخرفة والخشب مكسو بكسوة مزركشة من الأطلس الأخضر مكتوب عليها لا

إله إلا الله محمَّد رسول الله.

السَّفر برًّا

وفي يوم الخميس ٢٥ منه في السَّاعة الأولى أطلقت مدافع القيام وقام الرَّكب على جمال مصريَّة أغلبها من جمال الحجارة ولم يكن فيه من الحجَّاج الأغنياء أحد لتوجه جميعهم بحرًا وكان السير في أرض سهلة مرملة من اليمين ومزروعة من اليسار إلى أن وصل إلى محطَّة (بركة الحاج) السَّاعة ثلاثة ونصف وهي بشرقي كفور الجاموس التابعة للقليوبيَّة وهناك ترعة كبيرة نيليَّة وسواق عذبة المياه وقد بلغت الحرارة الجويَّة في وقت الزَّوال ٣١ درجة سنتجراد داخل الخيمة وليعلم أن ميزان درجة الحرارة بالسنتجراد في الظل.

وفي يوم الجمعة ٢٦ منه غرة أكتوبر قام الرَّكب السَّاعة السَّادسة ووصل السَّاعة الحادية عشرة إلى محل يسمَّى (أبواب المصاطب) وفي السَّاعة واحدة ليلًا جد السير إلى السَّاعة الخامسة وثلث وحطت الرحال للاستراحة بجوار محل البوسطة القديمة وبعد خمس وعشرين دقيقة استمر السير إلى السَّاعة ثمانية ونصف وأناخ بجوار (الشَّيخ التكروري).

وفي يوم السَّبت ٢٧ منه سار الرَّكب السَّاعة سبعة ونصف ونزل في السَّاعة إحدى عشرة وأربعين دقيقة بجوار بوسطة مهدومة، وفي السَّاعة الأولى من ليلة الأحد جد السير واستمر طول اللَّيل وحصلت استراحتان مدة الواحدة منهما عشرون دقيقة.

المحمل بالسُّويس

وفي يوم الأحد ٢٨ شوال السَّاعة واحدة إلا ربعًا نزل بالقرب من بئر السُّويس فكانت المسافة من الشَّيخ التكروري إلى البئر بسير الجمال خمس عشرة ساعة وعشر دقائق، وفي السَّاعة الثَّانية تهيأ المحمل بكسوته المزركشة واصطف أمامه الضباط والعساكر والطبول والأشائر وسار الموكب إلى أن قَرُب لبندر السُّويس وتقابل مع محافظها وعساكرها وأعيانها ومشايخها ومن بها من أهل الطرق وساروا جميعًا أمام المحمل بموكب عظيم وجم من الأهالي المتفرجين حتى مروا من قنطرة الترعة الحلوة ووصلوا إلى ميدان محطته المعتاد السَّاعة ثلاثة ونصف، ودخل كل من المستخدمين خيمته وبارك أمراء السُّويس لأمراء الحج بسلامة الوصول كما هي الأصول، وفي وقت الظهر بلغت الحرارة ٤١ درجة سنتجراد وبعد العشاء أطلقت الصواريخ وضربت الطبول أمام خيمتي الأمير والأمين ثم أمام بيت محافظ السُّويس، وفي يوم الاثنين ٢٩ منه جرى استلام خرج المستخدمين من شونة السُّويس من قنبطة وأرز وعدس ومسلى وعلائق للمواشي على حسب المرتب لمدة السَّفر منها إلى (نخل) بكسر النون والخاء وقد ارتقت الحرارة ظهر هذا اليوم إلى ثلاث وأربعين درجة.

وصف الطَّريق بوادي التِّيه

وفي يوم الثُّلاثاء غاية شوال كانت الحرارة صباحًا عشرين درجة وفي السَّاعة واحدة إلا ثُلثا قام الرَّكب ووصل إلى قنطرة الترعة المالحة السَّاعة واحدة وأربعين دقيقة، وكان البحر منجزرًا فانتظرنا مدة حتى علت المياه وأغلقت أبوب القنطرة ومر جميع الرَّكب من السَّاعة ٥ ق ١٥ إلى السَّاعة س ٦ ق ٣٠ وكان عدد الرَّكب

١١٠٣ أنفس و٦٤٧ حصانًا و٤٨٨ جملًا و١٠٠ حمارًا، ولم يكن معه من هو قاصد للحج من الأهالي إلا شرذمة قليلة من الفقراء وأما الأغنياء من الحجَّاج فتوجهوا جميعًا بحرًا، ووصل الرَّكب إلى الناطور الأول س ٨ ق ٣٠ وهذا الناطور مبني بالحجر والزلط فوق تل من رمل كهيئة طاحون الهواء عرضه ثلاثة أمتار وارتفاعه أربعة، وفي س ١٠ و٤٥ ق وصل إلى الناطور الثَّاني وهو على شكل العمود ارتفاعه ثلاثة أمتار مبني بحجر النحت، وصار المبيت بجانبه في واد متسع مرمل به بعض أكمات صغيرة ورمال منتقلة، في السَّاعة التَّاسعة من ليلة الأربعاء سار الرَّكب ومرَّ على الناطور الثَّالث س ١٠ وهو مثل الثَّاني ومُعد لمبيت الحاج وقد جعلت هذه النواطير في هذا الوادي المتسع أعلامًا لتدل المسافر على الطَّريق، وفي س ١١ ق ٣٠ وصل لمحل يسمَّى العلواية واستراح قدر نصف ساعة ثم سار في طريق كلها رمال بين صعود وهبوط محاطة بتلال ويسمَّى هذا الطَّريق بوادي التيه.

وفي يوم الأربعاء أول ذي القعدة سنة ٩٧ وصل بعد مضي أربعين دقيقة من النَّهار إلى سلسلة تلال تمتد شرقًا إلى اليمين وعلى س ١ ق ٥ تتجه الطَّريق شرقًا بينها ثم تنحرف مبحرًا ثم تعتدل شرقًا وبعد س ١ ق ٣٠ تتجه غربًا ثم تبحر مع تعرج بتقوس كبير مسافة خمس دقائق ثم تشرق بين رمال كثيرة متسلسلة ما بين الشَّرق والجنوب محاطة يسارًا بسلسلة التلول المار ذكرها، وفي س ٣ ق ٥ تمر فوقها مشرقة مقبلة إلى س ٣ ق ٤٠، ثم تمر على سلسلة أخرى مشرقة ثم مبحرة ثم تعتدل شرقًا، وفي س ٤ تمر بمحجر وتنحرف بين الشَّرق والشمال وتصير سلسلة التلال يمينًا ثم بعد مسير خمس دقائق تتجه شرقًا وبعد خمس دقائق أخرى تتجه قبليًّا ثم تشرق في واد متسع ذي أرض صلبة صالحة للزراعة بها حشائش قصيرة، وفي س ٥ ق ١٥ استراح الرَّكب، وفي س ٥ ق ٤٥ سار، وفي س ٦ ق ٢٠ مرَّ بطريق بين جبلين بها زلط ورمل عرضها من ١٥٠ متر إلى ٢٠٠ تستمر قدر عشر دقائق ثم تتجه ما بين

الجنوب والشَّرق فتعتدل بتقوس بتعرج إلى الشَّرق بين خيران صغيرة من مجرى السيل ثم تنحرف إلى الجنوب الشَّرقي ثم شرقًا وهكذا تارة وتارة على حسب امتداد الجبال بها من الطَّرفين إلى س ٧ ق ١٥ ثم تنحرف جنوبًا قدر ثلاث دقائق ثم تتجه إلى الشَّرق، وبعد س ٧ ق ٥٣ تتجه جنوبًا وتضيق، وبعد مسير خمس دقائق تشرق مع صعود قليل ممتد ثم تنحدر في خور، وفي نهاية س ٨ ق ١٠ تتجه إلى الجنوب الشَّرقي ثم شرقًا، وفي نهاية س ٨ ق ٤٥ تتسع الطَّريق ويقل الزلط ويثبت الرمل، وفي نهاية س ٨ ق ٥٣ يصل الرَّكب إلى محجر مضيق اتساعه عشرون مترًا ثم يتضايق إلى خمسة أمتار ويمتد مع صعود وهبوط على طول ثلاثمائة متر ثم يتسع الطَّريق ثم يضيق مع صعود ثم يتسع ويميل إلى الجنوب الشَّرقي ثم إلى الشَّرق ثم ينحرف إلى الجنوب الشَّرقي إلى نهاية س ٩ ق ٤٢ ثم يتجه قليلًا إلى الشَّرق، وبعد س ٩ ق ٥٠ يتجه إلى الجنوب بتعرج بتقوس متسع بين جبلين ثم إلى الشَّرق، وبعد س ١٠ يهبط من محجر مضيق وبعد س ١٠ ق ٣٠ تقل الجبال ويتسع الطَّريق بين صعود وهبوط في حجارة، وفي س ١١ انتهت التلال إلى واد سهل متسع يسمَّى بوادي (جبال الحصن)، وفي س ١١ ق ٣٠ نزل الرَّكب للمبيت، وكل هذه الطَّريق مار من وادي التيه، وفي السَّاعة الثامنة من ليلة الخميس ضرب مدفع التَّحميل، وفي س ٩ سار الرَّكب وكانت حرارة الجو ١٦ درجة، وفي س ١١ ق ٤٥ نزل للاستراحة.

قلعة نخل

وفي يوم الخميس ٢ ذي القعدة بعد مضي ق ١٥ من النَّهار جد السير في واد شرقي قبلي متسع صلب الأرض صالح للزراعة به عاقول وبعض حشائش، وبعد س ٥ ق ٣٠ نزل للاستراحة، وبعد س ٦ ق ٤٠ أخذ في السير، وبعد س ٧ ق ٥٠ مرَّ مشرقًا بين أكمات محجرة قليلة الارتفاع وقريبة المسافة، وفي نهاية س ٩ ق ٣٠ مرَّ

بمحجر مستوٍ على يمينه جبل مرتفع عليه أكمتان هرميتا الشَّكل ثم امتد الطَّريق بين جبلين متباعدين إلى واد متسع جدًّا محاط بجبال بعيدة يسمَّى وادي نخل وبعد الغروب بعشر دقائق وصل الرَّكب إلى (قلعة نخل) بكسر الخاء وهي قلعة مربعة الشَّكل مبنيَّة بالحجر النحت ذات مزاغل طول كل ضلع منها ٢٨ مترًا ما عدا الأبراج التي في زواياها وقطر كل منها ستة أمتار وهذه القلعة مرتفعة عن سطح الأكمة التي هي عليها بنحو سبعة أمتار ونصف والأكمة مرتفعة عن أرض الوادي بخمسة أمتار، وبداخل القلعة حواصل معدة لذخائر الحجَّاج والمستخدمين وبها محافظ ويوزباشي وملازم مخزنجي وبلوكباشي وستة وعشرون عسكريًّا ببندق طرز قديم بشطفة وستة طوبجيَّة ومدفع واحد نحاس طرز قديم بري وطول حوشها من الداخل ٢٣ مترًا في ١٥، وفي أسفل البرج الشَّرقي البحري ساقية ماؤها قيسوني عمقها ٢٢ مترًا يديرها ثوران فيصل ماؤها إلى خارج القلعة إلى ثلاثة أحواض مبنيَّة معدة للحجاج والقوافل أحدها طوله ١٤ مترًا في ٢٨ بعمق ثلاثة أمتار خرب من منذ سنتين والآخران كل منهما طوله عشرة في تسعة، أحدهما ملآن والآخر يملأ عند رجوع الحاج، وبجانب هذه الأحواض أحواض صغيرة مستطيلة تملأ لشرب الدواب وفي كل عام قبل طلوع الحاج بشهر يبعث الميري بأربعة أثوار مع لوازم الساقية لإدارتها مدة طلوع ونزول الحجَّاج ثم ترجع الأثوار إلى مصر مع الحج المصري، وفي بقيَّة العام يستخرج سكان القلعة الماء بواسطة حبال ودلاء مع المشقة الزائدة، وبخارج القلعة ساقية خربة وبئر مبنيَّة عمقها ١٦ مترًا قليلة المياه، وهناك عشش لسكنى العساكر وهذا الوادي أرضه سهلة صالحة للزراعة به ثلاثة مجار للسيل فمتى أتى ارتوى أغلبها وزرعتها العربان لأن طينتها التي تعلو الرمل خزفيَّة بيضاء صلبة بحيث إذا أمطرت ومشي عليها إنسان أو حيوان وترك أثر قدمه فيها ومضى عليها زمن تحجرت وصار الأثر كأنه أصلي في الحجر وعلى هذه القلعة يمر

الحاج المغربي ذهابًا وإيابًا، وبالقرب من الجهة الشَّرقيَّة القبليَّة للقلعة مقام شيخ يسمَّى الشَّيخ النخل باسمه سميت البقعة والقلعة، وفي أوان الحج يوجد هناك البطيخ والبلح والتين العلبي والجبن والدخان.

وفي يوم الجمعة ٣ منه استلم الخرج والعلائق وكانت الحرارة عند طلوع الشَّمس ٩ درجات، وفي س ٧ ق ٤٥ من ليلة السَّبت سار الرَّكب، وفي س ١١ ق ٣٠ نزل للاستراحة.

بئر أم عبَّاس

وفي يوم السَّبت ٤ ذي القعدة جد السير ابتداء السَّاعة الأولى من النَّهار في واد متسع سهل وكانت السماء قد أندت ليلًا بحيث استمر الجو غيمًا إلى س ٣ ق ٣٠ وقد انحرف الدرب عن الشَّرق إلى قبلي نحو عشرين درجة، وفي س ٥ تراءت من بعد جبال على طرفي الطَّريق، وفي س ٥ ق ٣٠ استراح الرَّكب، وفي س ٦ ق ٧ سار، وفي س ٩ ق ٣٥ مرَّ فوق محجر بجانبه خور ثم بعد خمس دقائق مرَّ في واد محاط بجبال بعيدة، وفي س ١٠ ق ٤٠ وصل إلى محطَّة (بئر أم عبَّاس باشا) للمبيت وهناك بئر ساقية مبنيَّة بالحجر ليس بها عدة للملء عمقها ١٦ مترًا وبجانبها حوض كبير طوله ١٥ مترًا في عشرة وعمقه ثلاثة أمتار وهي خربة معطلة ماؤها مر جدًّا لعدم النزح لانقطاع مرتبها فلذا تحمل الحجَّاج المياه اللازمة لهم من نخل ومن ذلك يصعب على الحجَّاج والمواشي قلة المياه بهذا المكان، وفي س ٧ من ليلة الأحد ضرب مدفع التَّحميل، وفي س ٧ ق ٤٥ سار الرَّكب خلف الدليل، وفي س ٩ ق ٣٠ مرَّ صاعدًا بجوار خور، وفي س ١١ استراح، وفي س ١١ ق ٣٠ اتبع البراح.

وفي يوم الأحد ٥ منه وصل في نهاية س ١ ق ٣٠ إلى جبال ممتدة يمينًا تقابلها

تلال بعيدة يسارًا، وفي س ٢ انتهت تلك التلال إلى واد متسع أرضه ذات رمل ثابت، وفي س ٣ ق ١٥ مرَّ بين جبلين من طريق اتساعه من مائة متر إلى ٥٠٠ ثم يصير عشرين مترًا، وفي س ٣ ق ٣٥ مرَّ بمحجر ثم بمتسع بين جبلين ثم مرَّ بمحجر آخر ضيق ثم آخر عرضه عشرة أمتار وكل منهما طوله خمس دقائق، وفي س ٣ ق ٥٠ مرَّ من محجر منقور في الجبل مستوي السطح والانحدار عرضه عشرة أمتار في طول ثلاثمائة متر وعلى يمين الطَّريق قبر مبني بحجر نحت، وفي س ٤ صعد على جبل مرتفع نحو خمسة أمتار سهل الانحدار عرض الطَّريق على سطحه ثلاثمائة متر وهي محاطة بالجبل، وفي س ٤ ق ٥٠ اتجه جبل اليسار إلى بحري، في س ٥ ق ١٥ نزل الرَّكب للاستراحة، وفي س ٦ سار، وفي س ٦ ق ٢٥ صعد على تل طفلي الجنس محاط بجبلين، وفي س ٦ ق ٣٠ اتجه جبل اليسار إلى بحري، وفي س ٦ ق ٥٦ مرَّ الطَّريق ما بين جبل اليسار وبين أكمات من جبل اليمين، وفي س ٧ ق ١٠ مرَّ على الأكمات، وفي س ٧ ق ١٥ صعد الرَّكب على جبال اليمين فرأى واديًا متسعًا يسارًا وجبالًا يمينًا في أرض مستوية السطح رملها ثابت به بعض زلط خفيف.

الأمشاش

وفي س ٨ ق ٥ مرَّ بين أكمات وانتهى جبل اليمين واتجهت الأكمة التي على اليسار إلى الشَّرق، وفي س ٨ ق ٢٥ اتجهت إلى بحري ورُئي الوادي متسعًا محدودًا بالجبال على بعد، وفي س ٩ ق ٤٠ انتهى الوادي ومرَّ الطَّريق بين تلال، وفي س ١٠ مرَّ على محطَّة (الأمشاش) وهو محل معد لنزول الحجَّاج به ليس به آبار ولا مياه إلا بعض حفائر مردومة يُقال: إن العرب تحفر هذه الحفائر وتأخذ منها المياه بسهولة لقربها من سطح الأرض في هذا المحل ثم تستبدلها بغيرها، وفي س ١٠ ق ٣٥ نزل الرَّكب بواد متسع يحدق به شجر عبل أرضه رمل أصفر تعلوه طبقة خفيفة من

الزلط، وفي س ٧ ق ٤٥ من ليلة الاثنين قام الرَّكب ونزل في س ١١ على (سطح العقبة).

وصف العقَبة

وفي يوم الاثنين ٦ القعدة في السَّاعة الأولى من النَّهار ابتدأ النزول من العقبة بحيث صار الراكب ينزل عن دابته أو جمله ويتجه للجنوب الشَّرقي نحو خمسين مترًا ثم يميل مبحرًا بين أكمات من صخر نحو ثلاثمائة وثلاثين مترًا ثم يتجه شرقًا قدر ثلاثمائة متر ويمر من محجر عرضه عشرة أمتار ثم يسير نحو ستمائة متر وينعطف جنوبًا نحو مائتي متر بين أكمات ثم ينعطف إلى الجنوب الشَّرقي قدر أحد عشر مترًا ويتجه إلى الشَّرق الشمالي قدر مائتين وثلاثين مترًا ثم يتضايق المحجر إلى عشرة أمتار بصخر شمالًا وخور يمينًا وبعد مائتين وثمانين مترًا يصعد الرَّكب مشرقًا قدر مائة وثلاثين مترًا ثم يسير في مستوى من الأرض عرضه خمسون مترًا، ويتجه مائلا قليلًا منه إلى الشمال الشَّرقي وبعد مائتين وخمسة وستين مترًا يجد هويا على اليسار وأكمة ومحجرًا خفيف الانحدار على اليمين ثم يتسع الطيق وبعد مائة متر يجد زلطًا ومحجرًا وعلى اليسار خورًا وبعد مائة وأربعين مترًا يسير في محجر بعد منحدر صعب النزول لا يمر منه إلا الجمل فالجمل مسافة عشرة أمتار ثم يميل الطَّريق إلى القبلي الشَّرقي بين هوى شمالًا وصخور يمينًا وبعد أربعة وعشرين مترًا لا يمر إلا الجمل فالجمل يستمر ذلك قدر مائة متر أيضًا لكثرة الصخور مع تقوس الطَّريق إلى الشَّرق ثم تتسع وتتجه إلى الجنوب الشَّرقي وبعد مائتي متر ينتهي الانحدار وتصير الأرض مرملة وبعد ثلاثمائة وعشرين مترًا يبدو منحدر وجبال، ثم بعد مائتي متر يوجد محجر وصعود عرضه ثمانية أمتار ثم رمل وصعود آخر في منحدر عرضه عشرة أمتار وبعد مائة وتسعين مترًا ينتهي الصعود ويسهل الهبوط وبعد مائة وخمسة وأربعين مترًا

يميل الطَّريق مبحرًا قدر مائة وعشرين مترًا ما بين خور يمينًا وصخور يسارًا ثم يوجد زلط ومحجر ثم يستقيم الطَّريق مشرقًا مقبلا نحو خمسة وتسعين مترًا ثم يتجه إلى شرقي بحري نحو ثلاثين مترًا ثم ينحرف جنوبًا بقدر أربعين مترًا ثم شرقًا بقدر خمسة وعشرين مترًا بين صخور ومحجر صعب ثم يتجه إلى الجنوب الشَّرقي وبعد أربعة وأربعين مترًا يوجد خور على اليسار ويسهل السير باستواء الطَّريق قدر مائتين وخمسين مترًا ثم يمر من نقب طوله عشرة أمتار وعرضه ثمانية وبعد ستين مترًا يظهر الخور الذي على اليسار ويميل الطَّريق مشرقًا بقدر اثنين وأربعين مترًا مع الصعوبة لشدة صلاة الأحجار وشرذمتها وإن كانت قليلة الانحدار نوعًا، ثم يتجه مقبلًا إلى نقب في الحجر منحدرٍ لا يمر منه إلا الجمل فالجمل قدر مائة وثمانين مترًا ثم يصير الهبوط سهلًا نحو مائة وستين مترًا ثم يميل إلى شرقي قبلي عن يسار خور قدر ثلاثمائة متر ثم يقبل نحو مائة متر ثم يستقيم بين الشَّرق والشَّرقي الجنوبي نحو خمسة وخمسين مترًا فينتهي إلى محجر هابط متجه إلى الشَّرق متقوس طوله مائتا متر لا يمر منه إلا الجمل في الجمل ولا يزال إلى الشَّرق قدر مائتي متر ثم يوجد هبوط صعب ذو حجارة كثيرة كبيرة لا يمر منه إلا الجمل فالجمل أيضًا متجه إلى الشَّرق الشمالي طوله ستون مترًا على يساره خور ثم ينعطف الطَّريق بانحدار يسير إلى الشَّرق الجنوبي قدر خمسة وخمسين مترًا ثم يرجع إلى الشمال قدر مائة وخمسة وعشرين مترًا مع الانحدار وهذه النقطة منخفضة عن التي قبلها أعني: النقطة التي بعد الستين مترًا بنحو عشرين مترًا ثم يتجه إلى الشَّرق الجنوبي قدر خمسة وعشرين مترًا ثم يستدير بتقوس مشرقًا مسافة ستة وثمانين مترًا في متسع ثم يميل مقبلًا ثلاثين مترًا فيستمر ما بين الشَّرق والشَّرق القبلي قدر ستة وسبعين مترًا ثم يميل شرقًا إلى مائة وخمسة وعشرين مترًا مع انحدار وهوى يمينًا ثم يبحر الطَّريق قدر ثمانين مترًا ثم يستدير إلى القبلي بانحدار شديد قدر مائة وثلاثة وسبعين مترًا ثم يتجه إلى القبلي

الشَّرقي فوق أساس مقاطع الخور الذي على الطَّرفين وبعد سبعين مترًا توجد قنطرة مبنيَّة لمجرى السيل النازل في الخور وإلى هنا ينتهي آخر العقبة، ومن هذا المحل يسهل سير الجمال بأحمالها إلى القلعة وبعد سير مائة وستين مترًا من القنطرة يميل الطَّريق مشرقًا مبحرًا قدر تسعين مترًا في عرض عشرة أمتار بين جبلين ثم يميل مشرقًا مقبلا مائة وثمانين مترًا في عرض سبعين مترًا على سطح مستوٍ بين الجبال سهل السير ثم يميل الطَّريق بين القبلي والقبلي الشَّرقي وبعد ثلاثمائة متر يصير عرضه أربعين مترًا وبعد ثلاثمائة أخرى يتجه إلى الجنوب قدر أربعة وستين مترًا ثم إلى الشَّرق الجنوبي قدر تسعمائة متر مع سهولة السير واستواء سطح الأرض ثم يستقيم بين الشَّرق والشَّرقي الجنوبي وبعد مائة متر يوجد صعود سهل بين أكمتين وبعد مائة وتسعين مترًا ينتهي الصعود وينحرف الطَّريق إلى الشَّرق وبعد مائتي متر يبتدئ صعود بين صخرتين ثم بعد مائتي متر ينتهي إلى هبوط مستوٍ قدر ثلاثمائة متر ثم بعد مائتين وثلاثين مترًا يبتدئ صعود آخر وبعد مسير خمسة وسبعين مترًا من الصعود يوجد خور يمينًا ثم بعد خمسين مترًا يتجه الطَّريق شرقيًّا قبليًّا نحو خمسين مترًا ثم يستقيم شرقًا وبعد مائة متر يوجد مجرى سيل ثم بعد مائة وعشرين مترًا ينتهي الصعود ويبتدئ الهبوط في متسع مستوٍ ما بين الشَّرق والشَّرقي الجنوبي قدره خمسمائة متر على يمين جبل ثم بعد مسير أربعمائة متر يمر بين تلال طولها تسعون مترًا ويكون عرضه تارة عشرة أمتار وتارة عشرين ثم يميل مشرقًا مقبلًا قدر مائة وخمسين مترًا ويتسع بين تلال ورمال سهلة السير نحو خمسمائة متر ثم بعد خمسمائة متر أخرى تنقطع التلال ويمر الطَّريق على يمين جبل وبعد مائة وعشرة أمتار يميل شرقًا مسافة أربعمائة متر ثم ينعطف يسيرًا إلى الجهة البحريَّة الشَّرقيَّة مسافة مائة وعشرة أمتار ثم يتجه إلى الشَّرق الجنوبي قدر ستمائة وثمانين مترًا ثم يمر بين تلال في عرض ثلاثين مترًا ويستمر ما بين الشَّرق والشَّرقي الجنوبي، ثم بعد خمسمائة متر

يصعد بين تلال وبعد مائتي متر ينحدر إلى خمسمائة متر فيتسع في أرض مرملة محاطة بتلال وبعد ثلاثة آلاف ومائة متر ينتهي إلى رمال البحر المالح ثم بعد أربعمائة متر يصير البحر المسمى ببحر العقبة عن يمينه فيمر على شاطئه وهذا البحر متصل ببحر السُّويس أي: القلزم والمرور من هذه العقبة شديد الصعوبة جدًّا فيلزم كل الحذر في نزولها وصعودها وخصوصًا الصعود وقد أجرى تنظيمها نوعًا المرحوم عبَّاس باشا ومع هذا فصعوبتها لم تزل شديدة ثم إن ابتداء النزول كان في أول السَّاعة الأولى والوصول إلى الشاطئ الشَّرقي من بحر العقبة كان في السَّاعة الثَّالثة.

قلعة العقبة

وهناك صار وكب المحمل بجوار نخيل وسار عن يمينه البحر المالح وعن يساره أرض مرملة يعلوها البحر عند المد وبانتهاء عرض البحر سلك طريقًا محتفة بالنخيل إلى أن وصل (القلعة) بعد خمس وأربعين دقيقة وهي قلعة متينة مبنيَّة بالحجر النحت على ثلاثمائة متر من الشاطئ أنشأها السلطان مراد ابن السلطان سليم طولها ٦٣ مترًا في عرض ٦٣ وفي أركانها أربعة أبراج اثنان منها آيلان إلى السقوط وعن يمين الباب برج وعن يساره آخر وحوشها طوله ٤٥ مترًا في مثله وفيه بئر معين عذب عمقه عشرون مترًا ومسجد صغير للصلاة وحواصل للذخائر وهذه القلعة فيها محافظ يوزباشي جهادي طوبجي وأربعة مدافع أحدها نحاس من عيار خمسة والثلاثة حديد وبها ٣٣ عسكريًّا بيادة وسبعة طوبجيَّة وبجوارها بيوت صغيرة وعشش وهي أكبر قلاع طريق الحاج وسكان هذه البقعة يبلغون مائة شخص وتأتي إليها العربان في موسم الحاج للتجارة بالفواكه مثل الخوخ والرمان والعنب من (معان) التي هي بلدة في حدود الشام وأما البامية والخضارات فتزرع بها وهناك نخيل ومياه عذبة ويحفرون حفائر بجانب البحر المالح فتنبع منها مياه أعذب من ماء

البئر التي في القلعة وقد شاهدت هناك بعض عجائب صنع ربي وذلك أنه حمل إليَّ سمك غريب الشَّكل ظهره زمردي اللون وجانباه بنفسجيان أشبه بالطير المسمى بالدرة لونًا وشكلًا فإن فمه وعينيه كمنقاره وعينيه.

ظهر حمار

وفي يوم الثُّلاثاء ٧ منه سنة ٩٧ صرف للعربان مرتباتهم من دراهم وبنشات وأكراك وشيلان كشميريَّة وشاش وحلويات وقد بلغت الحرارة بعد الظهر ٣١ درجة وبعد استلام الخرج والعلائق سار الرَّكب في السَّاعة العاشرة عن يمينه البحر وعن يساره الجبال في أرض تارة مرملة وأخرى متحجرة، وفي س ١ ق ٤٠ من ليلة الأربعاء أناخ للاستراحة، وفي س ٢ جد السير، وفي س ٢ ق ٤٠ صعد على سطح متباعد عن البحر، وفي س ٤ هبط منه، وفي س ٤ ق ١٥ مرَّ بجوار البحر، وفي س ٤ ق ٤٥ مرَّ من مضيق متحجر بين الجبل والبحر لا يمر منه إلا الجمل فالجمل بهبوط وصعود صعب في أرض تارة مرملة وتارة متحجرة ومتقطعة بمجاري السيول الآتية من الجبال إلى البحر، وفي س ٥ سار في نخل كثير ممتد إلى المحطَّة محصور بين الجبل والبحر وتضايق الطَّريق في بعض المحلات إلى عشرة أمتار، وفي س ٥ ق ٤٥ وصل الرَّكب إلى محطَّة (ظهر حمار) فحط فنزل ببقعة مرملة غربيها البحري البحر والنخيل وسائر جهاتها محاط برمال وتستخرج المياه هناك من حفائر بجوار البحر ولا سكن بها إلا أن العرب تأتي إليها في أوان البلح يجنونه ليبيعوه في جهات أخرى ولا يوجد هناك شيء للمبيع إلا حشيش للجمال بدلًا عن التبن.

الشرفا

وفي يوم الأربعاء ٨ منه صرف للعرب صباحًا ما هو مرتب لهم، وفي س ٧ ق ٤٠ سار الحاج صاعدًا على جبل مرتفع نحو العشرين مترًا صعب الصعود وبعد الاستواء على سطحه استراح نحو أربعين دقيقة ثم اتجه مقبلًا في واد متسع عن يمينه البحر وعن يساره جبال، وفي س ٨ ق ٥٠ مرَّ في خور، وفي س ٩ وصل إلى أرض مرملة بشاطئ البحر وفي السَّاعة ٩ ق ٣٠ نفذ من بين جبلين صاعدًا إلى واد مرمل به أكمات وخيران كثيرة يتصل بواد سهل مستوٍ بعيد عن البحر، وفي س ١٠ ق ٣٠ وصل إلى طريق متسع بين جبل وبعد نصف ساعة من الغروب استراح وفي السَّاعة الأولى من ليلة الخميس سار فمرَّ من أراض متحجرة ذات هبوط وصعود، وفي س ٥ ق ٣٠ اتسع الطَّريق وكثر الشجر المسمى بالعبل، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ ق ٣٠ جد السير، وفي س ٧ ق ٣٥ مرَّ بمقابر (الشُّهداء) وبهذا الوادي حشائش وزلط وهو محاط بالجبال، وفي س ١٠ ق ٥٠ نزل الرَّكب في محطَّة (الشرفا) وهو محل محاط بجبال عالية متحجرة ارتفاعها نحو خمسين مترًا ليس به مياه للشرب وقد حصل للمتوظفين بالمحمل مشقة شديدة لمنع أمير الحج الفراشين من التقدم أمام الرَّكب قبل الوصول إلى المحطَّة بساعتين لنصب الخيام كما كان معتادًا قديمًا ليستكن كل منهم في خيمته عند وصول الرَّكب ويستريح من التعب ويهيئ لنفسه ما يقتاته فإنهم لما وصلوا إلى المحطَّة آخر اللَّيل مع التعب الشديد لم يجدوا الخيام منصوبة وتأخر نصبها من الظلام وكثرة الازدحام وهم لذلك في غاية الانتظار حتى طلع النَّهار فدخل كل إلى خيمته واستكن بين أمتعته وقد شاهدنا مرارًا عديدة أن من ضاع منه شيء ونودي عليه فمستحيل أن يعود إليه.

وفي يوم الخميس ٩ منه سنة ٩٧ بلغت الحرارة بعد الظهر ٣٣ درجة، وفي س ٨ ق ٣٠ سار الرَّكب في طريق متسع مرمل به زلط وبعض حشائش وعلى جانبيه جبال شاهقة، وفي س ١١ ق ٤٥ استراح وبعد أربعين دقيقة من الغروب سار، وفي س ٥ ق ٥٠ استراح، وفي س ٦ ق ١٥ اتبع البراح إلى س ٨ ق ٢٥ ثم وقف خمسًا وثلاثين دقيقة وسار في س ٩، وفي س ١٢ وصل إلى عبل ونخيل من الجهتين ممتد إلى المحطَّة.

مغاير شعيب

وفي يوم الجمعة ١٠ منه بعد خمس وعشرين دقيقة من السَّاعة الأولى من النَّهار وصل إلى محطَّة (مغاير شعيب) وهو محل بين تلال يحدق به نخيل وعبل ليس به حشائش ولا مساكن مبنيَّة إلا زربيات من جريد لسكنى العربان وتحمل المياه العذبة من مغاير تحفر بجوار الشجر وهذه البقعة بعيدة عن المالح بأربع ساعات ويتوصل إلى البحر من وادي مدين ولا يباع بهذه المحطَّة شيء سوى حشيش البهائم وبلغت الحرارة عند الزَّوال ٣٨ درجة، وفي س ٨ ق ٣٠ من يوم الجمعة سار الرَّكب في واد متسع بين نخيل وعبل وجبال تارة قريبة من الدرب وتارة مستبعدة عنه وانتهى الشجر في س ٩ ق ١٠ وظهر اتساع الوادي برماله المنشورة بالزلط والحشائش، وفي س ١٢ عند الغروب استراح وبعد مضي خمسين دقيقة من الغروب سار، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ ق ٣٠ اتبع البراح، وفي س ١١ ق ٤٠ مرَّ من طريق بين أكمات منخفضة تارة وصاعدة أخرى على يمين جبل ممتد متسلسل.

عيون القَصب

وفي يوم السَّبت ١١ منه سنة ٩٧ في ابتداء السَّاعة الأولى من النَّهار نزل الرَّكب حذاء الجبل بمحطَّة (عيون القصب) وهناك بقعة بين جبلين بها نخيل وحشيش وسعتر وسلسول ماء آت من الجبال يجتمع في حفرة تحمل منها الحجَّاج مياهًا وقد بلغت الحرارة وقت الظهر ٤٠ درجة سنتجراد، وفي س ٧ ق ٣٥ سار ومرَّ من فوق جبل كثير الزلط إلى واد متسع أرضه صلبة بها حصى وحشائش، وفي س ٨ ق ٢٠ قرب الدرب من المالح بمسافة قليلة وصعد الرَّكب على تل إلى واد آخر، وفي س ٨ ق ٤٥ صار البحر عن يمينه وجبل مرمل ممتد عن يساره، وفي س ٩ ق ١٠ قل الجبل وكثر النخيل وصار البحر يبعد شيئًا فشيئًا ثم يقرب ثم يبعد، وفي س ٩ ق ٤٥ انتهى النخيل واتسع الوادي، وفي س ١٢ استراح الرَّكب وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل سار في هذا الوادي مع السهولة يشاهد بعضًا من شجر الدوم، وفي س ٥ ق ٤٠ استراح بالقرب من البحر، وفي س ٦ ق ١٥ سار، وفي س ١١ نزل بالقرب من (المـُويلح) بضم الميم وكسر اللام.

المُويلِح

وفي يوم الأحد ١٢ منه بعد مضي ق ٢٠ من السَّاعة الأولى من النَّهار استعد الموكب ودخل بلدة (المُويلِح) بعد ساعة واحدة وثلث ونزل على شاطئ البحر وهناك قلعة حصينة بها جامع ومخازن ومحافظ و٢٣ عسكريًّا يتبعهم أربعون في محطَّة (سلمى وكفافة) والقلعة مبنيَّة حصينة أنشأها السلطان سليم طولها مائة متر في عرض ثمانين وفي أركانها الأربعة بروج قطر الواحد منها عشرة أمتار وطول حوش

القلعة ٨٣ مترًا في عرض ٦٢ مترًا وبها مدفع من النحاس مستعمل وسبعة من الحديد غير صالحة للاستعمال وبها بئر قيسوني الماء عمقها أحد عشر مترًا وفي خارج القلعة آبار متعددة ونخيل بكثرة ومساكن من عشش الأبيتين أو ثلاثة ومخازن لتجارة الفحم والحطب والسمن والعسل ويزرع هناك بعض خضارات وأهلها نحو مائة شخص خلاف العربان والحمى متسلطنة على سكانها دائمًا وكذا داء الطحال وسبب ذلك اقتياتهم بالبلح قبل استوائه وبعده طول العام لفقد ما يقتاتون به غيره.

الزار

لأن الحنطة عندهم عزيزة جدًّا ولجميعهم من نساء ورجال اعتقاد قوي في الزار الذي عمت به البلوى في سائر الأمصار ويحكون في ذلك حكايات ما هي إلا خرافات.

سلمى وكفافة

وفي ١٣ منه صرف للعربان مرتباتهم صباحًا، وفي س ٨ ق ٥٠ سار الحاج في طريق مرمل إلى واد سهل ذي عبل أرضه صالحة للزراعة به بعض مجار للسيل، وفي س ١٠ ق ١٠ مرَّ في محجر بين تلال ممتدة في طريق تضيق تارة وتتسع أخرى، وفي س ١٠ ق ٥٠ مرَّ في محجر آخر، وفي س ١١ ق ١٠ ارتقى إلى مصعد وبعد الغروب بربع ساعة استراح وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل سار الرَّكب، وفي س ٣ ق ٣٠ مرَّ بواد مستوٍ جدًّا صلب الأرض صالح للزراعة، وفي س ٤ ق ٣٠ مرَّ بأرض مرملة وتلال على الجانبين ثم في أرض مستوية يعلوها حصى، وفي س ٥ ق ٣٠ استراح، وفي س ٦ ق ١٠ جد السير، وفي س ٩ مرَّ في محجر ضيق لا يمر منه إلا الجمل فالجمل يسمَّى

(بنقر العجوز) ثم هبط بين جبلين ثم اتسع الطَّريق واستوى، وفي س ٩ ق ٥٠ مرَّ في محجر إلى واد ذي عبل، وفي س ١٠ اتسع الوادي، وفي س ١٠ ق ٤٠ نزل بمحطَّة (الضبا) المسمَّاة (بسلمى وكفافة) وهي بقعة متسعة محاطة بجبال قريبة من البحر وبها بيوت وحواصل وجامع وبرج صغير وهي تابعة لمحافظة المويلح كما نبهنا على ذلك وآبارها عذبة وتجارتها الحطب والفحم والسمك وبها شجر دوم.

محطَّة أزلم

وفي يوم الثُّلاثاء ١٤ منه س ٨ ق ٣٥ سار الرَّكب، وفي س ٨ ق ٤٥ صعد إلى تلال مفضية إلى واد متسع مستوٍ يعلوه زلط عن يمين البحر بعيدًا منه بمسافة قليلة، وفي س ١٠ ق ٣٠ مرَّ على قبر الأكفافي، وفي س ١١ هبط يسيرًا في محجر، وفي س ١١ ق ١٥ صعد فوق تلال ثم مرَّ بالقرب من البحر، وفي س ١١ ق ٣٠ جاز خورًا ثم واديًا سهل الأرض، وفي س ١٢ استراح وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل سار الرَّكب، وفي س ١ ق ٣٠ وصل إلى منحدر خفيف، وفي س ٥ ق ١٥ سار في واد مستوٍ سهل به بعض زلط، وفي س ٦ ق ١٠ هبط من منحدر، وفي س ١٠ ق ٥٥ وصل إلى محطَّة (أزلم) وهناك قلعة مربعة الشَّكل مبنيَّة بالحجر النحت خربة من مدة سنين كان قد أنشأها الملك الأشرف أبو النصر في سنة ٥١٦ وليس بهذه المحطَّة سكن وفيها ثلاث آبار لشرب الدواب فقط عمق كل منها خمسة أمتار وبالصَّحراء حشائش تسمَّى بالرمث لا ينتفع بها وقد بلغت الحرارة وقت الظهر ٣٧ درجة.

وفي يوم الأربعاء ١٥ منه في س ٨ ق ٣٥ سار الرَّكب في هذا الوادي المتسع المحاط بالجبال، وفي س ٩ ق ١٠ ظهرت جبال على الجانبين ممتدة إلى المحطَّة الآتية تارة تبعد وتارة تقرب مع وجود حصى وشجر السنط وبعد ق ٤٥ من الغروب

استراح، وفي س ١ ق ٣٠ جد السير، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ ق ٤٥ سار في أرض متسعة محاطة بجبال تارة تعلو وتارة تنخفض.

اصطبل عنتر

وفي يوم الخميس ١٦ منه سنة ٩٧ بعد مضي نصف ساعة من النَّهار وصل الرَّكب إلى محطَّة (اصطبل عنتر) وهو محل متسع نوعًا ومحاط بالجبال في وسطه ثلاث آبار إحداها مردومة والآخريان فيهما مياه قليلة مرة لعدم نزحها سنويًّا وإن كان الميري يصرف في كل عام مبلغًا لنزحها وبجوارها حوضان طول كل منهما ١٥ مترًا في عرض ١٥ وعمق ثلاثة وبهذه المحطَّة أعراب يبيعون الحشيش، وقد بلغت الحرارة عند الزَّوال ٣٨ درجة، وفي س ٨ ق ٤٠ سار الرَّكب ومرَّ من فوق أكمة محجرة بين جبلين ومتعرجة كطريق الفار، وفي س ٩ ق ٣٥ اتسع الطَّريق وقرب من المالح بمسافة قليلة مع وجود حصى، وفي س ٩ ق ٤٠ سار في واد متسع به جبل فاصل بيه وبين البحر، وفي س ١٠ ق ٤٠ صعد على أكمات، وفي س ١٢ استراح وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل سار.

قلعة الوجه

وفي س ٥ ق ٥٥ استراح، وفي س ٦ ونصف جد السير بواد أرضه سهلة بسيطة، وفي س ١٠ ق ٢٠ استراح، وفي س ١١ ق ١٥ وصل إلى (قلعة الوجه) وهي قلعة حصينة من البناء كقلعة نخل في فلاة بين جبال من حجر أحمر صواني بها جامع ومخازن لخزن ميرة الحجَّاج والمحامل ومدفع واحد وثمانية أنفار حولها قفار كثيرة الزلط ليس بها إلا بعض نخل وشجر نبق لم يسق منذ أربع سنين لعدم نزول السيل

في هذه المدة وليس بها بيوت ولا أسواق لكن في أوان الحج يأتي إليها البياعون من المينا بساحل البحر وهو مينا متوسطة من مينا القلزم معدة للسفن وبها برج مشيد على جبل شاهق مشرف على البحر في ارتفاع ٥١ مترًا به مدفعان من عيار واحد ونصف وثلاثون عسكريًّا وصاعقول أغاسي محافظ وبيوت صغيرة وسوق وثلاثة جوامع وتجار وأهاليها نحو الخمسمائة تقريبًا ما عدا العربان المقيمين هناك والخضار معدوم منها وبها بئر ماؤها عذب تحمل منها المياه إلى القلعة وإن كان بالقلعة آبار مبنيَّة عمق الواحد منها خمسة أمتار وقطرها متران إلا أن مياهها مرَّة لا تصلح للشرب إلا إذا غلب عليها السيل أو نزحت كما ينبغي مع أنه كل عام يصرف الميري مبلغًا لأجل نزحها وتطهيرها فالمبلغ لا يزال يصرف كالمعتاد والآبار لا تنزح في الميعاد، وعند نزول الرَّكب هناك وجدت المياه غير صالحة لشرب البهائم بالكليَّة لمرارتها فتحقق أنها لم تنزح وأضر ذلك بالحجَّاج حتى اجتمع السقاءون المتوظفون للحاج فنزحوا بئرين منها في نحو ثلاث ساعات حتى زالت المرارة منها فارتوت الدواب وأما المستخدمون بالمحمل فقد حملت إليهم المياه من المينا على الجمال وبعضهم استبطأ مجيء الماء فاشترى من العربان القربة الواحدة من الماء بنصف ريال وقد بلغت الحرارة وقت الزَّوال ٤٢ درجة ويصعد إلى البرج بطريقين: أحدهما من جانبه والآخر من الطَّريق الموصلة للقلعة وله سفح متسع تنزل به القوافل وينزل من هذا السفح لدرب منحدر يمر به الجمل فالجمل ينتهي إلى واد بين جبال متسلسلة وينعطف للطريق التي تتصل بالدرب الآتي من جهة البحر ويسير فيه حتى يصل لقلعة الوجه أعني: بعد ساعة وخمسين دقيقة من المينا والمسافة ٩٠٠٠ متر ومحافظو تلك القلعة مقيمون بداخلها خوفًا من العرب الذين لا يأمنونهم وصرف للعرب حقوقهم من الدراهم والكساوي فوجد عدد من الكساوي والخلع ناقصًا عن المرتب فسئل كاتب الصرة عن سبب ذلك فأجاب بأن الروزنامجة صرفت

للصرة أثمان ما ينقص ليصرف لأربابه وقد أبى بعض من نقص مرتبه قبض هذا المبلغ وأنف من ذلك ومنهم الشَّيخ سليمان شيخ عرب الوجه فإنه لعدم وجود بنشه الذي هو من العال أراد كاتب الصرة إعطاءه دراهم في مقابلته فأبى ذلك ورأى أن أخذه للثمن عار وأخذ بنشًا من النمرة الدون.

اعلم أن الأعراب إذا اجتمعوا في مجلس لا يتميز بينهم الأمير من الحقير ولسوء أدبهم لا يوقر صغيرهم الكبير، لا أمان لهم، شيمتهم الغدر ولولا الخوف من سطوة الحكام لذبحوا كل من مرَّ بهم وسلبوه ومع هذا فإنهم يفعلون ذلك بمن انفردوا به، حصونهم الجبال لا يبالون بحرام ولا حلال حفاة جفاة شيخهم بلا نعال لا يعرف لبس السروال وشرفه في كوفيته وعقاله وقلما يصغون إلى مقاله وقد شاهدت فيما بعد منهم عدم التوقير وكثرة الجراءة أمام شريف مكَّة المكرَّمة مع ماله من الجلالة والعظمة.

وحيث قد سبق لي التوجه إلى المدينة المنوَّرة من الوجه سنة ١٢٧٧ بوظيفة مهندس بمعيَّة المرحوم محمَّد سعيد باشا والي مصر مدة سفره إلى المدينة ورسمت الطَّريق ومقاسها بالمتر بواسطة آلة تسمَّى هكتومتر فاستصوبت أن أبين ذلك الخط قبل التوجه إلى مكَّة حيث إن كثيرًا من الناس يتوجهون إلى المدينة قبل الحج للزيارة وينتظرون قدوم أوان الحج حتى يتوجهوا من هناك مع قافلة المدينة إلى مكَّة لأداء الحج ومنها يعودون إلى أوطانهم بدون عودتهم للزيارة ثانيًا.

وقد كان القيام من السُّويس يوم السَّبت صباحًا ١٥ رجب سنة ١٢٧٧ على البواخر البحريَّة المستعدة لذلك وكان برفقة المرحوم سعيد باشا ألف نفس من العساكر وخلافهم وما يلزم لهم ذهابًا وإيابًا، ورسينا بمينا الوجه في السَّاعة الثامنة من اليوم الاثنين ١٧ منه وكانت الجمال اللازمة للركوب والمشال مستحضرة هناك

من مدة أيام من إبل العرب المسمَّاة عندهم بعرانا وبلا تحريفًا من إبل وهي دون جمال مصر والشام بكثير بها نحافة وهزال ووبر زائد لا تقدر على حمل المثقلات وسيرها بسرعة على غير انتظام وتزعجها أصحابها وتوقفها بأصوات ولقلقة معروفة عندهم ولا يمكن شد المحفات عليها لهزالها وعدم ائتلافها ولكن البعض منها يشدون عليه شيئًا يشبه المحفة يسمونه (شقدفًا) وهو شطران مصنوعان من خشب الخيزران ومقضب بقشرة يوضع على جانبي البعير وظهر الشطر محدب مرتفع يتصل بزميله عند شده على البعير بحيث يسع كل شطر منهما نومة إنسان ويصير الظهران مظللين على الراكبين بهما وهي معدة لركوب نساء أغنياء العرب وتارة يستأجرها الحجَّاج من نحو المدينة ومكَّة ويغطيها بعضهم بأبسطة لإظهار الافتخار وتلك الإبل تقتات بحشيش معروف وأحيانًا يسففونها معجون مدقوق نوى التمر ولها صبر على الجوع والعطش كأصحابها.

وبالقلعة تتقاطع ثلاث طرق: الأول موصلة للسويس وتسمَّى طريق العلا، والثَّانية الستار، والثَّالثة الموصلة للمدينة المنوَّرة.

طريق المدينة

وفي ثاني يوم سرنا من تجاه القلعة تارة تجوب أرضًا سهلة وتارة نمر بجبال أو صخر وحجارة في رمال وهناك بعض أعشاب وأشجار مثل عبل وشوك نابتة من السيول وبعد نصف ساعة هبوط من محجر زلط واد متسع ذي سنط أرضه صلبة مرملة ثم مرَّ من بين جبلين إلى واد متسع به أكمات منحصرة زرقاء مشققة تشققًا رأسيًّا على شكل ألواح يعسر السير فوقها بدون نعال ووصلنا إلى واد متسع يسمَّى (بوادي المياه) على مسيرة ٢٤٠٠٠ من القلعة، وبعد الاستراحة نصف ساعة نهضنا

ووصلنا منه لواد يسمَّى (بفرش النعام) ومنه لواد متسع معد لنزول القوافل وبه محطَّة (أم حرز) أو مفرق الدربين أعني: الدرب الموصل إلى مكَّة والذي إلى المدينة فنزل هناك الرَّكب على مسيرة ٢٤٠٠٠ متر من وادي المياه وهذه المحطَّة لم يكن بها آبار ولا مياه ولا أعشاب وإنما الحجَّاج تحرز المياه مما قبلها ونزل علينا بها أمطار طول ليلتنا من غير أن تتجمع منها سيول لوجود الرمال، وفي العادة أن أغلب الأمطار في تلك الجهات وما يليها لجهة القطب تكون في الصيف ويكون أكثر ابتدائها من قبل الغروب وتمر أحيانًا للشرق وقل أن تكون بالنَّهار إلا في زمن الشتاء.

وفي صباح اليوم الثَّاني السَّاعة الثَّانية سرنا من وادي (أبي العجاج) وعلى مسيرة ١٨٠٠٠ متر وصلنا لواد متسع يسمَّى بالرويضة واسترحنا به قدر ربع ساعة ثم سرنا بميمنة جبل ٧٠٠٠ متر وانتهينا إلى جبال شاهقة من صخر أسود أصم يقال لها: جبال سلع يتقطع الغمام من فوقها يصعد منها أبخرة كثيرة وارتفاعها من ٧٠٠ متر إلى ٨٠٠ متر يعسر صعودها جدًّا لملاستها والطَّريق تمر من بينها بمفازات ضيقة وهذه المفازات من أعظم الدربندات ولكن لم يكن هناك من الأعراب من يسكن بها لعدم صلاحيتها لسكانهم ثم بعد ١٠٥٠٠ متر وصلنا لواد متسع به أشجار سنط ومنه إلى ٢٥٠٠ متر تضيق الطَّريق كالأول إلى مسيرة ألف متر ثم تأخذ في الاتساع إلى ألف متر وهناك المحطَّة المسمَّاة (بالخوثلة) وكان السير من أم حرز ٤٠٠٠٠ متر وهذه المفازة يسمَّى ابتداؤها بالمبحرة والدرب كله يسمَّى (بدرب المحشرة) ومسافتها ١٤٠٠٠ متر والجبل الذي بميمنة المبحرة يسمونه (رال) والطَّريق هناك تكون تارة في اتساع خمسين مترًا وتتسع أحيانًا إلى مائة وثلاثين مترًا وبعض المحلات عسر السير جدًّا لكثرة الزلط وأشجار السنط التي بها ومحيط بهذه المحطَّة جبال شاهقة عجيبة الشَّكل والحجَّاج يبيتون بها وفيها مياه عذبة، وفي ثاني يوم س ٣ ق ١٥ سرنا ودخلنا طريقًا أقل عرضه ٢٠ مترًا وعلى مسيرة ٣٥٠٠ متر صخرة من

حجر أحمر في وسط الطَّريق تمر الحجَّاج من طرفيها ويضيق الطَّريق بسببها وعلى ٣٠٠٠ متر منها صخور وأحجار إلى ١٥٠٠ متر ثم يبدو طريق به أشجار محدقة وأحجار مفرقة متكونة من طبقات ومتفتتة من كثرة الحرارة والأمطار، وفي س ٧ ق ٣٠ وصلنا إلى واد متسع وأقمنا به نصف ساعة وسرنا منه إلى محطَّة (مطر) على مسيرة أحد وثلاثين ألف متر من الخوثلة، ومحطَّة مطر لم يكن بها مياه ولوجود المياه معنا بكثرة ونشاط دوابنا سرنا بدون مكث وقبل الغروب بنصف ساعة أنخنا بمحل بين جبلين شاهقين من حجر أسود على مسيرة خمسة آلاف وخمسمائة متر منها وبتنا بها فيكون سير هذا اليوم من الخوثلة ستة وثلاثين ألف متر وخمسمائة متر ومن قلعة الوجه مائة وأربعة عشر ألف متر وخمسمائة متر وأحيانًا يوجد بهذا الطَّريق شجر وبه رمل وحجر والجبال لم تزل يمينًا وشمالًا وبعض الأودية واسع وبعضها لمرأى العين ومرتفع الجبل أكثر من منخفضه.

وسرنا في س ٣ ونصف من يوم الأحد ٢٣ الشَّهر ودخلنا طريقًا به أشجار وزلط كثير إلى مسافة ٨٠٠٠ متر ثم مررنا بطريق ذي رمل كثير طوله ١٢٠٠٠ متر ووصلنا لوادي (العقلة) وكانت س ٦ ق ٣٠ من النَّهار فنزلنا به قدر نصف ساعة وهو واد ذو أشجار ورمل وأحجار صقليَّة ثم سرنا منه ١٣٢٠٠ متر حتى وصلنا إلى محطَّة (العقلة) في س ١٠ فيكون سير هذا النَّهار ٣٣٢٠٠ متر والسير من قلعة الوجه ١٤٧٧٠٠ متر وهذه المحطَّة بها مياه مالحة لا تصلح إلا لشرب البهائم وتحرز الحجَّاج لها المياه مما قبلها ويتلاقى بهذه المحطَّة طريقان: إحداهما طريق الحج المعتادة والثَّانية أقرب من الأول بنحو ٤ ساعات لكنها عسرة السلوك وخطرة المناخ ولا يمكن سير العربات والمدافع بها وفيها أشجار سنط بكثرة كما علمنا.

وفي صباح يوم الاثنين ٢٤ منه سرنا في س ١ و ق ٥٠ من طريق الحج المعتاد إلى

السَّاعة ٦ ق ٣٠ مسافة ٢٤٠٠٠ متر واسترحنا نصف ساعة وهناك جبال من حجر أحمر وأرض مرملة بها شجر ثم سرنا من ذلك المحل ٤٥٠٠ متر فوجدنا آثار بناء على يمين الطَّريق ظاهر طلله في صورة شكل مربع ضلعه خمسون مترًا ويسمَّى بالقصر الأحمدي وشهرته على لسان العامة قصر حجي وبه حائط قائم فيه باب ووصلنا من ذلك المحل لواد يقال له: (عمودان) وانتهينا منه إلى محطَّة (الفُقَيِّر) بضم الفاء وفتح القاف وتشديد الياء ونزلنا بها بعد الغروب بساعة واحدة وخمسين دقيقة وكان سيرنا هذا اليوم من محطَّة العقلة ٥١٠٠٠ متر ويكون السير من قلعة الوجه إلى هناك مائة ألف وثمانية وتسعين ألف متر وسبعمائة متر وأقمنا بها يوم الثُّلاثاء للاستراحة لوجود المياه بها وفقدانها في المحطَّة التي بعدها.

وفي صباح يوم الأربعاء السَّادس والعشرين من الشَّهر سرنا في س ١ و ق ٣٥ وفي ابتداء هذه الطَّريق صعوبة لامتلائها بالعبل وأرضها مسبخة وعليها طبقات ملح متكون من تجمع مياه المطر على السبخ وهناك أيضًا جداول مياه جارية من الوادي وانقطع العبل على خمسة آلاف متر وعلى الميمنة جبل من حجر أسود كالح ثم يتسع الوادي وعلى يساره زلط وكيمان بكثرة لمسافة سبعة آلاف وخمسمائة متر ثم يكثر الزلط والتلول في شكل الشقافة، وفي س ٥ ق ١٥ نزلنا للاستراحة على سير ١٦٠٠٠ متر من ذلك النَّهار ونهضنا في س ٦ و ق ٢٠ وسرنا بين تلول لا نشاهد جبالًا حتى وصلنا لمحطَّة (النقارات) في س ٨ و ق ٢٠ على مسيرة ٢٩ ألف متر من الفُقَيِّر وهذه المحطَّة ينزل بها الحجَّاج وليس بها آبار وحيث كان الوقت وقت عصر سرنا منها ٨٥٠٠ متر ودخلنا واديًا سهلًا لا نرى حدوده وبتنا به فكان سير هذا اليوم ٣٧ ألفًا وخمسمائة متر فيكون السير من قلعة الوجه إلى هنا ٢٣٦٢٠٠ متر، وفي س ١ ق ٣٠ من صباح ٢٧ منه سرنا ودخلنا في متسع سهل به حشيش ذو رائحة يميل إلى طعم النعناع أو اللبان وهو مرعى الأرانب والغزلان وعلى الجهتين جبال

مرملة ولدى سير ٢٤ ألف متر وصلنا في س ٦ و ق ٥٠ إلى محطَّة (أبي الحلو) وتسمَّى بالآبار الحلوة، وفي س ٨ أخذنا في المسير وأخذنا الماء للمحطَّة التي بعدها حيث لم يكن بها مياه وكان السير بين جبلين من رمل وزلط وأنخنا قبل الغروب بنصف ساعة على مسيرة أربعين ألف متر وخمسمائة متر من مسير ذلك اليوم وبتنا في واد متسع محاط بتلول وعلى هذا يكون من قلعة الوجه ٢٧٦٧٠٠ متر.

وفي صباح يوم الجمعة ٢٨ رجب قمنا من هذا المحل في السَّاعة واحدة ونصف وبعد مسافة قليلة انتهى الوادي لتل يتخطاه الطَّريق ومنه دخلنا في طريق متسع ذي أشجار من سنط وعبل وتراءى لنا من بعد عن جهة اليمين جبل شاهق في ارتفاع ٥٠٠ متر وفوقه صخرة عظيمة كهيئة أعظم ما يكون من الطوابي العسكريَّة يظنها الرائي مركبة من بناء تعرف عند العامة (باصطبل عنتر) وهو على مسير ١٩٠٠٠ متر من سير هذا اليوم وما زال منا بمرأى العين لثاني يوم، وفي س ٧ و ق ٥٠ وصلنا إلى محطَّة (الشجوى) على مسير ١١٥٠٠ متر من اصطبل عنتر وبهذه المحطَّة آبار وقلعة مهجورة قيل: إنها منذ سنتين نهبتها العرب وشتتت محافظيها وعندها يجتمع ويفترق طريقا الحج الشامي والمصري فأنخنا بها على مسيرة ٣٠٥٠٠ متر من سير هذا اليوم فيكون المسير من قلعة الوجه ٣٠٧٢٠٠ متر واشتد الحر في هذا النَّهار حتى وجدنا درجة الحرارة داخل الخيمة بلغت ٣٥ درجة من الترمومتر المئيني أي: السنتجراد وكان ذلك في شهر طوبة وفي الصباح س ١١ نزلت الحرارة لدرجة صفر وكانت درجة الحرارة خارج الخيمة ٤ تحت الصفر وقارب الماء أن يتجمد.

وفي س ٢ و ق ٣٠ من صباح السَّبت ٢٩ رجب قمنا من هذا المحل واعتدلنا إلى الطَّريق وعلى مسافة ٢٠٢٠٠ متر وصلنا لواد متسع أرضه سهلة مرملة تصلح للزراعة وبعضه طين صلب أبيض كشقافة القلل ثم انحرفنا لطريق بين جبلين

ابتداؤه في عرض خمسين مترًا ثم يأخذ في الاتساع شيئًا فشيئًا وبه زلط كثير وجبال من صخر أسود وبعض أشجار من سنط وخلافه وجميع أشجار تلك المحلات غير مثمرة ولا تنفع لشيء سوى الحريق لكون الشَّمس أخذت قواها وامتصت ماءها وجدواها وكبيرها قليل بسبب الأملاح والزلط والأحجار التي تصادف جذورها وتعطلها عن النمو، وفي س ٧ و ق ٢٠ أنخنا للاستراحة قدر نصف ساعة على مسير ٢٣٠٠٠ متر وكانت الشَّمس كثيرة الحرارة في هذا اليوم مع أن الشَّمس كانت في الحوت والفصل فصل الشتاء ولولا كثرة المياه التي معنا؛ لأتعبتنا شدة الحر.

محطَّة المليح

ثم سرنا وأنخنا على مسيرة خمس وثلاثين ألف متر من سير هذا اليوم بمحطَّة (المليح) وكانت السَّاعة عشرة ونصفًا فيكون المسير من قلعة الوجه ثلاثمائة ألف متر واثنين وأربعين ومائتي متر وهذه المحطَّة بقعة سهلة الأرض بها آبار وماء حلو.

الضعيني

وفي صباح يوم الأحد سلخ الشَّهر س ١ و ق ٥٠ قمنا من هذا المحل وبه طريق توصل لينبع النخل على مسير ثلاثة أيام وهي قريبة جدًّا لكن بها عقبة ضيقة لا يمر منها إلا الجمل الواحد في طول ساعة ولا يمكن سلوك عربة مدفع ولا تخترون منها وهي مسلوكة للسعاة كما دلت عليه الاستكشافات وتبعنا في سيرنا طريقًا عرضها من ألف متر إلى ألفي متر أرضها سهلة ورملها ثابت بها أشجار في بعض مواضع ذات جبل كالتلول ووصلنا إلى محطَّة (الضعيني) في س ٧ و ق ٥٥ على مسيرة ٢٩٥٠٠ متر ومحل هذه المحطَّة متسع به آبار قليلة واسترحنا إلى س ٩ و ق ١٠

وسرنا إلى س ١١ و ق ٥٥ ونزلنا بمحل به زلط على مسيرة اثنين وأربعين ألف متر وستمائة متر من سير هذا اليوم فيكون السير من قلعة الوجه ٣٨٤٨٠٠ متر.

آبار عثمان

وفي صباح يوم الاثنين س ١ و ق ٣٠ قمنا من هذا المحل وسلكنا دربًا به زلط كثير محاط بجبال من الطَّرفين من نوع الصوان إلى أن وصلنا س ٦ و ق ١٥ إلى آبار عثمان على مسيرة عشرين ألف متر وثلاثمائة متر وهو محل متسع به بعض محلات مزروعة تروى من آبار عند عدم السيل وهناك حوض لطيف بجانبه مصلى تنسب لسيِّدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ويرى جبل أُحد عن مسيرة هذا المصلى وهناك مقام سيِّدنا حمزة عم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ورضي الله عنه فاسترحنا هناك للساعة سبعة وسرنا بين جبلين أحدهما جهة اليمين يقال له: سلع والآخر قطعة من صخر جهة اليسار ولما خلصنا من بينهما دخلنا أضاحي المدينة المنوَّرة على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام وهي بقعة في غاية الاتساع وعلى مرأى العين منها جبال شاهقة وهذه البقعة كادت أن تكون كبستان محاط بأشجار وأنهار وفي وسطها المدينة المنوَّرة النَّبوية محاطة بسور عظيم مشد منيع والحرم النَّبوي بوسط المدينة كمشكاة فيها مصباح وقبته الخضراء عليه الصَّلاة والسَّلام ترى من بُعد كأنها قباب ملك وسط معسكره والمنارات الخمسة كأعلام النصر يحصل للرائي عند مشاهدتها الانشراح والسرور.

باب المدينة

وجبل سلع غربي المدينة فاصل بينهما الطَّريق الموصلة إلى مكَّة وعلى مسيرة

٢٧٠٠ متر من آبار عثمان قصر وبستان على يسار الطَّريق لسعادة داوود باشا وعلى الميمنة قبة شيخ وجبل سلع، وباب المدينة تجاه الطَّريق ويسمَّى بالباب (الشامي) وحينئذٍ يكون مقام سيِّدنا حمزة خلف الداخل إلى المدينة وعلى ألف متر من القصر المذكور باب المدينة المنوَّرة وعليه غفر من العسكر ومن داخل الباب محل على اليمين يسمَّى بالطوبخانة، وفي السَّاعة ثمانية إلا ربعًا وصلنا باب المناخة على مائة متر من الباب الشامي وعن يسار باب المناخة من الداخل طريق موصل لداخل المدينة فيكون سير هذا اليوم ٢٤١٠٠ متر والسير من قلعة الوجه إلى باب المناخة ٤٠٨٩٠٠ متر، بانضمام ٩٠٠٠ متر التي من مينا الوجه إلى قلعته تصير المسافة من مينا الوجه لباب المناخة أربعمائة ألف وسبعة عشر ألف وتسعمائة متر.

واعلم أن كل ساعة وربع من ساعات سير جمال الرَّكب من القوافل تضاهي سير ساعة فقط من هذا السير المعين بالمقاس المتري.

السير برًّا من الوجه إلى مكَّة

وحيث وصلنا من الوجه إلى المدينة فلنرجع الآن لما نحن في صدده ونستمر بالطَّريق الموصلة إلى مكَّة من الوجه برًّا ليتم المقصود فنقول: إن الحج المصري بعد صرف مرتبات العرب والاستراحة يومًا قام يوم السَّبت وسار في السَّاعة السَّابعة وأربعين دقيقة بين جبال وتلال وبعد نصف ساعة هبط من محجر وزلط إلى واد متسع ذي سنط أرضه مرملة صلبة، وفي س ١١ و ق ٣٠ مرَّ من بين جبلين إلى واد متسع به أكمات متحجرة زرقاء مشققة تشققًا رأسيًّا على شكل ألواح يعسر السير فوقها بدون نعال، وفي س ١٢ راحة وفي الأولى من اللَّيل جد السير، وفي س ٥ و ق ٣٠ استراح بالقرب من مفرق الدربين أعني: الدرب الموصل إلى المدينة والذي إلى

مكَّة، وفي س ٦ و ق ١٥ اتبع درب مكَّة وسار في واد تارة بعلوه زلط وتارة رمال فيها عبل، وفي س ١١ و ق ١٥ استراح قدر عشر دقائق ثم سار وبعد أن مضى ربع السَّاعة الأولى من يوم الأحد مرَّ بكثير من العبل والسنط في أرض تعلوها طبقات طين صالحة للزراعة، وفي س ١ و ق ١٥ من النَّهار صعد فوق أكمة إلى سطح واد مستوٍ فيه زلط كثير يسمَّى (بوادي العكرة) وهنالك نزل على غير ماء ولا مساكن؛ لأن المياه لا توجد في نحو هذا المكان إلا عند نزول السيل وقد بلغت الحرارة عند الزَّوال ٣٨ درجة وفي السَّاعة ثمانية وخمسة وأربعين دقيقة سار الرَّكب واستمر في الوادي إلى السَّاعة التَّاسعة ثم ارتقى على سطح واد آخر به حصى، وفي السَّاعة اثنتي عشرة وربع استراح، وفي س ١ و ق ٤٥ من اللَّيل جد السير، وفي س ٦ استراح، وفي س ٧ سار.

محطَّة حنك

وفي العاشرة وربع وصل إلى محطَّة (حنك) ولعدم وجود المياه بها استمر على السير، وفي س ١١ و ق ٤٥ نزل في محل متسع به سنط وزلط وليس فيه آبار ولا مياه لكن مياه الرَّكب كانت قد حملت قبل ذلك من الوجه.

وفي يوم الاثنين ٢٠ منه سنة ١٢٩٧ قد بلغت الحرارة وقت الظهر ٣٥ درجة في السَّاعة السَّابعة ونصف سار في واد ذي رمل ثابت في بعض مواضع منه حصى وسنط وحشائش كثيرة للجمال، وفي السَّاعة العاشرة رُئي البحر على بعد، وفي س ١٢ استراح الرَّكب وفي السَّاعة الأولى من ليلة الثُّلاثاء سار، وفي س ٢ و ق ٥٠ مرَّ في محجر عرضه خمسة عشر مترًا منحدر بقدر اثني عشر مترًا به أحجار كبيرة لا يمر منه إلا الجمل أو الجملان ولم يقطعه إلا بعد نصف ساعة فضلًا عن عشرين دقيقة

مضت قبل المرور في تحضير وترتيب المشاعل والماهتابات ثم استراح قد ربع ساعة، وفي س ٤ سار، وفي س ٧ استراح ورُئي عن يمينه البحر، وفي س ٧ و ق ٣٠ سار، وفي س ١٠ و ق ٤٠ وصل إلى محطَّة (الحوراء) في محل متسع به عين ماء عذب تجري إلى بقعة يتخللها النخيل كجنة وسط هذه الصَّحراء يرى البحر بعيدًا عنها بمسافة نصف ساعة وبها أعراب يبيعون التمر والعسل والحشيش للدواب، وفي يوم الثُّلاثاء ٢١ منه لم يزل مقيمًا بها وكانت الحرارة عند الزَّوال ٣٧ درجة.

وفي يوم الأربعاء ٢٢ منه بلغت الحرارة وقت الزَّوال ٣٤ درجة، وفي س ٧ و ق ٣٠ سار الرَّكب وفي السَّاعة ثمانية ونصف مرَّ بين جبلين متباعدين وفي السَّاعة التَّاسعة وصل إلى واد متسع ذي أرض صلبة، وفي س٩ و ق ٤٠ مرَّ بين تلال، وفي س ١٠ و ق ٢٥ وصل إلى منحدر مستوٍ عرضه عشرة أمتار ثم إلى اتساع بين جبال وسنط كثير، وفي س ١٠ و ق ٣٠ صعدا إلى مرتفع عرضه خمسة عشر مترًا في زلط كثير، وفي س ١٠ ق ٤٥ اتسع الطَّريق إلى ثلاثين مترًا ووجد في أعلى الجبال شجر القفل المستعمل في تبخير أواني الشرب وفي السَّاعة ١١ وصل إلى متسع بين جبلين ذي زلط يكثر تارة ويقل أخرى، وفي س ١١ و ق ٣٠ وصل إلى منحدر يسير عرضه عشرون مترًا ثم إلى متسع كثير الرمل وفي السَّاعة ١١ و ق ٤٠ مرَّ في محجر ضيق بين جبلين عرضه من ثمانية إلى عشرة أمتار ثم من أربعة إلى خمسة ثم اتسع شيئًا فشيئًا وفي السَّاعة ١١ و ق ٤٥ وصل إلى دربند أي: مضيق عرضه عشرة أمتار بين صخرتين مرتفعتين نحو ثلاثين مترًا ثم اتسع الطَّريق وفي السَّاعة ١٢ وصل إلى رمال في مبدأ الأرض المشهورة بوكالة الحمير وذلك أن الحمير الضعيفة تنقطع هناك لكثرة الرمال وفي نصف السَّاعة الأولى بعد الغروب استراح، وفي س ١ و ق ٣٠ من اللَّيل جد السير، وفي س ٣ و ق ٢٠ صعد فوق تل رمل وفي السَّاعة ٦ استراح وبعد نصف ساعة سار وفي السَّاعة ١١ ق ٣٥ استراح.

محطَّة نبك

وفي يوم الخميس ٢٣ منه أخذ في السير في ابتداء السَّاعة الأولى من النَّهار وبعد خمس وعشرين دقيقة منها نزل بمحطَّة (نبك) المعروفة ببير السَّيد وهي محل متسع مرمل بين جبال من صخر بها معادن الحديد والنحاس والمرقشيثا وبالمحطَّة أربعة آبار مبنيَّة اثنتان منها مردومتان وبالثَّالثة ماء يسير لوجود ردم بها وأما الرَّابعة ففيها ماء عذب وعمقها خمسة أمتار وقطرها من الأعلى ثلاثة أمتار ومن سطح الماء أربعة لوجود أربعة أكتاف كالعمد مبنيَّة من قرارها إلى الماء وفوق ذلك بناء دائر البئر أقل قطرًا من الأسفل وارتفاعه إلى سطح الأرض نحو أربعة أمتار وفيها أيضًا ردم فإن لم تنزح ارتدمت في أقل زمن كالآخريين وقد بلغت الحرارة عند الزَّوال ٣٠ درجة.

محطَّة الخضيرة

وفي السَّاعة ٩ ق ٤٥ سار الرَّكب في واد مرمل محاط بجبال يسمَّى (بوادي النار) لاشتداد الحرارة به صيفًا وفي السَّاعة ١٢ عند الغروب نزل وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل سار، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ ق ٤٠ سار، وفي س ١١ ق ١٠ نزل بذلك الوادي بين جبلين بهما آثار حديد ونحاس كثير أرضه سهلة تعلوها حشائش وعند اشتداد الشَّمس تلمع الرمال كالذهب لكثرة اختلاطها بالمرقشيثا وهذا المكان يسمَّى (بمحطَّة الخضيرة).

وفي يوم الجمعة ٢٤ منه بلغت الحرارة بعد الزَّوال بساعة ٣٩ درجة وفي السَّاعة ٩ ق ٤٥ سار الرَّكب واستمر بين جبال سود مكونة من حديد وغيره في أرض سهلة جدًّا في غاية الاستواء صالحة للطرق الحديديَّة ولم تزل كذلك إلى الغروب وبعد عشر

دقائق من الغروب استراح ثم في السَّاعة الأولى من اللَّيل سار، وفي س ٢ ق ٥٠ انتهت الجبال واتسع الوادي وأما الأرض فمازالت بحالها، وفي س ٧ ق ٣٠ استراح، وفي س ٨ سار، وفي س ١٠ ق ٢٠ نزل للاستراحة والتهيؤ للدخول إلى (ينبع البحر) ولم تزل الأرض مستوية جدًّا.

ينبع

وفي يوم السَّبت ٢٥ منه سنة ٩٧ في السَّاعة الأولى من النَّهار سار الرَّكب والمحمل راكبًا ونزل بجوار بلدة (ينبع) س ١ و ق ٣٠ على مسافة ألف متر منها وهذه البلدة على البحر وبها مينا مشهورة للمدينة الوابور يرسو على بعد ١٥٠ مترًا من الرصيف وبها ٨٠٠ بيت وسوق يباع بها كل شيء يلزم للحجاج وبعض خضراوات وبها نحو ٥٠٠٠ نفس وأغلب تجارها من مصر والصعيد وعند موسم الحج تأتي إليها العرب للتجارة وأما في غير أوان الحج فلا يوجد بها شيء وتصير كالخراب وتحمل إليها الغلال من مصر لترسل إلى المدينة وبها شونة كبيرة وبرج به مدفع من نحاس وعشرة طوبجيَّة من الترك وبها محل للكرنتينة مبني في غاية الانتظام ومحافظها من أهلها برتبة قائمقام معين من ضباط العساكر الموجودة بالمدينة وتحت أوامر محافظها لأن هذه البلدة تحت حكومة الدولة وسورها متهدم ثم بني جميع ما بها من الأبنية الميريَّة كالشونة والمحافظة والبرج والسور ونحوها قد صار بناؤه في مدة المرحوم محمَّد علي باشا والي مصر سابقًا ولم يتجدد مما ذكر شيء بعد أن صارت تحت إدارة الدولة بل آل أغلبه إلى السقوط وليس هناك آبار وإنما تخزن مياه السيل في صهاريج وتباع على الحجَّاج وثمن زق الماء عندهم غرشان والزق هو قربة صغيرة تستعمله العرب للماء وكل ثلاثة زقاق أو أربعة ملء قربة مصريَّة ومشهورة بكثرة الذباب للعفونات من عدم المراحيض بالمنازل فأما أهاليها من نساء ورجال

فيتبرزون بالفلاة وعلى شاطئ البحر وقد بلغت الحرارة وقت الزَّوال ٣٨ درجة وبعد الحج تأتي الوابورات إليها لتحمل الحجَّاج إلى السُّويس وفي يوم الأحد ٢٦ منه س ٥ ق ٤٥ سار الرَّكب، وفي س ٦ هبط من منحدر بينه وبين شاطئ البحر خمسة أمتار يستمر كذلك مدة ثم يتباعد عنه في أرض مرملة مستوية السطح سهلة السير، وفي س ٨ مرَّ في أرض ذات شوك وحشائش وتباعد عن البحر ثم في أرض يعلوها زلط وسنط وحشائش، وفي س ١٠ مرَّ بأرض صلبة صالحة للزراعة وفي السَّاعة ١١ ق ٢٥ استراح.

محطَّة السقيفة

وبعد نصف ساعة من الغروب سار، وفي س ٦ ليلًا استراح، وفي س ٦ و ق ٣٠ سار، وفي س ١٢ من اللَّيل نزل بمحطَّة (السقيفة) في صحراء متسعة سهلة مستوية ليس بها سكان ويوجد بها حفائر ماؤها مالح لا تصلح إلا لشرب الجمال.

وفي يوم الاثنين ٢٧ منه كانت الحرارة صباحًا ١٥ درجة وفي وقت الزَّوال ٢٩ درجة، وفي س ٧ ق ٤٥ سار الرَّكب، وفي س ٩ مرَّ عن يمين طريق بدر، وفي س ١١ ق ٤٥ استراح الرَّكب وبعد خمس وأربعين دقيقة من الغروب سار في أرض لم تزل سهلة، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ ق ٣٠ سار إلى الصباح.

القَاع

وفي يوم الثُّلاثاء ٢٨ منه بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من السَّاعة الأولى نزل الرَّكب في محل متسع يسمَّى (القاع) ليس به مياه ولا سكان وبلغت الحرارة وقت

الزَّوال ٣١ درجة، وفي س ٧ ق ٣٥ سار في أرض سهلة مستوية، وفي س ١١ ق ٣٠ استراح وبعد نصف ساعة من الغروب سار، وفي س ٢ ق ٣٥ هبط في منحدر يسير، وفي س ٢ ق ٤٥ وصل إلى محطَّة (مستورة) وهي محطَّة بها سوق ومساكن للعربان وبئران ماؤهما عذب ومرَّ عليها الرَّكب بدون استراحة، وفي س ٦ ق ٣٠ استراح وفي السَّابعة سار حتى طلع النَّهار.

رابغ

وفي يوم الأربعاء في السَّاعة الأولى نزل الرَّكب ووكب المحمل وأتى إلى هناك الشَّريف حمزة وأتباعه من طرف أمير مكَّة ليسير مع الرَّكب إلى مكَّة كما هي العادة وفي السَّاعة الثَّانية سار ودخل (رابغ) بعد عشرين دقيقة وهي بلدة بينها وبين البحر نحو ساعة بها بيوت كبيوت الريف وسوق كبير وقلعة تحتوي على مخازن للغلال وذخائر لكل من الحاجين المصري والشامي ولمن بها من العساكر لكن لم يصرف هناك لمستخدمي المحمل المصري إلا قنيطة قديمة مكسرة متربة من السوس فضلًا عن تطفيف موازين المرتبات وهذا جار في سائر القلاع وهذه البلدة تحت حكم الدولة وبها خمس آبار قيسونيَّة الماء وصهاريج عذبة المياه وهناك يتلبس الحاج بالإحرام إلى بيت الله الحرام الوارد من مصر والشام قبل مسيره إلى محطَّة أخرى وركاب البحر يحرمون عند محاذاتهم لهذه البلدة والمواقيت للحج إما زمانيَّة أو مكانيَّة فالزمانيَّة شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجَّة وأما المكانيَّة التي لا يجوز أن يجاوزها الإنسان إلا محرمًا فخمسة لأهل المدينة (ذو الحليفة) وتسميه العوام آبار علي ولأهل العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر (ذات عرق) ولأهل اليمن والهند (يلملم) ولأهل الشام ومصر (حجفة أو رابغ) ولأهل تهامة ونجد (قرن).

الإحرام وشروطه

وكيفيَّة الإحرام أنه في صباح يوم الخميس غرة ذي الحجَّة سنة ١٢٩٧هـ حلقت لحيتي ولم أحلق رأسي لاعتيادي ذلك وقصصت شاربي إلى أن بدت شفتي العليا وقلمت أظفاري وحلقت عانتي وإبطي ثم اغتسلت ناويًا للإحرام ثم ائتزرت بفوطة بيضاء كبيرة من فوط الحمام الاسلامبوليَّة وارتديت بأخرى أدخلت طرفها في المئزر وأدرتها على جسمي بحيث سترت ظهري وصدري وكتفي إلى عنقي حتى انتهت وتركت طرفها الآخر مسدولًا على كتفي من غير ربط ورأسي مكشوف وفي رجلي نعلان لا تستران إلا نصف الأصابع دائرهما منحط عن الكعبين ثم صليت ركعتين بنيَّة الإحرام وفي وقت تجوز فيه صلاة النافلة بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون في الأولى والفاتحة والإخلاص في الثَّانية وبعد السَّلام قلت بلسان موافق للقلب: (نويت الحج وأحرمت به لله تعالى) حيث نويت الإفراد (لبيك اللَّهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك) ثم بعد سكتة يسيرة قلت: (لا شريك لك) ثلاث مرات متواليات.

ومن أراد التمتع نوى العمرة فقط وإن كان قارنًا أي: قرن العمرة بالحج يقول: (نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما فيسرهما لي وتقبلهما مني لبيك.. إلخ) ثم صليت على الرَّسول بقولي: (اللَّهمَّ صلي على سيِّدنا محمَّد وعلى آل سيِّدنا محمَّد كما صليت على سيِّدنا إبراهيم وعلى آل سيِّدنا إبراهيم وبارك على سيِّدنا محمَّد وعلى آل سيِّدنا محمَّد كما باركت على سيِّدنا إبراهيم وعلى آل سيِّدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد) ثم قلت: (اللَّهمَّ إني أسألك رضاك والجنَّة وأعوذ بك من سخطك والنار) وكررت هذه التلبية عند الركوب والنزول عن الدابة وبعد كل صلاة وتحزمت بكمر على وسطي وإن كان مخيطًا لإباحته لحفظ المعاملة، وتقلدت بسيفي ومن الواجب

على الرجل المحرم لبس ثوبين جديدين أو ثوبين غسيلين والجديد أفضل إزارًا كان أو رداء ولا بد من ستر العورة ودفع الحر والبرد وألا يلبس مخيطًا من قميص أو قباء أو سراويل ولا عمامة كي لا يغطي رأسه ولا وجهه لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **((إحرام الرجل في رأسه وإحرام المرأة في وجهها))** إلا لعذر ويلزمه حينئذٍ كفارة فإن وضع رداء أو برنسًا أو عباءة بدون إدخال يديه في أكمامها فلا تجب فدية وإلا وجبت ولا يلبس خفًّا إلا إذا كان مقطوعًا من أسفل الكعبين والكعب هو المفصل أي: العظم المرتفع في وسط القدم من الأعلى عند معقد الشراك وبذا يمكن ستر الأصابع كلها وعند المالكيَّة يستر نصف الأصابع ويسن الإحرام في منسوج أبيض نظيف كالفوط والقماش والحرام ويجوز التختم وبعد نيَّة الإحرام لا يجوز الحلاقة ولا قص الأظافر ولا حك الجسم بها ولا ستر الرأس إلا بنحو شمسيَّة أو غطاء محفة بشرط ألا يمسه شيء من ذلك عمدًا ولا التدهن ولا التعطر ولا قتل الصيد ولا الإشارة إلى صيده ولا الإشارة إلى من يقتله ولا الجماع ولا الجدال مع أحد، وإذا طيب المحرم عضوًا أو لبس المخيط أو غطى رأسه يومًا أو حلق ربع رأسه أو موضع المحاجم أو الإبطين أو أحدهما أو العانة أو الرقبة أو قص أظافر يديه أو رجليه أو واحدة منها أو طاف للقدوم أو للوداع جنبًا أو للزيارة محدثًا أو أفاض من عرفة قبل الإمام أو ترك من طواف الزِّيارة ثلاثة أشواط فما دونها أو طواف الصدر أو أربعة أشواط منه أو جمرة العقبة يوم النحر فعليه شاة، وأما إذا طيب أقل من عضو أو غطى رأسه أو لبس أقل من يوم أو حلق أقل من ربع رأسه أو قص دون خمسة أظافر أو خمسة متفرقة أو ترك طواف الصدر تصدَّق بنصف صاع من البر فإن اضطر المحرم إلى لبس المخيط لعذر يقصد الاستمرار إلى آخر مدة الإحرام يكفيه فداء واحد.

إحرام الرجل والمرأة

ويفرق في الإحرام بين ملبوس الرجل وملبوس المرأة فالرجل يلبس (المحيط) الذي لا خياطة فيه ويحيط بجسمه، والمرأة تلبس (المخيط) أي: ثيابها المخيطة المعتادة نظيفة لكن مع كشف وجهها للحديث المتقدم وإنما لمنع نظر الرجل إليها والافتتان بها تستر وجهها بقطعة مجدولة من الخوص كالمروحة المعروفة فيها خروق صغيرة للنظر منها يربط أحد جانبيها على الجبهة ويسدل باقيها على الوجه بشرط ألا تمسه، ومنهن من تخيط على الطَّرف المسدول نحو الشاش ويسترسل إلى الصدر كالبرقع، ولا يجوز لهن ستر أكفهن بساتر ما ويستحب لهن الخضاب قبل ليلة الإحرام، وفي حديث البخاري عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: **((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة ثلاثة أيام إلا مع زوج أو محرم))** وقال عليه السَّلام: **((لا تحجنَّ امرأة إلا ومعها محرم))** والمحرم هو من لا يحل له نكاحها على التأبيد برحم أو رضاع أو مصاهرة كالعم والخال وابن الأخت وابن الأخ، ولا يجوز لها أن تحج بغيرهما إذا كان بينها وبين مكَّة ثلاثة أيام.

هيئة المحرمين

وعند مشاهدة الرَّكب يوم الإحرام محرمين جميعًا على هيئة واحدة صار الكبير كالصَّغير والأمير كالحقير متجردين عن الثياب وعن زخارف الدنيا لابسين ثياب الإحرام كالأموات المؤتزرين بأكفانهم فإن الله عزَّ وجلَّ استدعى عباده إلى بيته الحرام وشرع الغسل عند الإحرام إشارة إلى التطهر ظاهرًا وباطنًا وشرع خلع الثياب إشعارًا بحالة الموتى لأجل تخليهم عن الدنيا وإقبالهم على باب ربهم وعبادته بتركهم

الرفاهية وحظوظ النفس؛ فإن التجرد عن الثياب كتجرد الميت عن ثيابه عند المغسل ولبس ثياب الإحرام كلبس الأكفان ليقدم العبد إلى باب مولاه خاضعًا ذليلًا غير مشتغل إلا به تعالى.

وأما أصول المناسك فسنذكرها عند الوصول إلى مكَّة المكرَّمة.

وفي السَّاعة الخامسة ونصف من يوم الخميس غرة الحجَّة سار الرَّكب متوجهًا إلى مكَّة شرفها الله في فلاة متسعة أرضها سهلة ثابتة، وفي س ٩ مرَّ بأعشاب وسنط وحشائش ذكيَّة الرائحة تنتشر منها عند ضغطها رائحة النعناع أو السعتر.

القَضيمة

وفي السَّاعة ١١ ق ٤٥ استراح وفي السَّاعة واحدة إلا ربعًا بعد الغروب سار وفي السَّادسة استراح وبعد نصف ساعة سار وفي التَّاسعة مرَّ بمحطَّة (بئر الهندي) أي: القضيمة أو بئر قديمة وهي مكان يوجد به آبار وسوق يباع فيها اللحم والسمن والبطيخ والبلح والرَّكب لم يقف بل استمر سائرًا إلى الصباح.

محطَّة خليص

وفي يوم الجمعة ٢ منه بعد مضي خمس عشرة دقيقة من السَّاعة الأولى من النَّهار نزل بمحل مرمل به حشائش تسمَّى بالدرن تأكلها الجمال وبلغت الحرارة وقت الظهر ٣٩ درجة، وفي س ٦ ق ٥٠ سار الرَّكب، وفي س ٨ تعسر السير لزيادة الرمال، وفي س ٨ ق ٤٥ مرَّ بعبل يصعب السير فيه ليلًا لكثرته مع عدم استقامة الطَّريق وعلى يساره جبل، وفي س ٩ ق ٣٠ مرَّ بآبار مجاورة للطريق وسط العبل،

وفي س ١٠ ق ٣٠ مرَّ بجبل على اليمين، وفي س ١١ انتهى هذا العبل من جهة اليسار في مكان ذي صخر من الصوان أزرق وأحمر يتجه مشرقًا مقبلًا وسهلت الأرض للمسير، وفي س ١١ ق ٣٠ نزل بمحطَّة (خليص) في مكان على يساره نخيل وبها سوق وعشش للعربان وبعد خمس وأربعين دقيقة من الغروب سار الرَّكب، وفي س ٢ مرَّ بعبل بوادي عسفان، وفي س ٤ ق ٣٠ مرَّ (بقهوة العبد)، وفي س ٥ ق ٤٥ استراح في مبدأ بوغاز وادي عسفان.

محطَّة عسفان

وبعد ساعة قام الرَّكب ومر منه هابطًا من محجر ضيق عسر بين جبلين لا يمر منه إلا الجمل أو الجملان ومسافته ألف متر وانتهى في السَّاعة الثامنة وهناك آثار يقال لها: قصر حجا، وفي السَّاعة ثمانية ونصف وصل إلى محطَّة (عسفان أو بئر التفلة) وهو محل متسع محاط بجبال به عشش وسوق يباع بها اللحم والسمن والبلح والنارنج المسمى عندهم بالليم وهناك ثلاث آبار عذبة المياه لا سيما بئر التفلة فإن ماءها كماء النيل ويقال: إن ماءها كان مرًّا فتفل فيه الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عند مروره هناك فحلا إلى وقتنا هذا بخلاف مياه الآخرين فإنها ثقيلة.

سبيل الجوخي

وفي يوم السَّبت ٣ منه بلغت الحرارة وقت الزَّوال ٣٩ درجة ونصفًا، وفي س ٨ ق ٤٠ سار وبعد ساعة من السير مرَّ بكيمان وزلط أسود، وفي س ١٠ مرَّ بسهل به حشائش وفي إحدى عشرة ونصف استراح بجوار سبيل (الجوخي) وهو مبني من قديم على يسار الطَّريق إلا أنه الآن خرب وكان يملأ من بئر الباشا الآتية وبعد

نصف ساعة من الغروب سار.

بئر الباشا

وفي أربعة ونصف مرَّ على يسار (بئر الباشا)، وفي س ٥ ق ٤٥ استراح وفي السَّادسة وربع سار، وفي س ٨ ق ٣٠ مرَّ بين الشجر بأم غيلان هو ممتد بطول الطَّريق، وفي س ١١ ق ٤٥ مرَّ بوادي فاطمة، وفي س ١٢ نزل به في محل متسع يسمَّى بالجموم محاط بجبال على بُعد وبه سوق يباع بها اللحم والخضار والبطيخ والخبز والفطير وشرقيه بساتين من الموز والليمون وهناك عين عليها خرزة بئر مبنيَّة عمقها متر ونصف ماؤها عذب جارية من البئر تحت الأرض بواسطة قناة إلى أرض منخفضة بها بعض مزارع وبجوار البئر تل مرتفع وبلغت الحرارة وقت الزَّوال ٣٧ درجة.

ضريح السَّيدة ميمونة

وفي يوم الأحد ٤ منه استراح الرَّكب طول النَّهار وفي ليلة الاثنين السَّاعة ثلاثة ونصف سار وفي الرَّابعة مرَّ على يسار جبل وبعد ق ١٠ صار الطَّريق بين جبلين، وفي س ٦ ق ٧ استراح عن ضريح السَّيدة (ميمونة) إحدى زوجات الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ورضي الله عنهن وهو على يمين الطَّريق.

العمرة

وفي س ٨ ق ١٥ سار، وفي س ١١ وصل إلى (العمرة) وهو محل مبني على يمين

الطَّريق به مصلى يصلي به من يحرم بالعمرة ركعتين لله تعالى ويدعو ويلبي ويستديم التلبية على قدر الإمكان إلى أن يدخل مكَّة وبجانبها بركة كبيرة من الأمطار ومن بعد العمرة بخمسين مترًا حائط مرتفع بقدر ستة أمتار عرضها خمسة أمتار في سمك اثنين وعليها ثلاث قباب صغر يقابلها على يسار الطَّريق حائط أخرى مثلها اتساع الطَّريق بينهما أربعون مترًا وهذا البناء علامة بين أرض الحل والحرم ولا بد للحاج الآتي من هذا الطَّريق أن يمر بينهما قبل دخول مكَّة وهذا المكان يسمَّى (الشُّهداء)، ولا يجوز الصيد بين حدود العمرة ومكَّة لأن ذلك معدود من الحرم.

وفي يوم الاثنين ٥ الحجَّة في السَّاعة الأولى وكب المحمل وسار بين جبلين إلى أن وصل إلى محل يسمَّى (الجرول) بعد أربعين دقيقة فأناخ هناك بجوار آبار عذبة بعيدة عن مكَّة بأربعين دقيقة وذلك للخوف من وباء الخيل الذي كان حاصلًا بمكَّة مع كون هذا المكان أعدل هواء من غيره ومنه إلى المكان المسمى بـ(الشَّيخ محمود) ٢٠ ق وهو ابتداء مكَّة المكرَّمة.

مناسك الحج

المحرمون بالحج ثلاثة: مفرد وقارن ومتمتع فالواجب على الداخل مكَّة أن يطوف طواف القدوم أي: التحيَّة إن أفرد حين أحرم ونوى الحج فقط وقال: (اللَّهمَّ إني نويت الحج وأحرمت به فيسره لي وتقبله مني، لبيك اللَّهمَّ لبيك إلخ) فيطوف طواف القدوم ويسعى ويبقى بإحرامه، ثم يتوجه لقضاء شئونه ويطوف حول البيت كلما أراد إلى أن يتوجه إلى عرفات ولا يجب عليه إلا ذبح الأضحية.

وإن كان قارنًا بالعمرة أي: قرن العمرة بالحج يقول: (نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما فيسرهما لي وتقبلهما مني، لبيك اللَّهمَّ لبيك إلخ) ويطوف طواف

العمرة سبعة أشواط ويسعى لها سبعة أشواط ثم يعود إلى الكعبة فيطوف بها طواف القدوم سبعة أشواط ويسعى إن شاء سبع مرات وإلا أخر السعي بعد طواف الإفاضة، ثم يتوجه إلى عرفة ومتى نزل منى رمي جمرة العقبة ثم عاد إلى مخيمه فيذبح هدي التمتع أو القران دم شكر ثم يحلق أو يقص فيحل له كل شيء إلا النساء ثم يعود في هذا اليوم إلى مكَّة فيطوف طواف الإفاضة ولا يسعى إن كان سعى بعد طواف القدوم وحينئذٍ تحل له النساء ثم يعود إلى منى فيرمي الجمرات في كل مرة ثاني وثالث يوم العيد وإن بات ليلتها بمكَّة جاز له والأفضل المبيت بمنى ثم إن لم يكن من أهل مكَّة ولا ناويًا الإقامة بها رجع إليها في آخر اليوم الثَّالث فطاف طواف الوداع بدون أن يسعى وعند ذلك تم الحج فإن أقام بها طاف متى شاء من غير سعي وجاز له الاغتسال أي وقت وحك الجسم والرأس بالأظافر ونحو ذلك وإن أراد العمرة فليخرج إلى الحل بعد أيام النحر فيحرم بالعمرة وليأت البيت فيطوف ويسعى ويحلق وإن نوى الإقامة بمكَّة خمسة عشر يومًا فأكثر لم يطلب منه إلا ذبح الأضحية وإن أراد التمتع نوى العمرة وقال: (اللَّهمَّ إني نويت العمرة وأحرمت بها إلخ) ثم يأتي مكَّة فيطوف طواف العمرة ويسعى ثم يحلق فيحل من إحرامه ويقيم بمكَّة غير محرم كأهلها، ثم إذا كان ثامن ذي الحجَّة أحرم بالحج وهو بمكَّة وطاف وسعي وخرج إلى عرفة ففعل جميع ما تقدم كالقارن أعني: أنه يجب عليه دم التمتع وهو دم شكر إما شاة أو سبع بدنة ويذبح الأضحية إن كان مقيمًا ولا مانع من تأخير دم الشكر إلى ثالث أيام النحر.

السَّفر ببحر السُّويس

ولنرجع الآن ونذكر الطَّريق من جدَّة إلى مكَّة المكرَّمة حيث كان المحمل بوكبه قام من السُّويس وأتى بحرًا إلى جدَّة وسبب ذلك أني عند عودتي إلى مصر بعد الحج

عرضت ما هو آت على ولاة الأمر ما يقاسيه الحجَّاج برًّا وقلت:

«قد كان للحجاج في الأزمنة الأول شأن عظيم وفخر زائد جسيم يسافرون في البر جمًّا غفيرًا ويرغبون في البحر لكونه عسيرًا إذ لم تكن لهم معرفة بغير مراكب الشراع وخطر السَّفر في بحر السُّويس بين الناس مشاع ثم لما وقع بين الولاة النزاع واشتهر هذا الأمر في سائر الإقطاع وذاع واستمر بينهم اللجاج واشتغلوا بالمحاربة عن مصالح الحجَّاج استشعر بذلك أعراب الحجاز فارتفعت منهم للنهب الرءوس وقطع الطَّريق على المارة المرءوسون منهم والرءوس فكثر الخطر وعظم الضرر واضطر ولاة مصر إذ ذاك إلى أن رتبوا مرتبات وعطايا للأعراب الذين تمر الحجَّاج من أوعارهم طمعًا في أن تكفهم تلك المرتبات عن فضائحهم وأوعارهم فيسهل للحاج المرور عليهم مع الاطمئنان ويكونون من النهب في أمان وبنوا هنالك للعساكر قلاعًا شحنوها بالذخائر وأحدثوا فيها سواقي وآبارًا وحفائر رغبة في راحة الحجَّاج وتسهيلًا لمرورهم في تلك الفجاج إلا أن أغلب هذه الآبار والسواقي تعطل عنها المنافع وصار أكثر تلك القلاع بتطاول الأزمان بلاقع فلا يسافر من طريق البر الآن غير المحمل والصرة المقررة لعوائد الحرمين والعربان مع العساكر الذين هم عليها مستحفظان لما أسلفناه من أوعار الطَّريق وعدم الأمان، وأما سائر الحجَّاج فيسافرون في البحر حيث الوابورات صيرت المدة أقصر بكثير من مدة السَّفر في البر فضلًا عن الرَّاحة من مشاق السير في القفار والأمن من الخوف والفزع بمهول هاتيك الأخطار وقد سبق سفر الصرة والمحمل مرتين في البحر وحصل بذلك للميري كثير من الوفر ثم أعيد لأسباب لا تؤدي إلى السَّفر في البر وحيث إن الحجَّاج يسافرون الآن في البحر أجمعهم فإن وافق أن كلًّا من الصرة والمحمل يتبعهم بأن يقوم المحمل من مصر إلى السُّويس بعد موكبه المعتاد ثم من السُّويس إلى جدَّة متقدمًا بسبعة أيام عن الميعاد ويكون معاون من طرف الماليَّة قد تقدم إلى

هنالك بعشرة أيام ليستأجر بمعرفة والي جدَّة الجمال ويأخذ على الجمالة الضمانات فيأمن بذلك من المتاعب في السَّفر ومن المشقات ويجتمع المحمل في جدَّة بالحاج المصري فتحصل زيادة الأمنية ويتم للحاج بهذا الاجتماع كمال السرور وبلوغ الأمنية ويكون مصحوبًا بمائتي عسكري فقط فيتوفر للميري كثير من المصروفات ويوكبون به عند قدومه إلى جدَّة ومكَّة وعند طلوع عرفات وبعد أداء الفريضة يتوجهون إلى زيارة حرم خير الأنام عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام من الطَّريق التي تحصل الاتفاق بمجلس شريف مكَّة على التوجه منها إلى المدينة ثم الرجوع إلى ينبع أو رابغ ليعودوا من طريق البحر إلى أوطانهم في أسرع الأوقات فرحين مستريحين من مكابدة المتاعب ومقاساة المشقات ومن طول صعوبة الطَّريق وتبدد أمتعتهم في كل محجر ومضيق فيتوفر للميري كثير من المرتبات والعلائق ويزداد كل من جدَّة ومكَّة وينبع ثروة بالبيع والشراء وتتسع فيهن دائرة التجارة بالأخذ والإعطاء ولا يزيد القادر على مصروفات الحج في البر شيئًا في طريق البحر بل لا يصرف إلا القليل بالنسبة إلى ما كان يصرفه في طريق البر فضلًا على ما كان يلحقه فيها من المشاق والصعوبات والشدائد التي لا تطاق وأما الفقراء غير المستطيعين فليسوا بالحج مكلفين بل إذا سافروا تألموا من السَّفر وسخطوا وتشاجروا مع البدو والحضر وعاد البعض منهم صفر اليدين مفلسًا قليل الدِّين كثير الدَّين وعلى كل حال لا بد أن تصرف للعربان مرتباتهم كالجاري في كل عام ويأخذوا عوائده الخاص منهم والعام كما هو جار في كل سنة من دفع مرتبات عربان الطَّريق السلطاني إليهم مع عدم مرور الحاج من سنين عديدة عليهم وبدلًا عن الذهاب إليهم في كل سنة بهذه المرتبات يرسلون عند خروج الحاج من ينوب عنهم في استلامها من الروزنامجة أو ما يصير الاتفاق عليه من الجهات (فإن قيل): ما فائدة توجه الحج في البحر مع صرف مرتبات العربان إليهم في كل عام على ما هو مقرر (فالجواب) إن لذلك من الفوائد الكثيرة ما لا ينكر

منها وفر العلائق ومرتبات أغلب المستخدمين واطمئنان الحاج بالاجتماع مع المحمل وعساكره المستحفظين فإن للعساكر عند العربان هيبة ترد مساعيهم السيئة مقترنة بالخيبة وراحة الإنسان هي المعول عليها في كل آن» فاستصوب إرسال المحمل ووكبه بحرًا وقد كان وفي ٢١ القعدة سنة ١٣٠٢ هجريَّة أعني: سنة ١٨٨٥ مسيحيَّة تعينت أمينًا للصرة وكان الأمير المرحوم علي باشا وهبي.

تَوجه المحمل بحرًا

وفي ٢٢ القعدة استلم صراف الصرة المبلغ المقنن من الماليَّة وقدره ١١٧٠٠٠٠ غرش لكونه نقص عما كان يسافر المحمل برًّا بيانه جنيه أفرنكي عدد ٦٧١٠ ريال أبي طاقة عدد ٣٠٠٠٠ فضة عدد ٥٧٧٥ غرش من ذلك جنيه عدد ٤٤٧٨ لزوم ماهيات ومصروفات المحمل خلاف تعيينات العساكر الذين كان عددهم ٢٢٠ وطوبجيَّة عدد ٢٠ وخيول الجندرمة ٣٥ وبغال المدافع ٧ ومبلغ ١٦٠٩١٢ غرش مرتب تكيَّة مكَّة ومبلغ ١٦٥٦٧٠ غرش مرتب تكيَّة المدينة والباقي مرتبات عربان ومجاورين بالحرمين ثم مبلغ ٦٥٢٣٠٠ غرش أمانات من الأوقاف ومن الروزنامجة وبعض من الدوائر لزوم مرتبات أهالي الحرمين وأشخاص مقيمين بالحجاز وأما التعيينات والمرتبات المختصة بتوابع الصرة فيصرف لكل موظف ما هو مقنن له من تعيين الأنفار وعددهم ٦١ بما فيهم الأمير وتعيين النفر الواحد بالسَّفريَّة يوميًّا بقسماط ٢٠٠ درهم أرز ٥٠ درهم مسلي ١٠ دراهم مثلًا الأمير مرتب له تعيين عشرين نفرًا والأمين ستة وكاتب أول وثاني عشرة والصراف أربعة والمبلغ أربعة وأمين الكساوي اثنين إلخ حسبما هو مبين بدفتر كاتب الصرة وذلك خلاف كميَّة الجمال اللازمة لهم.

وفي يوم الخميس ٢٣ منه وكب المحمل في س ٣ من ميدان محمَّد علي في موكب عظيم وجم غفير من العالم كما هو حاصل سنويًّا كما سبق ذكر ذلك حتى وصل إلى العبَّاسيَّة في س ٦ أمام مدرسة الطوبجيَّة بجوار الرصيف وكان معدًّا له ٤٦ عربة من عربات سكة الحديد مع وابورين لجرها فبعد شحنها بالمحمل وما يتبعه من أرباب الوظائف والخدم والمهمات والتعيينات سار الرَّكب تمام س ٦ ووصل إلى السُّويس في س ٥ من اللَّيل وذلك بخلاف ما سبق من سفر المحمل برًّا حيث كان قيامه من ميدان محمَّد علي في ٢٢ ل والآن لقصر المسافة بحرًا قام في ٢٣ القعدة وفي يوم الجمعة في س ٢ وكب المحمل ومرَّ في شوارع البلد كالمعتاد سنويًّا حتى وصل إلى الرصيف بعد ساعة ونقل إلى الوابور مع أمرائه وأتباعه إلى أن وصل إلى الهاويس فحمل إلى وابور شيبين المعد لحمله إلى جدَّة وكان بالوابور كثير من الحجَّاج الأغراب قد أخذوا تذاكر من القومبانيَّة وكان تبعة المحمل ٣٧٠ شخصًا منهم عساكر ٢٢٠ وأتباع الصرة ٨٠ وطوبجيَّة ٢٠ وأتباع أمير الحاج ٥٠ ونحو مائة من الفقراء ولم يمكن حمل زيادة عليهم لكثرة الأغراب من الحجَّاج وكان عدد خيول الجندرمة ٣٥ وبغال المدافع ٧ وجمال المحمل ٣ غير الذخائر والمهمات ومدفعين ششخانة جبلي و٤٠ صندوقًا فيها خرطوش وفشنك ودانات وصلقوم وقد ازدحم الوابور وتعسر على ركابه المرور من جهة إلى جهة أخرى بحيث لا يتأتى لراكبه قضاء بعض الحاجات إلا بأكبر المشقات فصار كأنه مركب معاش وذلك من إعطاء التذاكر للحجاج الأغراب مع أنه معد لمشال المحمل والفقراء ومن العجب أنهم يضعون الفقراء في مقدم الوابور مكابدين لحر الشَّمس نهارا وللبرد مع الأرياح ليلًا زيادة على ما يناهم من أهوال البحر والأمواج وما يقاسون فيه من الخوف والانزعاج وقد أخبرني وكيل البوستة الخديويَّة بالسُّويس أن عدد الحجَّاج المسافرين في الوابورات إلى جدَّة بلغ نحو اثني عشر ألفًا من المصريِّين وثمانية آلاف من الأتراك

فضلًا عمن مرَّ من قنال السُّويس من مغاربة وأتراك وشوام ممن عددهم نحو عشرين ألفًا، ومع كثرة الحجَّاج جدًّا تنازلت أجرة الوابورات البحريَّة السائرة من السُّويس إلى جدَّة فلا يؤخذ على الشخص الواحد إلا سبعة فرانق بدلًا عن الأربعين وحصل ذلك في وابورات روباتينو وغيرها وهذا لم يسمع بمثله قط وقد أخذوا في العودة على الشخص الواحد ثلاثة جنيهات فويل لهم مما كسبت أيديهم.

جدَّة

وفي نهاية س ٦ من يوم السَّبت ٢ ذي القعدة سار الوابور من السُّويس متوجهًا إلى جدَّة وهذا البحر يسمَّى ببحر السُّويس ابتداؤه من السُّويس إلى باب المندب ويسمَّى أيضًا ببحر القلزم بالتركي (شاب دكزي) وباليوناني القديم (سنيوس أرابيكوس) وباللاتيني (ماراروسو) يعني: البحر الأحمر.

وفي ثاني يوم بلغت الحرارة ٣٥ درجة سنتجراد حتى تصبب العرق على الأجساد وفي يوم الاثنين انخفضت إلى ٣٢ درجة وكان الوابور يقطع في السَّاعة من ثمانية أميال ونصف إلى ٩ وفي نهاية السَّاعة الأولى من ليلة الثُّلاثاء حاذى الوابور رابغ فأحرم الحجَّاج جميعًا حيث هي ميقات الإحرام لأهل مصر والشام واتبعوا ما ذكر في كيفيته آنفًا وخفف سير الوابور إلى ٥ أميال في السَّاعة لتعذر الدخول إلى ميناء جدَّة ليلًا.

وفي صباح يوم الثُّلاثاء ٢٨ منه لم تمكن مشاهدة الجبال من بعد ٥ أميال لتراكم الضباب مع أنها في الصحو تشاهد من بعد مائة ميل ووصلت الحرارة قبيل الشروق ٣١ درجة، وفي نصف س ٦ من هذا اليوم رسال الوابور أمام بوغاز جدَّة فضربت الموسيقى والطبول والمدافع فرحًا بالوصول وكانت المسافة التي بين السُّويس لجدَّة

٦٤٦ ميلًا وهي على شاطئ البحر واقعة على ٦ درجة و ق ٣٩ من الطول الشَّرقي وعلى ١٤ درجة و ق ٣٣ من العرض البحري وبهذه المينا يرى مد وجزر البحر يوميًّا فترتفع المياه وتنخفض بقدر قدم ونصف إنكليزي وعمقها من ١٣ إلى ١٧ باعًا ونقل ما في الوابور إلى البر في القطائر لعدم اسكلة هنالك فيقف بعيدًا عن البر بميلين أعني: ربع ساعة وهي مينا عظيمة لمكَّة المكرَّمة وأقبل اللَّيل والحجَّاج مقيمون أمام الكمرك إلى الصباح خارجًا عن السور المحيط بجدَّة، وفي منتصف السَّاعة الرَّابعة من يوم الأربعاء وكب المحمل من أمام ديوان الكمرك في محفل عظيم ودخل من باب البلدة المسمى بباب الكمرك ولعدم كفاية ارتفاعه لمرور المحمل هدم منه ما لزم هدمه ومرَّ من طريق ببحري البلد عرضها من خمسة عشر متر إلى عشرين والسور عن يساره حتى وصل س ٥ إلى المعسكر بعيدًا عن القشلاق بمسافة يسيرة فنزل أمام صوان الأمير وحضر الضباط والأعيان وهنئوا الأمير ومن معه بالسَّلامة وكان حضرته منحرف المزاج لعدم تعوده على ثياب الإحرام ولانكشاف رأسه فأثر ذلك فيه حتى ألزمه الفراش عدة أيام بعد الإحلال من الإحرام بل استمر به إلى الخروج من المدينة، والقشلاق مبني في الجهة البحريَّة مع الشَّرقيَّة مربع الشَّكل طوله ٧٧ مترًا مربعًا وارتفاعه نحو أربعة أمتار وفيه بيكباشي ناظر عليه، وبعد الظهر بلغت الحرارة ٣٧ سنتجراد والبلد محاطة بسور له خمسة أضلاع أحدها وهو القبلي طوله ٨١٠ متر وأما الغربي فهو ٥٧٦ مترًا والبحري ٦٧٥ مترًا والشَّرقي ٥٠٤ متر والشَّرقي القبلي ٣١٥ وارتفاعه نحو أربعة أمتار وأول من بناه السلطان قنصوة الغوري من ملوك مصر سنة ٩١٥ وبعد بنائه بمدة قليلة أتت مراكب البورتغيز من جهة بحر الهند وضربت عليها بالمدافع فقاومتها قلعة جدَّة بمدافعها حتى عجز البورتغيز وانسحب عنها، وفي سنة ٩٤٨ رجع ومعه خمسة وثمانون مركبًا مشحونة بالعساكر والمهمات ولكن قامت عليهم العرب وشريف مكَّة ونهبوهم ورجع خائبًا.

والجبانة خارج السور بالقرب من القشلاق محاطة بسور طوله ١٦٠ مترًا مربعًا وفي وسطها ضريح أمنا حواء على ما قيل طوله ١٥٠ مترًا وعرضه ٤ أمتار محاط بجدار ارتفاعه متر وعلى كل من طرفيه ووسطه قبة إشارة إلى الرأس والسرة والقدمين ويضعون على قبورهم الصبارة.

والبلد بها نحو ٣٠٠٠ منزلًا بناؤها بالدبش المستخرج من الأرض ومن البحر بخارج باب السور والمون من طينة البحر فقط لأنهم يبنون بها بعد عجنها جيدًا بيوم فتصير أجود وأمتن وبيوتهم تجارية ليس لها حيشان ذات دورين وتارة ثلاثة أدوار بل أربعة وخمسة وسُمك جدران الدور الأرضي ثمانون سنتيمترًا وارتفاعها ٤ أمتار ونصف بها ميد والوجهة عندهم مركبة من رواشن أعني: شبابيك ومشربيان من الخرط على طرز الهند في غاية الظرافة وحسن المنظر مع قلة أثمانها وحاراتها غير منتظمة عرضها متران فأكثر وشوارعها من ١٠ أمتار إلى ١٥ مترًا وأرضها مستوية غير محجرة وبها مجار لتصريف مياه الأمطار التي تستمر فيها نحو شهرين أو ثلاثة وفي خارج البلد وفي بيوتها صهاريج مبنيَّة نحو الثمانمائة تجتمع فيها مياه المطر وتغلق إلى وقت الحج للتجارة فيربحون فيها ربحًا عظيمًا جسيمًا وأما أهل البلد فيقتصرون على الشرب من ماء الحفائر المتكونة من اجتماع مياه الأمطار التي تتعطن بطول المكث ولذا يتسلطن فيهم داء الحمى خصوصًا في العفونات المتكونة من مياه مد البحر على البر كالبرك وتترك أقذارًا متعسرًا تنظيفها وتنظيف الشوارع لقلة المياه اللازمة، وفي أيام الحر يقل وجود ماء بارد في هذه البلدة وقد تعطلت الآن أغلب هذه الصهاريج لظهور عين ماء عذب تحت أرض بمحل يسمَّى (الرغامة) بعيد عن البلد بنحو ساعتين ونصف بسير الجمل وبهمة دولة عثمان باشا نوري والي الحجاز وقتها سنة ١٣٠٢هـ صار وضع مجاري تحت الأرض حتى أوصلت الماء إلى حوض كبير كمخزن بخارج البلد ومنه توزعت بواسطة مواسير متفرقة إلى داخل البلد

لسبعة حيضان بحنفيات كافية لشرب أهالي البلد وزيادة حتى استغنى عن شرب ماء الصهاريج رغمًا عن تشكي أصحاب الصهاريج للآستانة بتعطيلها لمنفعتهم واعتنى بتنظيف الشوارع وصارت الصحة للغاية وسميت هذه العين (بالحميديَّة) لظهورها في عصر مولانا السلطان عبد الحميد خان، وبخارج السور حمام مستجد معد للرجال خاصة وبها خمسة جوامع يخطب فيها سوى ثلاثين زاوية ومحاريبها منحرفة من الشَّرق إلى الشمال بثلاثين درجة ووابور طحين و٣٠ خان ولوكندتين ومكاتب وتلغراف وسلخانة ومحل للحكومة ومحل للصحة وللكرنتينة و٤ قومبانيات للوابورات عثمانيَّة وإنجليزيَّة ومصريَّة ونمساويَّة وشونة للغلال وأغلب تجارته من الهند وأنواع الحرير والثياب والصدف والمرجان واللؤلؤ والأعطار الهنديَّة ويحمل إليها القمح والأرز والشعير ونحوها من الهند والبصرة والشام ومصر والقصير ويأتيها من الحجَّاج سنويًّا قدر ١٢٠٠٠٠ نفس ويستولى الكمرك منها سنويًّا على خمسة ملايين من القروش، وفي سنة ١٣٠٤هـ بلغ وارداتها ٦٣٧٩٠١٦ غرشًا وخضرواتها وفواكهها ولحومها تحمل إليها من وادي فاطمة ومكَّة وضواحيها رخيصة الأثمان وأما البطيخ والقاوون فيزرعان بماء السيل في البراح الفاصل بينها وبين الجبال البعيدة عنها بنحو الساعتين أو الثلاث بدون أن يرى حشائش أو أشجار إلا جبال صغيرة وبهذه البلدة من الحكام مأمور اسلامبولي برتبة قائممقام تحت أوامر والي الحجاز المقيم بمكَّة وبيكباشي واحد مأمور الضبطيَّة وبها مجلس للتجارة مكون من تجار الأهالي ومجلس بلدي أعضاؤه من الأهالي أيضًا ومجلس أحكام من القاضي والتجار وضباط الجهاديَّة وبها من العساكر نحو ثلاثمائة نفر وتعداد سكانها نحو ٢٥٠٠٠ من أهالي وهنود وحضارمة ومصريين وبعض من الأتراك ومن الأعجام ونحو خمسين من أوروباويين وبها يباع الرقيق بلا حرج كمكَّة في وقت الحج في أمكنة يتوجه الشاري إليها يشتري ما يعجبه والثمن من سبعين

ريالًا فما فوقها ومن عادات أهاليها في الزواج ألا يخرج النساء للزفاف بل يتوجه الزوج في السَّاعة الرَّابعة من اللَّيل مع بعض أصدقائه إلى المسجد ثم يأتي إلى بيت عروسه فيشاهدها ويتحفها بالهدايا في مقابلة كشف الوجه ثم يرجع إلى منزله وتتبعه النساء من أقارب زوجته إلى بيته في خفية فينتظرنها إلى أن تأتي في السَّاعة السَّادسة من اللَّيل في الخفية مع بعض محارمها أمامها مشعل فتدخل منزل بعلها، وفي اللَّيلة الثَّانية يدعو الزوج أصدقائه للوليمة وعندهم من أنواع المطربات آلات الطرب المعروفة للرجال فقط والمغنيات للنساء فقط ويشرب في بعض مجالسهم المسكرات ويتغنون على آلة صغيرة شبيهة بالعود يسمونها (القبوس) يرقص عليها شبانهم وشيوخهم وأغلب النساء بها، وبمكَّة يتعاطون التنباك كما أنهن يأتلفن مع بعض دون الرجال ولا يتبعن الجنائز ومن أغرب ما يقال في نساء جدَّة ومكَّة التي يتخلفن عن طلوع عرفة في موسم الحج ويسمون ذلك (التخليف) يعني: التخلف عن الحج (أو الجيس) وهو أنهن في مدة ثلاثة أيام منى يطفن بالأزقة ليلًا كل جملة مع بعض من بعد العشاء إلى قرب الصباح لابسين التخاليع كملبوس الرجال نحو سترة ومنطلون أو جبة وعمامة وما أشبه ويغنون بهذا القول: (يا الله)، يا جيس يا عرص يا تيس الناس حجوا وأنت هنا ليش قرن التيس أنت قاعد هنا ليش قم أخبز العيش، وهكذا من الكلام الهزليات وإذا وجدن رجلًا نائمًا في الأزقة كما هي عادة البلد أو ماشيًا ولو من طرف الحكومة أثخنوه ضربًا، وموجود بعض عادات بين أهل البلد وهم ينقسمون خمسة أقسام يتعصب بعض هذه الأقسام أحيانًا على قسم آخر ويتضاربون بالنبابيت ويسمون الأولاد بزور.

وفي يوم الخميس صار التنبيه على الشَّريف مهني المعين من طرف سعادة الشَّريف عون الرفيق باشا أمير مكَّة لإحضار الجمال اللازمة لمشال المحمل المصري ومن معه من جدَّة إلى مكَّة بأن يحضر نحو أربعمائة جمل بكرة يوم الجمعة، وفي يوم

الجمعة انتظرنا حضور الجمال فلم يحضر منها إلا البعض بعد الظهر والبعض الباقي حضر بكل مشقة بعد العصر بحيث أن مهني المذكور صار يرسل العساكر للقبض على جمال العربان بالقوة الجبريَّة فكان أغلبها مهزولًا جدًّا من عدم القوت وألقت أحمالها أثناء الطَّريق وأتعبت ركابها من كثرة الحط والتَّحميل ووجدت ثلاثة منها عند التَّحميل واقفة أمام حمل لبعض المستخدمين عاجزة عن حمله فأخبرت بذلك مهنى المذكور ليحضر غيرها وكان عند الأمير فأمر أحد أتباعه بالتوجه معي ليرى ذلك فأبيت وزجرته أمام الأمير والحاضرين بكلام عنيف قائلًا له: ذهاب غيرك معي عدم اعتناء واحترام لموظفي الحكومة المصريَّة وما كان ينبغي حضورك لهذه الخدمة الجليلة بهذه الصفة التي يعامل بها أتباعهم فإن ذلك يخل بمقام سعادة الشريف الذي وكلك براحة الرَّكب المصري وسنعرض ذلك على سعادته وولاة الأمر وما لنا بك حاجة فعند ذلك تنازل عن معرضه الأول وكبريائه واعتذر وأراد أن يتوجه معي بنفسه فأبيت أن أصحبه وأرسلت معه صاحب الجمل تشريفًا للحكومة الخديويَّة المصريَّة وأجرة الجمل من جدَّة إلى مكَّة ريالين وثلاثة أرباع ريال وذلك لكثرة الحجَّاج في هذا العام وغلو الأثمان.

وفي نصف السَّاعة الثَّانية عشرة من يوم الجمعة ثاني الحجَّة سار المحمل ومن معه قاصدًا مكَّة المكرَّمة متجهًا إلى الشَّرق في طريق متسع وجميع الأهالي على طرفي هذا الطَّريق خارجين من البلد للتفرج على سير المحمل، وفي س ١١ و٤٨ ق مررنا بتلال على الجهتين ارتفاعها خمسة أمتار وانتهاؤها بعد مسير خمسة دقائق مع اتساع الوادي من الطَّرفين، وفي س ١ و٢٠ ق من ليلة السَّبت مررنا على اليسار بقهوة تسمَّى (برأس القائم) أو أول غرزة هي عبارة عن محطَّة لاستراحة ركاب الحمير من جدَّة إلى مكَّة بكل منها نحو أحد عشر عسكريًّا للمحافظة، وفي س ٢ و٣٣ ق مررنا بالغرزة الثَّانية تسمَّى قهوة (الرغامة) على اليسار والعين الجديدة عن اليمين بمسافة،

وفي س ٢ و٤٧ ق مررنا بتلال من الجهتين، وفي س ٣ و٥٣ ق بتلٍ عال، وفي س ٤ بتلال خفاف عن اليمين وتلال عن اليسار تقل على بعد قليل فيتسع الطَّريق باستواء مع صلابة رملها فهي صالحة لعمل سكة الحديد، وفي س ٤ و٢٥ ق بقهوة (جرادة) عن اليسار أو الفرعيَّة وفي هذا المكان عسكر وبأرضه زلط، وفي س ٥ و١٥ ق بقهوة (الفرقد) على اليسار، وفي س ٦ و٢٠ ق بقهوة (العبد) عن اليسار، وفي س ٦ و٤٠ ق مررنا بطريق ضيق عرضها عشرون مترًا تتسع في الانتهاء، وفي س ١٠ و٢٣ ق (ببحرة) عن اليسار وبها بناء ومنها تتجه الطَّريق إلى الشَّرق الشمالي بين جبال قليلة الارتفاع بأرضها بعض حشائش، وفي س ١١ و١٥ ق بزلط كبير مسافة سبعة دقائق ثم رمل ثم زلط خفيف، وفي س ١٢ و٢٠ ق بزلط ثم حشيش كثير، وفي س ١ من يوم السَّبت مررنا بنخيل على اليسار وبعد عشر دقائق نزل المحمل ببلدة (الحدة) بالحاء والدال المشددة بجانب جامع له مأذنة ببقعة في وسط الوادي محدقة بها الجبال من بعد وفيها سوق للبطيخ والبلح والقاوون الذي يسمَّى عندهم بالخربز ومياه هذا البلد وسط نخيل عذبة باردة لا سيما وقت الظهر وهناك محل في وسط بستان من شجر الكادي الذكي الرَّاحة وقد بلغت الحرارة ٤٢ ق درجة سنتجراد مع استمرار الهواء تارة حارًّا وأخرى رطبًا وهناك عشرون من العساكر الشاهانيَّة مخيمون ونحو ألف من الأهالي مقيمون في عشش صغيرة شيخهم الشَّريف مساعد وقوتهم الذرة والدخن والسمن وحرفتهم تأجير جمالهم من جدَّة إلى مكَّة وبعضهم أهل زراعة وطريقتهم سنوسيَّة ونساؤهم يسترن وجوههن ببراقع صغيرة سوداء وتلبس الواحدة منهن قميص أسود وتأتزر بإزار أسود وقد أقمنا بهذه المحطَّة بقيَّة اليوم، وفي هذه المحطَّة حضر عندي صباحًا شاب محرم سنة نحو ١٧ سنة وأخبرني أنه خرج من مصر مع حاج من الأغراب الذين معنا وأودع عند هذا الحاج أربع جنيهات وأنه فقده في هذه المحطَّة فأرسلت من يأتي به فلم يقع له على أثر لا في

الخيام ولا في السوق فتردد إلينا صاحب الوديعة مرارًا باكيًا حزينًا على ماله طول يومه ومن شدة الحر وانكشاف رأسه لأجل الإحرام اختل عقله وعند قيام الرَّكب وجدنا الذي عنده الوديعة واعتذر بأنه كان عند النهر لأجل غسل ثيابه ولم يمكني أخذ الوديعة منه وتسليمها لصاحبها لاختلال عقله وما زال مختل العقل حتى خرجنا من مكَّة قاصدين المدينة فرأينا الذي عنده الوديعة قاصدًا المدينة أيضًا وتاركًا صاحبها بمكَّة عاريًا من الثياب ومن العقل فمنعته من السَّفر وقلت له: يجب عليك أن تعيد هذا المصاب إلى والدته بمصر فإنك تسببت في خروجه منها بإغوائك له وأرسلته بكتاب إلى سعادة والي مكَّة ليرسله وصاحبه إلى جدَّة ثم منها إلى مصر وقد حصل وسبب ذلك ظنه ضياع ماله من جهة ومن شدة حرارة الشَّمس اختلاله من الجهة الأخرى فإن حرارتها في تلك البقاع مشهورة ولهذا السبب تسير الجمال ليلًا وتستريح نهارًا حتى إن المرحوم إسماعيل باشا راتب لما حل بها قبلنا بشهر حم من شدة الحر فمات بعد دخوله مكَّة بيومين رحمة الله عليه.

وفي س ١١ ق ٣٠ سار الرَّكب متجهًا إلى الشمال الشَّرقي في طريق متسع ذي رمل ثم إلى الشَّرق الجنوبي وعن يمينه تلغراف موصل من جدَّة إلى مكَّة، وفي س ١ و٤٥ ق من اللَّيل مرَّ بقهوة (سالم) عن اليمين ثم اتجه إلى الشَّرق، وفي س ٢ و٣٥ ق مرَّ بالعلامتين الفاصلتين لأرض الحل من أرض الحرم والمسافة بينهما ٤٥ خطوة، وفي س ٤ وربع اتسع الطَّريق بين الجبال عند قهوة (الشميسي)، وفي س ٤ ق ٣٠ ضاقت الجبال من الجانبين، وفي س ٤ و٤٥ ق استراح الرَّكب في ابتداء بوغاز قهوة (سالم)، وفي س ٦ و١٠ ق سار متوجهًا إلى الشمال الشَّرقي ثم مال إلى الشمال قليلًا وقربت جبال اليسار، وفي س ٦ وثلث مرَّ على قهوة (المقتلة) عن اليمين، وفي س ٧ و٤٥ ق على قهوة (البستان) عن اليمين وعلى الجانبين تلول والطَّريق متسعة والاتجاه إلى الشَّرق، وفي س ٨ ونصف مرَّ (بالمدرج) وهو صعود على سطح محجر، وفي س ٩

نزل الرَّكب بالبقعة المجاورة (للشيخ محمود) ومن بعده (الجرول) ثم باب مكَّة المكرَّمة وحواريها.

وقد تيسر لي بعد المجيء مرارًا إلى جدَّة ومكَّة من غير أوان الحج وعند التوجه من جدَّة إلى مكَّة أتى لي بحمير معدة للأجرة حصاوي شداد بدون لجام ولا ركاب كما هي العادة وأصحابها لهم الصناعة التامة في شد عفش المسافر عليها كخرج وغطاء ومخدة وما أشبه ذلك حتى يركب عليها المسافر بالرَّاحة التامة، ووصلت مكَّة بعد ١٢ ساعة من جدَّة منها ساعة ونصف استراحة بالمحطَّات وأما الجمل فيصل بعد ٣٣ ساعة من جدَّة من ذلك ١٠ ساعات إقامة في محطَّة حدة بالحاء وتشديد الدال.

دخول مكَّة والحرم وكيفيَّة الطواف

والسنَّة لداخل مكَّة الغسل إن تيسر وإلا فالوضوء وأن يدخل من (كداء) ويمر من (الحجون) وهو اسم لطريق بين جبلين فيه صعود على يساره مجزرة يهبط منه إلى (المعلاة) وهي مقبرة مكَّة يفصل بينهما جداران فيمر منهما ويدخل إلى المقبرة التي على اليسار ويتوجه إلى آخرها فيزور عن يساره ضريح السَّيدة (خديجة) أولى زوجات المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم وأول من آمن به على الإطلاق رضي الله تعالى عنها ويزور عن يمينه ضريح السَّيدة آمنة أم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وبعدهما قبتان إحداهما مبنيَّة على ضريح السَّيد عبد المطلب وأبيه هاشم جدي الرَّسول والثَّانية مبنيَّة على ضريح عمه (أبي طالب) الذي هو أبو الإمام علي رضي الله عنه وعند خروج الزَّائر من هذه المقبرة يجد على يساره قبر سيدي عبد الرَّحمن بن أبي بكر رضي الله عنه وقبر محمَّد جان النقشبندي وقد رسمت منظر هذه المقبرة

بالفطوغرافيا ثم يخرج منها ويدخل في المقبرة التي أمامها المسمَّاة (بشعبة النور) فيزور جملة قبور من الصحابة وبعد عشر دقائق من المقبرة يبتدئ في دخول سوق مكَّة المكرَّمة وبعد عشر دقائق أخرى يصل إلى بيت الله الحرام.

وعند دخول مكَّة ليلًا دخلها أو نهارا يقول: (اللَّهمَّ إن هذا البلد بلدك والبيت بيتك جئت أطلب رحمتك متبعًا لأمرك راضيًا بقدرتك، اللَّهمَّ إني أسألك مسألة المضطر إليك المشفق من عذابك أن تستقبلني بعفوك، وأن تتجاوز عني برحمتك وأن تدخلني الجنَّة) ثم يبادر إلى دخول بيت الله الحرام قبل كل شيء وعند وصوله إلى باب (السَّلام) ومشاهدة الحرم يقول: (اللَّهمَّ إن هذا حرمك وحرم رسولك فحرِّم لحمي ودمي على النار، اللَّهمَّ آمني في عذابك يوم تبعث عبادك) ثم يدخل برجله اليمنى ويقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللَّهمَّ صلي على سيِّدنا محمَّد وعلى آله سيِّدنا محمَّد، اللَّهمَّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك)، وإذا وقع بصره على البيت وهو موضوع على شكل مربع في وسط الحرم كالمصباح يقول: (بسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللَّهمَّ زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا ومهابة وتكريمًا) ويدعو الله بما شاء بالقلب مع الخشوع والتذلل ولا يزاحم أحدًا ويتجه إلى باب (بني شيبة) وهو مشتمل على عمودين تعلوهما قنطرة أمام مقام إبراهيم عليه السَّلام عرضه أربعة أمتار ويمر منه قائلًا: {رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}.

الحجر الأسود

ويتوجه إلى الجهة القبليَّة من الكعبة ويقف ما بين الركن اليماني و(الحجر

الأسود) وينوي طواف القدوم أي: التحيَّة سبعة أشواط ويتوجه إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود الذي هو مبدأ الطواف داعيًا إلى الله تعالى فيستلم الحجر ويقبله وهو حجر أسود قد أخذته القرامطة سنة ٣١٧ هجريَّة من بعد استيلائها على مكَّة وأرسل إلى اليمن كما سيأتي ثم أعيد في القعدة سنة ٣٣٩ بعد أن مكث هناك اثنتين وعشرين سنة والآن به تشقق مصون في صندوق من الفضة قد صنع له في سنة ١٢٩٠ في الركن الشَّرقي القبلي من الكعبة بارتفاع متر ونصف عن الأرض وفي هذا الصندوق فتحة مستديرة قطرها سبعة وعشرون سنتي أعني: شبرًا وثلثًا يرى منها الحجر ويستلم وقد صار ذا شكل مقعر كطاسة الشرب وكيفيَّة استلامه أن يأتي الشخص إليه فيضع يده عليه ويقبِّله مكبرًا فإن لم يمكن القرب منه للازدحام وقف محاذيًا له واستقبله برهة ورفع يديه التكبير قائلًا: (بسم الله، الله أكبر، ولله الحمد) ويرفع يديه للتكبير كالصَّلاة ويقول: (اللَّهمَّ اغفر لي ذنبي وطهر قلبي واشرح لي صدري وعافني برحمتك فيمن تعافي) فإذا استلمه وقبله قال: (اللَّهمَّ إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعًا لسنة نبيك وحبيبك محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمَّدًا عبده ورسوله آمنت بالله وكفرت بالجبت والطاغوت، اللَّهمَّ إليك بسطت يدي وفيما عندك عظمت رغبتي فاقبل دعوتي وأقل عثرتي وارحم تضرعي وجد لي بمغفرة وأعذني من مضلات الفتن)، ثم يطوف حول البيت من شرقيه ومتى سامت الباب قال: (اللَّهمَّ إن هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار فأعذني من النار)، ثم يستمر الطواف وقد اضطبع رداءه أي: يجعله تحت إبطه الأيمن ويلقيه على كتفه الأيسر وهو سُنَّة إلا المرأة لا ترمل في الطواف ولا تهرول في السعي ويكون الطواف خارجًا عن الشاذروان مارًّا من وراء الحطيم.

الشاذروان

فأما الشاذروان فهو الجدار المحيط بالبيت البارز من أسفله كدرجة سلم عرضه من جهة عشرون سنتي ومن جهة أخرى أربعون وارتفاعه نحو عشرين من جهة وثلاثين من أخرى وقيل: هو من أصل البيت قديمًا وترك خارجًا عنه بعد بنائه الأخير وبه حلقات لربط كسوة الكعبة من أسفل كما لها من الأعلى.

الحطيم

(وأما الحطيم) أي: حطم من البيت أي: كسر منه فهو بناء مستدير أمام الجهة البحريَّة من البيت على شكل نصف دائرة ارتفاعه متر وسمكه متر ونصف مغلف بالرخام أحد طرفيه محاذ للركن الشامي والآخر للغربي مسافة ما بين كل طرف منهما وبين الركن متران وخمسة وثلاثون سنتي فهما منفذان متقابلان يمر منهما إلى حجر إسماعيل عليه السَّلام ومسافة ما بين طرفي نصف الدَّائرة من داخل ثمانية أمتار.

حجر إسماعيل

وأما نفس (حجر إسماعيل) أي: حجر من البيت، أي: منع وهو منه فهو المحل المتسع المنحصر بين ضلع الكعبة البحري وبين الحطيم والمسافة ما بين وسط هذا الضلع ووسط تجويف الحطيم من داخل ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتي من ذلك ثلاثة أمتار من أصل الكعبة وباقية من أرض الزربية التي كان إسماعيل عليه السَّلام يربط به غنمه وقيل: إن تحت الميزاب قبر إسماعيل عليه السَّلام وأمه هاجر.

الميزاب

وفي أعلى منتصف هذا الضلع من الكعبة أعني: ما بين الركن العراقي والركن الشامي (الميزاب) يعني: المزراب لتصريف ماء المطر من سطح الكعبة كان من النحاس ويقال له: ميزاب الرحمة ثم وضعه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩ من الفضة، وفي سنة ١٠٢١ جدده السلطان أحمد بآخر من الفضة منقوش بالذهب والمينا اللازوردية، وفي سنة ١٢٧٠ أرسل السلطان عبد المجيد ميزابًا من الذهب وهو الموجود الآن وزيد في عدد الأعمدة والقناديل الموجودة حول المطاف.

المطاف

ووراء الحطيم بمسافة اثني عشر مترًا (حد المطاف) المستدير حول الكعبة ببعد ١٩ متر المفروش بالرخام وفي حدود هذا المطاف أعمدة من حديد مزخرفة الشَّكل متصل بعضها ببعض بواسطة قضبان تعلق فيها قناديل البلورللاستصباح ليلًا، ومتى أوقدت هذه القناديل للمطاف مع قناديل القباب فالناظر إلى الحرم يشاهده متلألئ بالنور ككوكب دري يسر الناظرين فيشترط ألا يطاف خارجًا عنها ولا داخل الحطيم ولا فوق الشاذروان ويتم دور الطوف بالوصول إلى أمام الحجر الأسود وعند ذلك يقف الطائف برهة مستقبلًا له ومكبرًا ثم يمسه بيده إن أمكن وإلا فيشير إليه مع التكبير وحينئذٍ يتم أول شوط ويستمر على ذلك إلى تمام السبعة الأشواط، إنما يرمل في الثلاث الأول من الأشواط أي: يهز في مشيه الكتفين (دون النساء) كالمبارز يتبختر بين الصفين مع الاضطباع ويمشي في الباقي على هيئته والمطوف معه يلقنه دعاء كل شوط فإن لم يكن مطوف ولم يكن حافظًا للأدعية قال في جميع الأشواط: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم بعد مس الحجر الأسود في انتهاء الشوط السَّابع يأتي إلى أمام (الملتزم).

الملتزم

و(الملتزم) هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فيدعو الله بما شاء وسمي بذلك لكون الحاج يلتزم هذا المحل للدعاء فيه وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يدعو فيه ثم يصلي ركعتين في (حفرة المعجن) وهي قطعة أرض مربعة منخفضة عن الأرض بجوار الشاذروان ما بين الباب والركن العراقي وكان معجنًا لإبراهيم عليه السَّلام حين بنى الكعبة.

مقام سيِّدنا إبراهيم

ثم يتوجه إلى (مقام إبراهيم) عليه السَّلام المقابل لباب الكعبة البعيد عنه بنحو اثني عشر مترًا وهو بداخل مقصورة من التنج المفرغ بالنقش مربعة الشَّكل ثلاثة أمتار وستون سنتي في مثلها وبداخلها (الحجر الأسعد) الذي كان يقف عليه سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام عند بناء الكعبة وبه أثر قدميه وله كسوة مزركشة بالمخيش وكذا ستارتان منضمن الكسوة الآتية من مصر سنويًّا.

بئر زمزم

وخارجًا عن المقصورة من الشَّرق فسحة بعرض المقصورة وبطول متر وثمانين سنتي للمصلي فيصلي ركعتي الطواف بها ويدعو الله ويتوجه إلى بئر (زمزم) فيشرب

من مائها ويتضلع وهذه البئر بقبلي المقام بحيث إن الزاوية البحريَّة الغربيَّة منها محاذية للحجر الأسود على بُعد ثمانية عشر مترًا منه طعم مائها قيسوني تعقبه مرارة يسيرة، عمقها اثنا عشر مترًا، وفي سنة ١٤٥ بنى أبو جعفر المنصور هذا المحل الموجود بداخله البئر وهو مربع من الداخل خمسة أمتار وربع في مثلها وفرش أرضها بالرخام وجعل بها الشبابيك النحاس، وفي سنة ٢١٤ شحت ماؤها فبأمر الخليفة المأمون صار تعميق قاعها فزاد الماء، وفي سنة ١٠٢٠ وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمتر لأن بعضًا من المجاذيب كانوا يلقون أنفسهم بها ليموتوا فداء حسب تصورهم.

القَرامطة

ومما ذكره المؤرِّخون عن كتاب نزهة الجليس أنه في عام ٢٩٣ ظهر بصنعاء اليمن شخص يدعى علي بن الفضل القرمطي من اليمن كان صاحب مذهب خبيث ودين مشئوم ادعى النبوة وارتكب محظورات الشرع وكان يؤذن في مجلسه أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وأباح لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات وسائر المحرمات وكان عنوان كتابه (من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان) وكان ينشد على المنبر بصنعاء.

خذي الدف يا هذه واضربي ... وغني هذاذيك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
أحل البنات مع الأمهات ... ومن فضله زاد حل الصبي
وقد حط عنا فروض الصَّلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي ... وإن أمسكوا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب

ولا تمنعـــي نفـــسك النـــاكحين ... مـــن الأقـــربين أو الأجنبـــي
فلـــم ذا حللـــت لهـــذا الغريـــب ... وصرت محرمـــــة لـــــلأب
ألـــيس الغـــراس لمـــن ربـــه ... وأســـقاه في الـــزمن المجـــدب
ومـــا الخمـــر إلا كـــماء الـــسماء ... حـــلال فقدســـت مـــن مـــذهب

وهي طويلة حلل فيها سائر المحرمات لعنه الله ولعن مذهبه وهلك مفصودًا مسمومًا في سنة ٣٠٣ ومدة محنته وكفره تسع عشر سنة وامتدت سطوتهم وزادت شوكتهم وعلا ظلمهم وهتك حرمات الله ونهب قوافل الحج وقتل النساء والأطفال.

وسافر كبيرهم أبو طاهر القرمطي سنة ٣١٧ بجيشه إلى مكَّة (عن كتاب ابن الأثير) ودخلها يوم التروية ونهب أموال الحجَّاج وقتلهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود ونفذه إلى (هجر) بلده فخرج إليه ابن محلب أمير مكَّة في جماعة من الأشراف وقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع الباب وأخذ كسوته وطرح القتلى في بئر (زمزم) ودفن الباقي في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم ونهب دور أهل مكَّة واستمروا في طغيانهم ونهبهم.

وفي ذي القعدة سنة ٣٣٩ أعادوا الحجر الأسود إلى مكَّة وكان قد بذل لهم أولًا أحد الملوك في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوه ولما فسد حالهم وضعفت قوتهم ردوه بلا شيء من بعد أن علقوه بجامع الكوفة [1] وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة ولهم محاربات كثيرة وانتصروا مرارًا على عساكر الخلفاء واشتهر نهبهم البلاد وقتل النساء والأطفال حتى فسد حالهم وأبادهم الله وقطع دابرهم.

(١) لم يعرف الحجر الأسود جاوز هجر بعد اقتلاعه، كما أن الكوفة لم تكن في تلك الفترة تابعة للقرامطة.

وأما ما نقله (الإسحاقي في تاريخه في خلافة جعفر المقتدر بن المعتضد) أن في أيامه ظهرت الطائفة الملحدة التي تسمَّى القرامطة لهم اعتقاد يؤدي إلى الكفر أول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطي وبني دارًا في (هجر) وأراد نقل الحج إليها لعنه الله فكثر فتكه في المسلمين وسفك الدماء وكثرت طائفته واشتدت شوكته حينئذٍ وجاء أبو طاهر القرمطي بعسكر جرار بآلات السلاح إلى المسجد الحرام يوم التروبة ووضعوا السيف في الطائفين والمصلين وفي مكَّة وشعابها وقتلوا ما يزيد على ثمانين ألف إنسان وركض أبو طاهر بسيفه مشهورًا في يديه وهو سكران راكب فرسه ودخل إلى المطاف الشَّريف فبالت فرسه وراثت وطلع إلى باب الكعبة وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وأقام بمكَّة أحد عشر يومًا وقلع (الحجر الأسود) وحمله معه يريد أن يحول الناس إلى مسجد ضرار واستمر الحجر الأسود عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة وهي مصيبة من أعظم مصائب الإسلام ولولا خوف الإطالة لذكرنا من أحوال القرامطة المناحيس فإن وقائعهم مشهورة وقد اقتصرنا على ما ذكر.

السعي بين الصفا والمروة

ثم يخرج من الحرم من الباب المسمَّى بباب (الصفا) إلى الشارع ومنه إلى (الصفا) بالجهة الأخرى من الشارع وهو مكان شبيه بالمصلى مقابل للحرم طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة مرتفع عن الأرض بنحو مترين يصعد إليه على سلم فمن أتى إليه صعد على السلم، واستقبل الحرم ويكبر ويهلل ويصلي على النَّبي ويرفع يديه ويدعو الله بحاجته وينوي السعي سبعة أشواط ثم ينحط منه ويتوجه إلى (المروة) داعيًا بما يلقنه المطوف في شارع عرضه تارة عشرة أمتار وتارة اثنا عشر مترًا ماشيًا

كالعادة قدر خمسة وسبعين مترًا حتى يحاذي (الميلين) الأخضرين أي: العلمين وهما علامتان خضراوتان إحداهما على الحائط الأيمن من الشارع والأخرى حذاءها يسارًا بجوار باب الحرم المسمَّى بباب (البغلة) وعند ذلك يسعى مهرولًا (دون النساء) كأنه يسعى بدون نعال على رمل وقت اشتداد الحر ويداه قائمتان بجانبيه حتى يأتي بين الميلين الآخرين اللذين أحدهما بباب الحرم المسمَّى بباب (علي) والآخر مقابل له في الحائط الآخر من الطَّريق ومسافة الهرولة سبعون مترًا ثم يمشي مشيه المعتاد قبل الهرولة حتى يصل إلى المروة بعد مائتين وستين مترًا تقريبًا فالمسافة كلها نحو أربعمائة وخمسة أمتار.

(والمروة) محل مرتفع له سلم كالصفا فيصعد عليها وبفعل كما فعل على الصفا ثم يعود ثانيًا إلى الصفا ويهرول ما بين العلمين كما فعل أولًا حتى يصل إلى الصفا (والمرأة لا تهرول في السعي بين الميلين ولا ترمل في الطواف ولا ترفع صوتها بالتلبية لما فيه من الفتنة) وهكذا سبعة أشواط وبهذا تم السعي والطواف.

وهذا لمن أحرم بالحج وبقي بإحرامه وصار المسعى أحب البقاع إلى الله عزَّ وجلَّ لأنه يذل فيه كل جبار ثم يتوجه لقضاء شئونه والبحث عن مسكنه ويطوف حول البيت كلما أراد إلى أن يتوجه إلى عرفات.

وصف الحرم

والحرم الشَّريف في وسط مكَّة باتساع منيف طوله مشرقًا مغربًا نحو ١٩٢ مترًا وعرضه ١٣٢ مترًا زوايا أضلعه ليست قائمة في دوائره الأربع قباب على أعمدة من المرمر والحجر النحت بناؤه متين عليه سبع مآذن وقبل بنائه كان حول البيت غوطة مشتبكة بأشجار ذات شوك قطعها عبد مناف بن قصي أحد أجداد النَّبي عليه الصَّلاة

والسَّلام وهو أول من بني دارًا بمكَّة ولم تكن بمكَّة دار قبلها بل كان مضارب للعرب من الشعر الأسود وأما الحرم فكان اتساعه في خلافة أبي بكر لحد الباب العتيق القريب من مقام إبراهيم عليه السَّلام ثم اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جملة بيوت وأدخلها فيه وبنى عليه الحائط سنة سبع عشرة بعد الهجرة ثم زاد فيه عبد الله بن الزبير ثم عبد الملك بن مروان زاد في أبوابه وارتفاع حيطانه فلما ولي أبو جعفر المنصور العبَّاسي زاد في الحرم سنة ١٤٤ وجعل طوله ٣٧٠ ذراعًا بذراع العمل وعرضه ٣١٥ والأعمدة كانت ٤٣٤ وهو الذي عين الأغوات للخدمة به، وفي سنة ١٤٩ وسع أبو جعفر المنصور الحرم من مقام الحنفي إلى باب العمرة، وفي سنة ١٦٤ اشترى ولده المهدي جملة بيوت من الجهة القبليَّة وأدخلها بالحرم لكون الكعبة في وسطه وكل من ولي من الخلفاء والسلاطين يزيد في اتساع الحرم حتى صار على ما هو عليه الآن.

بيت الله الحرام

وفي وسط الحرم (بيت الله الحرام) أي: الكعبة مربع الشَّكل تقريبًا طوله اثنا عشر مترًا في عشرة أمتار وعشرة سانتي فضلًا عن عرض الشاذوران وارتفاعه نحو خمسة عشر مترًا فالضلع الذي به الملتزم وباب الكعبة وهو الجهة الشَّرقيَّة مائل إلى الشمال نحو عشرين درجة وطوله اثنا عشر مترًا وذلك مخالف لما ذكره المؤلف (ورجرس) في تاريخه نقلًا عن المؤلف (برخارض) من أن باب الكعبة في الجهة الشماليَّة والحال أنه كما ذكرناه والضلع الذي به حجر إسماعيل وبأعلاه الميزاب وهو الشمالي مائل للغرب نحو العشرين درجة وطوله عشرة أمتار ويواجهه من البلاد المدينة المنوَّرة والشام وما وراءهما من البلاد لجهة الشمال.

وعلى هذا يكون (ركن الحجر الأسود) ما بين الشَّرقي والشَّرقي الجنوبي تقريبًا ويواجهه من البلاد الجزء الجنوبي من بلاد الحجاز لغاية عدن وبلاد هرار ومدغشقر واستراليا وجنوب الهند والصين وجميع صوماترا وبورنيوا وما حولها من الجزائر بحيث إن من صلى في هذه البلاد تكون قبلته هذا الركن وركن حجر إسماعيل أي: (الركن الشامي) ويسمَّى بالعراقي أيضًا يكون ما بين الشمالي والشَّرقي الشمالي تقريبًا ويواجهه من البلاد الجزء الأكبر من الحجاز والعجم وتركستان والعراق وشمال الهند والسند والصين وسيبريا والركن الذي يليه المسمَّى (بالركن الغربي) ما بين الغربي والغربي الشمالي يواجهه من البلاد غرب الروسيا وجميع أوروبا مع القسطنطينيَّة وشمال أفريقيَّة نحو الغرب والجزائر ومراكش وتونس وطرابلس ومصر إلى غاية الشلال الثَّاني من بلاد النوبة، والركن الرَّابع المسمَّى (باليماني) ما بين الجنوبي والجنوب الغربي، ويواجهه من البلاد قطعة أفريقيَّة الجنوبيَّة مبتدأ من سواكن بالبحر الأحمر إلى الرأس الخضرة بالأوقيانوس الاتلانتيقي وما دون هذا الخط لغاية رأس الرجا الصالح والمصلي في الحرم يستقبل البيت في أي جهة كان فالحرم كدائرة نقطة مركزها البيت كما أن المصلين خارجًا عن الحرم وفي كل البلاد يستقبلونه بحسب الوضع.

باب الكعبة

والبيت المعظم مبني من حجارة الجص الكبار الصماء الزرقاء ويستدير به من أسفل الشاذوران كدرجة سلم (وباب الكعبة) مرتفع عن الأرض بمترين وعتبته من الفضة مع قفل الباب الذي مصراعاه من الصاج المصفح بالفضة المذهبة وذلك من مدة خلافة السلطان سليمان سنة ٩٥٩ وله ستارة كبيرة مزركشة في غاية الظرافة من ضمن الكسوة الآتية من مصر يصعد إليه بمدرج من خشب ومصفح بالفضة

يدخل منه إلى جوف البيت وهو مربع به ثلاثة أعمدة من العود الماوردي العال قطر الواحد منها خمسة وعشرون سانتي موضوعة على حذاء واحد في منتصف المحل مبحرًا مقبلًا وبسقفه هدايا من الجواهر الثمينة معلقة من عهد الخلفاء إلى الآن وحيطانه مكسوة بالأطلس الأحمر المنسوج عليه مربعات من الحرير الأبيض مرسوم عليها (الله جل جلاله) هديَّة من السلطان عبد العزيز وفي زاوية ركن حجر إسماعيل شطرة على يمين الداخل فيها باب يصعد منه على مدرج إلى أعلى الكعبة يقال له: (باب التوبة)، وفي سنة ١٢٩٥ فرش السطح بألواح المرمر وبدائر جهاته الأربعة حلق لربط الكسوة بها من الخارج حتى تكون مسدولة على أربع جهاته من الأعلى إلى الأسفل وهذه الكسوة من الحرير الأسود من نسيج مصر تحمل إليه منها في كل عام كما ذكرناه في أول الكتاب ويصير وضع هذه الكسوة الجديدة على الكعبة مع ستر مقام سيِّدنا إبراهيم والستائر في ١٠ الحجَّة والحجَّاج بمنى.

إنما في ٢٧ ذي القعدة يحاط بالبيت من الأسفل إلى ارتفاع مترين باليفتة البيضاء ادعاء بأن هذا علامة إحرام الكعبة وحقيقته أن الموكل بها يأخذ هذا الجزء من الكسوة الأصليَّة ليبيعه إلى الحجَّاج تبركًا.

وقد تفتح الكعبة في موسم الحج خلاف أيام المواسم لمن يريد الدخول للزيارة بشرط أن يدفع ريالًا لمن يفتح الباب من طرف الشَّيخ الشيبي إن لم يكن ذا ثروة، وإلا أخذوا منه مبلغًا كبيرًا، والكعبة بنيت وتجددت إحدى عشرة مرة على ما قيل وأول من بناها الملائكة ثم آدم عليه السَّلام ثم شيث وأول بانيها بالحجارة إبراهيم الخليل عليه السَّلام مستعينًا بولده إسماعيل عليه السَّلام ثم العمالقة ثم جراهم ثم قصي بن كلاب ثم هدمت وبنتها قريش في زمن الرَّسول عليه السَّلام قبل النبوة وكان سنة خمسًا وثلاثين سنة وهدمت بسبب سيل ولم يكن لها سقف وكان بداخلها

بئر عند بابها على يمين الداخل منه يلقي الناس فيه الهدايا يقال لها: خزانة الكعبة فلما بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن أرادت كل قبيلة رفعه إلى موضعه حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال ثم تشاوروا فقال أبو أميَّة بن المغيرة وكان أسنَّ قريش: اجعلوا بينكم حكمًا أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينكم فكان أول من دخل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، وأخبروه الخبر فقال: هلموا إلي ثوبًا فأتى به فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده الشَّريفة ثم بنى عليه ثم هدمها عبد الله بن الزبير وعمرها وأدخل الحجر فيها، ثم لما قتل الحجَّاج ابن الزبير هدم ما كان بناه وجدد بناء الكعبة على ما هي عليه الآن سنة ٧٢ [1] في خلافة عبد الله بن مروان وأخرج الحجر من البيت وجعل على حائط الكعبة من جهة الشام ميزابًا ألبس بالذهب فيصب منه ماء الأمطار في (الحجر) وجعل على البيت بابًا مرتفعًا عن الأرض على قدر قامة وهو مصفح بصفائح من الفضة المطليَّة بالذهب وهو أول من كسا البيت بالديباج وقاية من السيل، وفي سنة ١٠٣٩ نزلت أمطار كثيرة وعمت مكَّة وحاراتها وعلت المياه عن قفل باب الكعبة بذراعين حتى بعد يومين انهدمت دفعة واحدة ما عدا الجهة اليمانيَّة وجددها السلطان مراد خان الرَّابع وقد أرسل مندوبين من الآستانة ومهندسين من مصر وأقاموا بناءها وتجديدها سنة ١٠٤٠ مع بذل المال الكثير.

(١) قتل ابن الزبير في ١٥ جمادي الأول سنة ٧٣هـ، وجدد عبد الملك بن مروان بناء الكعبة بعد مقتل ابن الزبير.

فتح باب الكعبة

ومن العادة في كل سنة أن تفتح الكعبة في مواسم للزائرين منها في عشر المحرم للرجال وليلة الحادي عشر للنساء ومنها ليلة ١٢ ربيع الأول للدعاء للسلطان بدون أن يدخلها أحد وفي صبيحة تلك اللَّيلة للرجال وفي ليلة ١٣ للنساء وفي ٢٠ منه غسل الكعبة بحضور شريف مكَّة والوالي وقد تيسر لي ذلك عندما كنت بمكَّة في شهر ربيع أول سنة ١٣٠٣هـ وهو بعد السَّاعة الثَّانية فتح بيت الله الحرام ودخلت مع سعادة الشَّريف وسعادة الوالي وخمسة من المتوظفين وصلينا عدة ركعات في كل الجهات ثم غسلنا جميعًا أرضيَّة الكعبة بماء زمزم دفعات ثم بماء الورد بمقشات من الخوص وبعد ذلك ضمخنا الحيطان إلى ارتفاع اليد بأنواع العطر ودهن الورد بقطع من البفتة صار تفريقها على الحاضرين والبخور صاعد من ند وعود والند مركب من عود وقشر عنبر وسنبل طيب أجزاء متساوية تدق ناعمًا وتمزج بماء الورد ورسراس وتجفف ظلًّا بعد التحبيب ثم بعد انتهاء الغسل صار تلاوة الدعاء وخرجنا حامدين شاكرين لله رب العالمين، ومن المواسم أيضًا أول جمعة رجب تفتح للرجال وفي ثاني يوم للنساء وفي ليلة ٢٧ منه للدعاء للسلطان بدون أن يدخلها أحد وصباحًا للرجال ومساءً للنساء ومنها ليلة النصف من شعبان للدعاء ويوم النصف صباحًا للرجال وثانيه للنساء ومنها يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وثانية للنساء وليلة ١٧ للدعاء وآخر جمعة كذلك ومنها في نصف ذي القعدة للرجال وثانيه للنساء وفي ٢٠ منه تغسل الكعبة وفي ٢٨ منه إحرامها أعني: إحاطتها من الخارج بقماش أبيض من الأسفل إلى ارتفاع مترين كما تقدم وقد تفتح فتحًا خصوصيًّا لبعض الأعيان وقد رسمت صورة حضرة الشَّيخ عمر الشيبي حامل مفتاح الكعبة من ذريَّة بني شيبة

الـذين نزلـت الآيـة الـشَّريفة في حقهـم [١] قولـه تعـالى: {إن الله يـأمركم أن تـؤدوا الأمانات إلى أهلها} وأرسلتها إلى حضرته مع هذه الأبيات من قولي:

قلبـــي يـــصوِّر شخـــصكم في كعبـــة ... بنيـــت عـــلى الرحمـــات والأنـــوار
فالقلـــب مـــشتعل بنـــار فـــراقكم ... أو لـــيس كـــل مـــصوِّر في النـــار
بيـــدي رســـمت مثـــالكم في رقعـــة ... أمـــلًا لقـــرب الـــود والتـــذكار

وفي بحري مقام سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام (المنبر) من المرمر أرسله السلطان سليمان سنة ٩٥٦ ومنقوش عليه بالفحم {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرَّحمن الرحيم}.

وخلف قناديل المطاف بمتر تجاه الضلع البحري من الكعبة والميزاب (محراب الحنفي) وكان أصل هذا المحل محل مشورة قريش ويسمَّى بدار الندوة فاشتراه أبو سفيان وأدخله في الحرم وخلف قناديل المطاف بمترين تجاه الضلع الغربي محراب (المالكي) ومحراب (الحنبلي) مواجهة للضلع القبلي وأما محراب (الشافعي) فخلف مقام إبراهيم.

هذه المقامات الأربعة صار إيجادها في سنة ٩٧٣ في زمن السلطان سليمان عند بناء أربعة مدارس بجوار الحرم للأربعة مذاهب لكل مذهب مدرسة بشرط أن يوجد في كل مدرسة خمسة عشر طالبًا للعلم وواحد معيد وواحد مدرس من المذهب التابع لتلك المدرسة وبمقابلة كل منها أنشئ مقام على بعد قليل من الكعبة كالمبين أعلاه كي يصلي كل إمام من المذاهب الأربعة مع جماعته منفردًا وقد تيسر لي رسم مسطَّح الحرم بالبيان وأخذ رسم منظره من جملة جهات مع ما حوله من

(١) بنو شيبة حجبة الكعبة ومفاتيحها (صبح الأعشى ج ١ ص ٣٥٦)، أما السدانة فهي حق بني شيبة بلا نزاع وقد ثبت ذلك بالعمل المتواتر.

البيوت بواسطة آلة الفطوغرافيا.

وبعض مواضع من صحن الحرم ليس بها بلاط وإنما يعلوها زلط وباقية مع ما تحت العقود مبلط بحجر الجص وأرضيَّة الحرم من تحت العقودات منخفضة عن الشوارع بنحو ثلاثة أمتار ويصعد من أبوابها إلى الشوارع بسلم والبيت منحدر تدريجيًّا عن هذه الأرضة نحو متر وبذا يسهل تصريف ماء السيل عند نزوله.

وصف مكَّة

وأما المراحيض فإنها خارجة عن الحرم في بعض جهات مخصوصة وللوضوء حنفيات خارجة عن المسجد وبالحرم (حمام الحمي) وهو كثير ولا ينفر من المارين لأمنه من صيده وقتله محرم يُلقى إليه الحَب فيلتقطه بدون نفور ولونه مباين للون غيره من الحمام لأنه أزرق غمق به نقط رماديَّة وخطوط سود وهومطوق بالخضرة المحمرة والقطط مسلطة عليه تصطاده وأما مكَّة شرفها الله تعالى فهي بلدة كبيرة بين جبال صعبة المرور طولها من الشمال للجنوب ميلان وعرضها شرقًا من جبل أبي قبيس إلى أسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد يقطع الماشي طولها في نحو نصف ساعة وإن عرضها أقل من طولها لكن لوجود أماكن على تلال كل من جانبيها يلزم لقطع عرضها زمن أكثر من الذي يقطعه الماشي في طولها وهواؤها جاف لزيادة حرارتها وطيب للصحة وبها من الجبال المأثورة جبل (حراء)[1] وبه الغار الذي كان يتعبد فيه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وجبل (ثور) وبه الغار الذي اختفى فيه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وصاحبه حين أخرجه من مكَّة كفار قريش وهو بجنوب البلد بمسافة ساعتين، وجبل (النور) ببحري مكَّة بساعة وهو أول

(١) «غار حراء» الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبّد فيه قبل النبوة وأثناءها، يقع في «جبل النور».

مهبط جبريل عليه السَّلام، وجبل (أبي قبيس) بشرق البلد.

وأسماء مكَّة كثيرة منها بكة والبلد الأمين والمسجد الحرام أم الرحمة أم الصفا أم المشاعر أم القرى تهامة حجاز مدينة العرب بلد طيبة.

ومن الألقاب مشرفة مكرمة مفخمة جامعة مباركة وهي مرتفعة عن البحر المالح بنحو ٢٦٢ مترًا وهي وطن الرَّسول عليه السَّلام وولد فيها ومن الاتفاق الغريب أنه إذا أخذ عدد حروف مكَّة وهو ٦٥ وأخذ عدد حروف وطن ٦٥ وجدا عدادهما متساويين وقال عليه السَّلام: **((حب الوطن من الإيمان))** فكان حب مكَّة عنده واجبًا لكونها وطنه.

بيوتها نحو ٦٥٠٠ جميعها تجارية عالية بها خمس طبقات تُبنى بالحجر الجص الأصم ليس لها حوش وبها خلاف الحرم المكي ستة جوامع و٦٧ مسجدًا المشهورة منها مسجد (الراية) بشرق البلد ومسجد (الجن) بغربها ومسجد (الإجابة) ومسجد (البيعة) ببحريها ومسجد (منى) بين الجمرة الأولى والوسطى ومسجد (الكبش) ببحري منى ومسجد (الخيف) بجنوبها.

وبمكَّة قلعتان وقشلتان وثلاثة تكايا منهم تكيَّة مصريَّة أمام باب الحرم المسمَّى باب جياد وحمامان وتسعة خانات وست مدارس للعلوم وشونتان ومدبغتان.

وشوارعها ضيقة بدون انتظام ما عدا شارعًا مشهورًا مبتدؤه الشَّيخ محمود مارًّا بباب العمرة إلى أمام التكيَّة المصريَّة ثم على المسعى وعلى طريق القشاشيَّة وسوق اللَّيل إلى آخر مكَّة من جهة المعلاة وعرض الشارع يكون تارة ثمانية أمتار وتارة عشرة وتارة عشرين مترًا ومن الحارات النافذة للشارع المذكور حارة الباب وحارة الشبيكة والسوق الصَّغير وجياد به التكيَّة المصريَّة والحميديَّة ديوان الحكام الشاهانيَّة

وسوق اللَّيل وسوق الصفا والمسعى والقشاشيَّة عن اليمين الموصلة إلى المعلاة ثم الغزة وبها منزل سعادة أمير مكَّة عون الرفيق باشا ثم سوق المعلاة والبراضيَّة وعن يسار القشاشيَّة المسعى إلى المروة الذي به يسارًا باب السَّلام ويمينًا طريق المدعى ثم الجودريَّة ثم المحناطة ومن حارة الباب ينفذ إلى سوق الشاميَّة ومنه إلى المروة.

إجابة الدعاء

وبمكَّة عشرة مواقف قيل: يستجاب فيها الدعاء أولها دخول الحرم ومواجهة الكعبة من باب السَّلام ثم عند نيَّة الطواف ثم عند الملتزم عند باب الكعبة ثم في الطواف ثم عند مقام إبراهيم الخليل ثم في حجر إسماعيل ثم عند زمزم ثم في الصفا ثم في المروة.

وبخارجها خمسة يوم عرفة وليلة المزدلفة وثلاثة المرمي.

وبها لحوم الأغنام بكثرة وليس بها بساتين ولا أشجار إلا بمحل خارج عنها بثلاث ساعات ويسمَّى (بركة ماجد) به بعض نخيل وخضراوات وأغلب الخضارات تأتي إليها من جنابن (وادي فاطمة) على بُعد خمس ساعات ومن (سولة) ووادي (الليمون) يبعد عن مكَّة بأربع عشرة ساعة.

ومن فواكهها اللذيذة العنب والرمان والموز واللوز والجوز والسَّفرجل وغيرها تأتي إليها من (الطائف) ومن سائر جهاتها وإن سكانها أخلاط من الجاوا والهنود والمصريِّين والأتراك والتكارنة وأهل اليمن والعربان ويبلغ عددهم ما يزيد عن العشرة آلاف نفس وإن الأقوات والتجارات تأتي إليهم من الخارج كجهة البصرة ومصر وبومباي.

أوقاف الدشيشة

وقيل: إن سيِّدنا عمر رضي الله عنه قد رتب مدة خلافته لأهل مكَّة والمدينة مائة ألف أردب من القمح يرسل إليهم من مصر باسم حب الصدقة أو الدشيشة وتنازل هذا المرتب شيئًا فشيئًا ومما ذكر في التَّاريخ من آثار السلطان سليمان أنه ضم إلى أوقاف الدشيشة الكبرى أوقافًا أخرى فصارت جملة أوقاف منها وقف السلطان قايتباي ووقف السلطان جقمق والسلطان سليمان والسلطان مراد الثَّالث وولده السلطان محمَّد خان والقرى الموقوفة عليها ستة بالقليوبيَّة وخمسة بالمنوفيَّة وثمانية بالغربيَّة وإحدى عشرة بالدقهليَّة وخمسة بالبحيرة وخمسة بالجيزة وعشرون بالوجه القبلي، والمتحصل من النواحي في كل سنة ما هو من المال سبعون كيسًا وما هو من الغلال ٤٨٨٨٠ أردب من القمح وذلك خارج عن أجرة الأماكن الكائنة بمصر وغيرها وهو في كل شهر هلالي أربعة وأربعون كيسًا والغلال تجهز إلى بندر السُّويس من متحصل النواحي المذكورة وتحمل في مراكب في وقف الدشائش برسم التكايا ومجاوري الحرمين الشَّريفين، وأما ما يجهز من النقد من متحصل النواحي والأملاك المسمَّى (بالصرة) يرسل في كل عام صحبة أمير الحاج المصري وتوزع على أربابها من مجاوري وفقراء الحرمين، ومن يريد كثرة الأيضًاح فعليه بتاريخ الإسحاقي عن مدة السلطان أحمد بن السلطان محمَّد وخلافه، وفي مدة المرحوم محمَّد علي باشا والي مصر بلغ المرتب إلى (٢٠٧٨٨) أردب منها يرسل لمكَّة (١٢٠٠٠) أردب وللمدينة (٨٧٨٨) أردب باسم جراية الصدقة أو بدعا كوى يرسل سنويًّا إلى الآن بمعرفة ديوان الماليَّة بمصر وجميعها تفرق على فقراء البلدتين من أهالي وأشراف بموجب وصولات تحت يدهم وذلك خلاف المرتب للتكيَّة المصريَّة بمكَّة والمدينة من القمح والأرز والسمن والأردب المصري الذي يساوي ٢٤ ربعًا يساوي بمكَّة ٥٤ كيلة مكيَّة بحسب أحجام مكاييل هذه الجهات ووزن الأردب (١٠٢) أوقية استانبولي

ولكن الموظفين بالتفرقة ينهبون منها جانبًا عظيمًا وقد عاينت ذلك مرارًا وألفت كتابًا على تفريق حب الصدقة ولكن لم يتيسر لي طبعه وليس هناك ما يتجرون فيه إلا ماء زمزم والحناء والآراك الذي يستعمل في السواك وتجارهم من الغرباء ومنهم من يخرج ماله بالربح بأن يعطي عشرة ويأخذ سندًا باثني عشر أو أكثر واكتسابهم من الحجَّاج وخصوصًا الجاوا لغناهم وتدينهم وأغلب سكانها ما بين مطوف وسقاء وبناء ونجار.

عوايد أهل مكَّة - عين زبيدة

ومن عوائدهم اجتماع بعضهم بعد الحج ببعض للخروج إلى النزهة بالطائف وبالسَّيدة ميمونة في ١٣ صفر وبالزاهر جمعياتهم تحتوي على سماع آلات الطرب وترقيص الغلمان وأفراح الزواج وفي رجب يسافرون للزيارة بالمدينة وفي هذه الأشياء يصرفون كل ما اكتسبوه في سائر عامهم ومنهم من يحفظ شيئًا من هذا الكسب يستعين به على السَّفر إلى الآستانة أو مصر أو الهند أو بلاد الجاوا ليتعارفوا مع من يريد الحج في العام الآتي فهم بهذه الأسباب فقراء على الدوام تركبهم الديون ولولا وجود مياه (عين زبيدة) لهلكوا عطشًا وهذه العين تسمَّى (عين حنين) لشهرتها وماؤها عذب بعيدة عن مكَّة بمسافة ثلاثة أيام بين جبال سود عاليات بواد قليل الأمطار وهي من عمل أم جعفر (زبيدة) بنت جعفر بن المنصور زوجة هرون الرشيد واسمها (أم العزيز) وكان جدها المنصور يرقصها وهي طفلة وكان يقول لها: زبيدة فاشتهرت به وكانت من أهل الخيرات منها إجراء عين حنين هذه إلى مكَّة وأنفقت عليها خزائن أموال حتى أوصلتها إلى محل بوادي (النعمان) البعيدة عن عرفات بنحو ساعتين وهو منحط عن سطح الأرض بثمانية عشر مترًا ونفقت الأموال إلى أن سلك الماء واجتمع المباشرون لديها وأخرجوا دفاترهم لإخراج

الحساب فيما صرفوه وكانت في قصر مشرف على الدجلة فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في بحر الفرات [١] وقالت: (تركنا الحساب ليوم الحساب، فمن فضل عنده شيء من بقيَّة المال فهو له، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه) ثم ألبستهم الخلع، ومنبع هذه العين في جبل شامخ شاهق يقال له: (طاد) بطاء مهملة وألف ودال مهملة من جبال الثنيَّة من طريق الطائف وكان يجري الماء إلى أرض يقال لها: (حنين) يسقى بها مزارع للناس وإليها ينتهي جريان هذا الماء وكان يسمَّى (بستان حنين) وهو موضع غزا فيه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم المشركين (غزوة حنين) فاشترت زبيدة هذا البستان وأبطلت المزارع وشقت له القناة في الأرض وجعلت له الشحاحيذ في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الأمطار وجعلت فيها قناة متصلة إلى مجرى هذه العين فصار كل شحاذ عينًا يساعد عين حنين وهي سبعة تنصب فيها وينقص البعض ويزيد البعض بحسب الأمطار الواقعة على أم تلك العيون إلى أن وصلت إلى مكَّة ثم إنها أمرت بإجراء عين (وادي النعمان) إلى عرفة وعين نعمان منبعها ذيل (جبل كرا) وهو جبل شامخ عال أعلاه أرض الطائف صعب المرقي مسيرة نصف يوم من أسفله إلى أعلاه وينصب من ذيل جبل كرا في قناة إلى موضع يقال له: (الأوجر) من وادي النعمان ثم يجري منه إلى موضع بين جبلين شاهقين في علو أرض عرفات فيها مزارع ولشعراء العرب تغزلات في وادي نعمان وفيه يقول القائل:

أيا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إليَّ نسيمها

فعملت القنوات إلى أن جرى ماء عين نعمان إلى عرفات ثم أديت القناة بجبل (الرحمة) محل الوقوف الشَّريف في الحج وجعل منها الطرق إلى البرك التي بأرض

(١) قصر زبيدة مشرف على دجلة (لا يقال «الدجلة» حسب ياقوت الرومي) فرمي الدفاتر يجب أن يتم على ذلك النهر.

عرفات فتمتلئ ماء يشرب منه الحجَّاج في يوم عرفة ثم استمر عمل القناة إلى أن خرجت إلى أرض عرفات خلف جبل على يسار العائد من عرفات بطريق (المظلمة) بضم الميم ثم وصلت إلى المزدلفة ثم تستمر إلى جبل خلف منى ثم تنصب في بئر عظيمة بقبليها مقطوعة بأحجار كبار تسمَّى بئر (زبيدة) ينتهي عمل هذه القناة إليها وهي من الأبنية المهولة وتوفيت الملكة زبيدة إلى رحمة الله تعالى وتعلق الشغل عند مكَّة بمسافة ٣٣٠٠٠ مترًا ثم صارت عين حنين وعين عرفة بعد سنين تنقطع لقلة الأمطار وتنهدم قنواتها وتخربها السيول بطول الأيام وكان الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها فتجري تارة وتنقطع تارة أخرى، واستمر الحال على هذا المنوال ثم انقطع وعمرها السلطان المؤيد الجركسي ملك مصر في سنة ٨٢١ ثم عمرها وعمر عين عرفات أيضًا السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٥ ثم عمر عين حنين السلطان قنصوة الغوري حتى جرت وملأت برك المعلى وبركة ماجن في درب اليمن من أسفل مكَّة ثم انقطعت في أوائل السلطنة العثمانية وبطلت العيون لقلة الأمطار وتهدمت قنواتها وانقطعت عين حنين عن مكَّة وصار أهل البلاد يستقون من الآبار حول مكَّة قريبًا من المنحنى والزاهر وانقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وصار فقراء الحجَّاج في يوم عرفة لا يطلبون شيئًا غير الماء (قال القطبي): إني أذكر أنه في سنة ٩٣٠ قل الماء وارتفعت أسعاره في عرفة فاشتريت قربة ماء صغيرة يكاد يحملها الإنسان بإصبعيه بدينار ذهب، والفقراء يضجون من العطش ويطلبون من الماء ما يبل حلوقهم في ذلك اليوم الشَّريف وجاء وقت الوقوف والناس عطاش يلهثون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله ورحمته، والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم وحصل البكاء الشديد من الحجَّاج لما رأوا من رحمة الله ولطفه بهم، ثم برزت الأوامر السلطانيَّة الشَّريفة السليمانيَّة بإصلاح عين حنين وعين عرفات وصار تصليحها وجرت عين حنين

ودخلت إلى مكَّة وأصلح عين عرفات في سنة ٩٣١ ثم قلت الأمطار في بعض سنين متعددة ويبست العيون من سنة ٩٦٥ وما بعدها وكانت تشبه سنين يوسف عجافًا وانقطعت العيون إلا عين عرفة إنما قل ماؤها ولما عرضت أحوالها للسدة السلطانيَّة السليمانيَّة وصدر الأمر بتصليح ذلك فعمل مجلس بمكَّة وانحط الرأي على توصيل الماء من بئر زبيدة بخلف منى إلى مكَّة حيث هي أقوى العيون الموجودة وظنوا أنه موجود مجرى تحت الأرض إلى مكَّة وانهدمت وطلبوا من السلطنة ثلاثين ألف دينار للتعمير سنة ٩٦٩ فالتمست صاحبة الخيرات (مهروماه سلطان) كريمة السلطان سليمان أن يأذن لها في عمل هذه الخيرات فأذن لها في ذلك وتعين من يلزم للمباشرة واستلم خمسين ألف دينار وشرع في حفر القناة من وادي نعمان في علو عرفات وتنظيف ذيولها إلى أن وصل العمل إلى بئر عين زبيدة وما وجد بعدها ذيلًا وتحقق العمل الباقي إنما تركته زبيدة اضطرارًا وعدلت عنه إلى عين حنين وترك العمل عند البئر لصلاة الحجر وصعوبة قطعه وطول مسافته ويحتاج إلى ذيل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع حتى يصل بذيل عين حنين وينصب فيه ويصل إلى مكَّة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج إلى النزول إلى خمسين ذراعًا في العمق فصار الشروع في الحفر على وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقع عليه النار من الحطب ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا قدر قيراطين من ٢٤ قيراطًا من ذراع فيكسر بالحديد إلى أن يوصل إلى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب ليلة أخرى وهلم جرا إلى أن ينزل في ذلك الحجر خمسين ذراعًا في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع ثم يقطع على هذا الحكم وصرف أكثر من خمسمائة ألف دينار من الخزائن السلطانيَّة إلى أن جرت عين عرفات ووصل الماء إلى مكَّة سنة ٩٧٩ وفرحت الأهالي فرحًا شديدًا، وأما عين حنين في هذا الزمان فقد انقطعت من مدة سنين وصارت في

خبر كان إلا أن ذيولها وآثارها باقية إلى الآن، وأما عين عرفة فتارة تزيد وتارة تنقص وفي أواخر سنة ١١٤٣ انقطع ماؤها أجمع وصار الناس يستقون من آبار العسيلان والزاهر وغيرهما ثم صار تصليحها من طرف السلطنة وقد صار إصلاحها أيضًا في سنة ١٠٩٣ وسنة ١١٨١ وسنة ١٢٣٥ في زمن السلطان محمود.

وأخيرًا في سنة ١٢٩٦ قد حصل فيها قبل أوان الحج بعض انهدام وجرى ترميمه في غاية الإتقان من أهل الخيرات حتى صار ماؤها يجري في قناة مبنيَّة من المنبع إلى مكَّة كقناة الوبور عرضها من الأعلى متر بل تارة يزيد وفراغها من خمسين سانتي إلى ستين وعمقها متر ونصف وارتفاع الماء عن قاعها سبعون سانتي مغطاة ببناء من الحجارة وبالغطاء فتحات بقدر خمسين سانتي أو أكثر لأجل الملء منها وهذه الفتحات متباعدة عن بعضها بنحو العشرة أو العشرين مترًا على حسب المواقع وبجانبها أحواض لشرب المارين وأحواض أخرى لشرب الآدميين وسطح القناة تارة يكون مساويًا لسطح الأرض وتارة مرتفعًا عنها إلى سبعة أمتار على حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها كما شاهدت جميع ذلك بعرفات حيث تمر بجانب جبل الرحمة من الجهة الشَّرقيَّة من عرفات متجهة إلى منى ثم إلى مكَّة، وهناك تصب في جملة صهاريج متعددة.

وفي سنة ١٢٩٧ أرسل من مصر إمداد خمسة وعشرون ألف جنيه مع أحد معاوني الداخليَّة وبرفقته أحد المهندسين المشهورين لمشاهدة العمارة الجارية بقناة العين مع كونها كانت قد انتهت تقريبًا وشاهدت القناة مبنيَّة بناء متينًا من مكَّة إلى عرفات.

وفي عام آخر وجدت تعميرها صار إتمامه حتى أن الماء كثر بمكَّة وجهاتها.

وهذه أصناف المعاملة المستعملة بكل من مكَّة وجدَّة والأغلب المستعمل بها دائما هي الاسلامبوليَّة وأما غيرها فأكثر ما يتعامل به في أوان الحج وبحسب القيمة.

من بعد الحج	بوقت الحج	أسماء العملة	من بعد الحج	بوقت الحج	أسماء العملة
غرش	غرش		غرش	غرش	
١٧١	١٦٩	فالجنيه المصري	٢٩	٢٨	الريال الشنكوا
١٧٠	١٦٨	الإنجليزي	٢٨	٢٦	المجيدي
١٥١	١٤٨	الاسلامبولي	١٣	١٣	الروبيَّة
١٣٣	١٢٨	البنتو	..	٠٥	الفرانق
٠٢٨٢٠	٠٢٨	الريال البطاقة	..	٠١٢٠	الغرش المصري

التكيَّة المصريَّة

وقبالة الحرم من الجهة القبليَّة تكيَّة مصريَّة بجانب الدَّائرة الحميديَّة متينة البناء بناها المرحوم محمَّد علي باشا والي مصر للخيرات وبها ناظر ومستخدمون من مصر وبها أماكن ومخازن وفي دائرها من الداخل أود ومخزن للغلال ولسائر المرتبات التي ترد إليها من مصر كما ذكرنا وبها طاحون ومطبخ متسع تطبخ فيه الشوربة صباحًا فقط وتفرق في كل يوم على نحو أربعمائة فأكثر من الفقراء مع الخبز وهي دور أرضي فقط وليس بها حواصل تحت الأرض تحفظ الغلال من التسويس وإتلافها كالحاصل سنويًّا عند اشتداد الحر.

الحكام

وأما حكام مكَّة فأميرها سنة ١٢٩٧ كان الشَّريف عبد المطلب ثم توفي سنة ١٢٩٩، وفي سنة ١٣٠٢ عند عودتي ثانيًا وجدت دولتلو سيادتلو الشَّريف عون الرفيق باشا أمير مكَّة وكل من تولى من الأشراف يدعى بسيد الجميع وله اليد العليا على العربان والولاة من قنفدة اليمن إلى الحجاز ومن الشَّرق إلى المدينة وصار الحجاز تابعًا للدولة العثمانية سنة ٩٢٣ من بعد دخول السلطان سليم مصر وأطاعه الشَّريف أبو البركات.

ولا بأس بذكر من تولى الإمارة من منذ قرن من الشرفاء ففي سنة ١٢٠٢ الشَّريف غالب بن مساعد، وفي سنة ١٢٢٨ الشَّريف يحيى بن سرور، وفي سنة ١٢٤٢ الشَّريف محمَّد بن عبد المعين بن عون، وفي سنة ١٢٦٧ الشَّريف عبد المطلب بن غالب، وفي سنة ١٢٧٢ الشَّريف محمَّد بن عبد المعين بن عون ثانيًا، وفي سنة ١٢٧٤ الشَّريف عبد الله باشا بن محمَّد بن عون، وفي سنة ١٢٩٧ الشَّريف عبد المطلب بن غالب ثانيًا، وفي سنة ١٢٩٩ الشَّريف عون الرفيق باشا بن محمَّد بن عون الموجود الآن.

والشرفاء هم من ذريَّة سيِّدنا الحسن بن علي كرم الله وجهه لكونه بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، وأما ذريَّة سيِّدنا الحسين رضي الله عنه فيقال لهم: السادة وسيِّدنا الحسن والحسين شرفاء بدون شك.

وعلى العساكر والضباط والٍ بصفة مشير وكان وقتئذٍ دولة عثمان باشا نوري الذي من مآثره إنشاء ديوان الحميديَّة بجوار التكيَّة المصريَّة بمكَّة لمتوظفي الحكومة

الشاهانيَّة وجدد حنفيات للوضوء بمحلات قريبة من الحرم وأحواضًا وصهاريج من الحارات للأهالي تأتي إليها المياه من قناة عين زبيدة، وأنشأ عين رغامه بجدَّة، وهي من أكبر المآثر للحجاج وأهل البلد وبنى سور ينبع البحر لمنع تعدي العربان على البلد وجملة تنظيمات وبرفقته واحدلو باشا وعلى العساكر المتوظفين من الدولة بمكَّة وجدَّة والطائف والمدينة وال آخر برتبة لوا باشا له وكيل برتبة ميرالاي هو ضابط البلد وهناك جملة متوظفين من أهل الدولة وكلهم تابع لها وبمكَّة طابوران من العساكر البيادة كل طابور ٨٠٠ نفر وبالطائف نصف طابور وكذا بجدَّة وكذا برابغ وكذا بينبع فالمجموع أربعة طوابير وبمكَّة أيضًا ثلاثة طوابير ضبطيَّة جندرمة سواري وواحد بيادة موزعين على الجهات و(بالمدينة) ثلاثة طوابير نظاميَّة وطابور سواري وطابور بياده ضبطيَّة، وبالحجاز آلاي طوبجي محلي وآلاي طوبجي جبلي وستة مراكب حربيَّة نصف فيلو بالبحر الأحمر ثلاثة منها دوريَّة من باب المندب إلى ينبع البحر والأخريان إحداهما بباب المندب والثَّانية بالحديدة والثَّالثة بجدَّة ومن أعيان البلد من هو متوظف من أعضاء مجلس الأحكام وغيره.

ولاية الحجاز

واعلم أن ولاية الحجاز واقعة بين نجد وتهامة وهي من الأقاليم الحارة بآسيا ما عدا الطائف وجبل قرا لاعتدال الهواء محدودة من الجنوب ببلاد عسير ومن الشَّرق بصحراء نجد ومن الشمال بسورية ومن الغرب بالبحر الأحمر وأن مساحتها بالتقريب (١١٩٣٥١٧) كيلو متر مربع وأكبر جبل بها جبل (قرا) ارتفاعه عن سطح البحر بألفي متر وببعض محلاته يدوم الشتاء صيفًا يبتدئ من عدن وبتسلسل إلى الطور وبجنوب مكَّة جبل (أيوب) وجبل (سبوغ) وبالمدينة جبل (فقرة) وجبل (أُحد) وجبل (جهينة) كلها من الشوامخ ومجموع سكانها من الحواضر والبوادي

بالتخمين (٨٠٠٠٠٠) نفس جميعهم مسلمون وتابعون للدولة العثمانية وليس بها زروع ولا حشائش بكثرة لقلة الأمطار وكثرة الأحجار والرمال والصحاري وربما يوجد بالجبال وبعض وديان (تهامة) الصالحة أرضها للزراعة مع جريان المياه بها محصولات وأثمار متنوعة ومعيشة العربان من زراعة الذرة والدخن وعدد ما بين مكَّة والمدينة من الجمال ينيف عن (١٥٠٠٠) جمل ويجد في أوديتها وفي جبل كبكب من الوحوش الثعالب والفهود وأما القرود فكثيرة بجبل قرا.

واعلم أن مجموع وارداتها مبلغ بارة ٢٠ و(١٥٣٣٩٣٤) قرش منها بارة ٣٠ و(٢٥٦٦٠٧) قرش احتسابية (٤٠٠٠٠) قرش قنطاريَّة (٨٠٠٠٠) قرش أسماك بارة ٣٠ و(٩٩٧٧٨٩) قرش تخريجية (١٣٧٤٤٥) قرش زكوات أي: عشور (٢٢٠٩٢) قرش واردات متنوعة، وأما المنصرفات فهي بارة ٨ و (٢٥٥١٨٩٠٦) قرش منها معاشات ومرتبات أشراف وسادات ومحتاجين ومجاورين بمكَّة والمدينة وجدَّة، بارة ٢٧ و(٦٠٥٩٥٦٦) قرش ومنها منصرفات للمحملين والعربان وثمن ذخائر وبعض مصروفات محليَّة بارة ٢٩ و(٤٩٨٧٧٠٤) قرش ومنصرفات للعساكر والبحريَّة والضبطيَّة الشاهانيَّة، بارة ٣٢ و(١٤٤٧١٦٣٤) قرش فبعد خصم المنصرف من الوارد يزيد المنصرف مبلغ بارة ٢٨ و(٢٣٩٨٤٩٧١) قرش تدفعه الدولة من خزينتها.

سكان ولاية الحجاز

واعلم أن سكان هذه الولاية قبائل متنوعة منها قبيلة الصميدات التي عددها ٩٠٠ وشيخ مشايخها حذيفة، ومنها قبيلة رهقان بالبعد عن المدينة بثلاثين ساعة وقبيلة صحارى عددها ٣٠٠٠ نفس وشيخها إبراهيم بن مطلق ومنها قبيلة فضيلة

عددها ٩٠٠ نفس وشيخها فهد وبالجديدة من الدرب السلطاني قبيلة بني عمر عددها ٧٠٠ نفس وشيخهم عوض بن درويش وفي بئر الرَّاحة قبيلة رحلة عددها ٥٠٠ نفس من شعب بني عمر بيوتهم الخيش وليس سوى الجمال لهم عيش، وقبيلة الأحامدة التي عددها ٦٠٠ نفس منازلهم بكل من الصفراء والحمراء وتعيشهم من الجمال أيضًا وفي بحري المدينة قبيلة تميم عددها ٧٠٠ نفس وبجوارها قبيلة السعادين عددها ٦٠٠ نفس، وفي بدر قبيلة صبح عددها ١٤٠٠ نفس وأغلبهم جمالة وقبيلة الحوازم في كل من الصفراء والحمراء والجديدة عددها ٢٥٠٠ نفس تحمل على جمالهم المهمات الميريَّة والتجارية من ينبع إلى المدينة وإلى سائر الجهات وعامة من ذكرنا من هذه القبائل تسمَّى بني حرب وهم بمنزلة قبيلة واحدة ما عدا الحوازم ولجميعهم مرتبات وعوائد من الدولة العليَّة ومصر تصل إليهم في كل عام مع المحملين (ومن قبائل الطَّريق الفرعي) بنو عوف والصواعد الذين شيخهم محمَّد بن الربيج وعددهم ٣٥٠٠ نفس وهم في الفلاة بين الريان والمدينة بيوتهم الخيش وبنو عمر عددهم ٢٥٠٠ نفس نصفهم مقيم بالشَّرق في بيوت من الخيش والنصف الآخر نازلون بكل من الريان والمضيق وفيما بين أبي ضباع ورابغ من الأراضي وقبيلة بلاديَّة عددها ١٣٠٠ نفس بالقرب من منازل بني عمر وفيم بين غائر ورابغ قبيلة لهيبة في بيوت من الخيش عددهم ١٠٠٠ نفس وقبيلة زبيد عددها ٧٠٠٠ نفس منازلها من رابغ إلى الأماكن القريبة من مكَّة وجدَّة كخليص وعسفان وقضيمة ووادِيَّة وهؤلاء بعضهم في بيوت الخيش وبعضهم يسكنون البلاد وهناك قبائل غير هؤلاء مشايخهم بمنزلة عمد ليس لهم أخذ ولا عطاء مع الدولة بحسب مواقعهم مع أن جميعهم مطيعون لها.

طبائع القبائل

وأما من حيث طبائع ومعايش ومذاهب هذه القبائل فمنهم من يسكنون بيوتًا كالعشش يسمونها بلدة ولهم زروع ونخيل ومنهم من يسكنون بيوتًا من الخيش ويتخذون الجمال والغنم للتعيش منها (ومن عرب الطَّريق الشَّرقي) قبيلة أبي ضباع المسمَّاة بالزبود [1] أي: الزيديَّة نسبة إلى زيد بن علي زين العابدين رضوان الله عليه وعلى آله الطاهرين لادعائهم كذبًا أنهم على مذهبه وإنما ابتدعوا مذهبًا خارجًا عن مذاهب أهل السنَّة يُقال: إنهم يبيحون الجمع بين الأختين ولا يوجبون على المطلقة عدة ويقتلون الصيد في الحرم ويصلون الصبح أداء بعد شروع الشَّمس ولا يصلون المغرب إلا قريبًا من العشاء ويبغضون كثيرًا من الصحابة كالأعجام ويضعون في أكفان موتاهم خبزًا معه إناء فيه ماء وقضيبين من الخيزران أو من جريد النخل ولهم نخيل وبساتين وأغلبهم قطاع الطَّريق والأمر عندهم بالشورى فمتى استحسنت عقولهم شيئًا عملوا به ولا يصاهرهم أحد من سائر القبائل لخروجهم عن مذاهب أهل السنَّة والجماعة.

وأما غير هؤلاء من بقيَّة القبائل فعلى مذاهب أهل السنَّة ويصاهر بعضهم بعضًا برضى والد الزوجة أو غيره من أوليائها عند عدم وجوده بدون استشارة المتزوجة في ذلك وبدون أن تخرج من بيتها ولا يشربون الخمر وإنما يشرب الرجل منهم قهوة البن والدخان دون الإناث ولهم مساجد وفقهاء يُعَلمون أولادهم الكتابة وقراءة القرآن العظيم ولا يجتمعون للذكر وطريقتهم سنوسيَّةجهريَّة ويعملون في أفراحهم الولائم ولا تختلط الرجال منهم بالنساء ويزفون عرائسهم بالجواري السود ليلًا إلى

(١) ما قبل عن «الزبود» لا يخلو من المبالغة، لأن المعلوم أن الرافضة هم الذين يزاولون هذه الأعمال.

بيت الزوج من غير أن يبصرها الرجال وهذه هي العادة عند الأحامدة وما عداهم من القبائل لا حرج عندهم في اختلاط النساء بالرجال إلا أن جميعهم يذبحون كلًّا من الزاني والزانيَّة ولا تخرج نساؤهم لتشييع الجنائز ويتصدقون على قدر حالهم ويصنعون الولائم في الأعراس مع الطبول والبرجاس وغذاؤهم التمر مع السمن واللحم مع العسل وخبزهم من الحنطة مع القلة وذبائحهم من الجمال والأغنام ولا يوجد عندهم بقر ولا جاموس ولا دجاج رومي بل قليل من الدجاج البلدي ولا يأكلون الخضروات لاعتقادهم أنها تسبب رخاوة الأجسام ومتى تشاجر أحد من قبيلة ولو طفلًا مع أحد من قبيلة أخرى واستغاث أحدهما بقبيلته قامت الحرب بين القبيلتين بدون استشارة رئيس ولا ينكفون عن ذلك إلا مدة اللَّيل ومتى جاء النَّهار عادوا إلى ما كانوا فيه ما لم تتوسط كبارهم في إطفاء الفتنة ويصلحوا بينهم.

وفي يوم الاثنين ٥ ذي الحجَّة جرى صرف مرتبات التكيَّة المصريَّة وبلغت الحرارة في وقت الظهر ٣٧ درجة وقرب العصر توجَّهت إلى الوالي لقضاء بعض شئون متعلقة بالوظيفة فرأيت اثنين من حجاج الأتراك الواردين من طريق المدينة يشكون من الجمالة فإنهم أتوا بهما مع الواردين من المدينة لأداء الحج ولما وصلوا بهم إلى ما بين رابغ ومكَّة انفردوا بهما وضربوهما وسلبوهما وتركوهما عاريين حافيين وشجوا رأس أحدهما فما وصلا إلى مكَّة إلا بعد كل مشقة ولما عرضا حالهما على سعادة الوالي تأسف عليهما ورفق بهما ووعدهما بالنظر في أمرهما بعد النزول من عرفات ولم أعلم بعد ذلك ما تم في أمرهما لأن أغلب حجاج القوافل توجهوا في هذا اليوم إلى عرفات، وبعد خروجي من عند سعادته توجَّهت إلى منزل أحد الحكماء المسمى عبد الغفار أفندي الطبيب لأن الحكماء قليلون بمكَّة والمشهورون هم من الهنود وهذا يشتغل بالطب والفطوغرافيا وحضر معي إلى مصر وتعلم صناعة الأسنان من الدكتور فولر الشهير وأكثر شهرته بمكَّة استخراج الروائح العطريَّة ثم

استحوذ أيضًا على إذن من الشَّريف بأن يكون من جملة المطوفين وبعد جلوسي عنده برهة من الزمان أتى عبد كبير يريد المداواة من صداع مزمن اعتراه مدة مديدة وأرمد عينه فالحكيم استصوب له الكيَّ على الصدغين فوضع سيخًا رفيعًا من حديد معوج الطَّرف المعوج وحلق صدغي العبد وعلم على المحل اللازم كيه بالحبر عمودًا على العرق بعيدًا عن الأذن بقيراط ثم أخذ السيخ محميًّا ووضعه على المحل المؤشر عليه بالحبر حتى طش وتركه قدر ثانيتين ورفعه وحماه ثانيًا وفعل في الصدغ الآخر كذلك ثم وضع على الكي ملحًا ناعمًا وقام العبد بدون أن يتأوَّه وتوجه من حيث أتى.

وفي ثاني يوم أثناء صرف المرتبات جاءت امرأة اسمها مسعودة كان لها زوج من عساكر الباشبوزوق فتوفي ورتب لها ولابنتها منه معاش بالروزنامة، حجت في العام الماضي ثم توجَّهت للزيارة فسلبها الأعراب في طريق المدينة فعادت إلى مكَّة وأقامت بها وصرف لها مرتبها بالروزنامة لكن مع استنزال فرق المعاملة بين مكَّة ومصر أعني: أنهم صرفوا لها الريال الأبوطاقة زائدًا عن قيمته بمصر ثلاثة غروش حيث حسبوه بعشرين بدلًا من سبعة عشر بذاك الوقت ولا حق للماليَّة ولا للروزنامة في ذلك فإن مرتب المعاش مبلغ معين لا ينقص ولا يزيد باختلاف البلاد والمرتب لهذه المرأة سنويًّا ١٩٦٩ قرشا فكيف يصرف لها بمكَّة ١٤٥٧ قرشًا وينقص معاشها ٥١٢ قرشًا وهو مبلغ جسيم تستعين به مع بنتها على حالها وهما فقيرتان جدًّا ومعلوم أن مرتب المعاش كالماهيات وحيث إن ماهيات المستخدمين بالتكيَّة تصرف على ما هو الجاري بمصر لا بمكَّة فمن العدالة صرف معاشات زوجات المتوفين بالخدمة على ذلك أيضًا مع أن هناك من الناس من يعامل بذلك حتى يزيد شكرهن ودعاؤهن لأولياء الأمر.

صرف المرتبات

وكيفيَّة صرف المرتبات بالأراضي الحجازيَّة مثالها أن أولاد الشَّريف هاشم مربوط لهم من الروزنامة عن كل عام مبلغ ١٥٧٩ قرشًا وإنما يصرف لهم بمكَّة ١٣٤٠ قرشًا عملة صاغ في مقابلة المبلغ المربوط وذلك على حسب قيمة عملة مكَّة ويتوفر لخزينة الميري ٢٣٩٢٠ قرشا وأن المربوط لسعادة أمير مكَّة عن مرتب الوظيفة والمعاش وثمن كساوي ٦٤٩ جنيهًا أفرنكيًّا ومرتبات المستخدمين بالمحمل فأمير الحاج استولى مرتباته بالتمام من عشرين جملًا وعلائفهم وصرف له قبل قيامه من مصر ٥٠٠ جنيه مصري قيمة السَّفريَّة والماهيَّة مدة السَّفر ومرتب أمين الصرة ستة جمال بدلًا عن أحد عشر في السنين الماضية و٧٥ جنيهًا إنعاميَّة خلاف الماهيَّة والتعيينات وصار حجز الترحيلة التي كانت تعطى لكل من السقائين والفراشين والضويَّة والعكامة في كل عام عند سفرهم إلى الحج علاوة على مرتباتهم فإنه كان عدد الفراشين ثمانية يصرف لهم مبلغ ٩٨٠ قرشًا وكانت الضويَّة عشرة وكان يصرف لهم ٩٠٥ قرش وكان السقاءون سبعة والترحيلة التي كانت تصرف لهم ٨٥٠ قرشًا والعكامة ثمانية والترحيلة ١٠٤٠ قرشًا فطلب رؤساء كل من السقائين والفراشين في هذا العام السَّفر مع المحمل بالتعيينات فقط رغبة في الحج ووفروا الترحيلة لجانب الميري وفضلًا عن ذلك تعهد رئيس السقائين بأن القرب التي تلزم للصرة تكون من طرفه وقبل ذلك من الديوان ولم يتذكر ما يترتب عليه من التعطيل والضرر والتعب الكلي للمتوظفين في الطَّريق من توفير نحو عشرين جنيهًا ليست شيئًا بالنسبة للمصروفات الجسيمة الجاري صرفها وأما العكامة والضويَّة فما طعن فيهما أحدج كغيرهما ليتم تعطيل أداء الوظائف الذي كان جاريًا من القديم وقد شاهدنا الإهمال مرارًا في الطَّريق من السقائين والفراشين بسبب هذا الوفر.

موكب الشَّريف

وفي يوم الأربعاء ٧ ذي الحجَّة السَّاعة ٢ توجه سعادة شريف مكَّة في موكبه لملاقاة الحاج الشامي وكان قد وصل إلى مكَّة في النصف من ليلة الأربعاء وهذا الموكب عبارة عن عدة من الخيالة والقرابة تتقدم لتوسيع الطَّريق تعقبها جماعة من الهجانة ثم ٢٤ حصانًا جوادًا ويسمونها الجنائب عليها مراشح من الفضة تقودها السواس ثم أربعة من الجاوشيَّة السواري عليهم سراويل بيض وعناتر حمر وبأيديهم عصي مركب عليها فضة وفيها جلاجل من الفضة ثم عربان قرابة حربيَّة نحو ٢٠٠ عليهم قمصان طوال وبأوساطهم مناطق فيها أسلحتهم وعلى رءوسهم قلانس من الكوفيات وبأيديهم البيارق يغنون بمدح الشَّريف هذه عادتهم على الدوام ثم عبيد قرابة نحو خمسين وبعدهم سعادة الشَّريف راكبًا جواده وعليه فرجيَّة مزركشة يتبعه خاصته راكبين خيولهم بيد أحدهم مظلة مقصبة وبيد آخر البيرق وثمانية من الضباط البيكباشيَّة ثم خمسة عشر من الأشراف ثم عربة الشَّريف يتبعها الهجانة الحربيَّة ثم الطبل والمزمار وبهذا ينتهي الموكب.

ثم بعد نصف ساعة مرَّ موكب الوالي أيضًا وهو مكون من نحو خمسين سواريًّا أمامهم طبول الدالاتية ثم عربة سعادة الوالي وكان على يساره سعادة الباشا قومندان العساكر يتبعه ثمانية من السواري أتباعه.

وفي السَّاعة ٣ مرَّ ركب المدينة مكونًا من عدة من الهجانة ومن ركاب الحمير يغنون بمدح مكَّة وبيت الله وأمامهم أناس يطلقون البارود تنبيهًا على الموكب، ثم بعد برهة رجع الشَّريف من أمام التكيَّة المصريَّة متوجهًا إلى منزله ثم عاد الوالي أيضًا بعد برهة وذلك بعد توجههم إلى خيمة أمير الحاج المصري أيضًا وتهنئتهم له بالحضور، وبلغت الحرارة وقت الظهر ٣٧ درجة.

وبعد أن صلى الإمام ظهر هذا اليوم الذي هو سابع ذي الحجَّة سنة ١٣٠٢ بالحرم المكي صعد المنبر فخطب وكان إنسان آخر بأسفل منه يبلغ وبعد انتهاء الخطبة ألبس خلعة من طرف الشَّريف وأخرى من الوالي وشالًا من الشَّيخ الشيبي ومن العجائب أن رخام المطاف صار حارًّا جدًّا من شدة حرارة الشَّمس بحيث لا يمكنني أن أضع قدمي عليه ثانيتين مع أن أغلب الحجَّاج كانوا يمشون عليه بغير مبالاة رغبة في تأدية الطواف وعند إقامة الصَّلاة وقفوا عليه حفاة والشَّمس ساطعة على رءوسهم وصلوا بها كأنهم واقفون على أبسطة ومظللون بسقف حتى انتهت الصَّلاة ومن ابتداء الصَّلاة إلى قرب انتهائها كان الازدحام على الحجر الأسود لأجل تقبيله لا يوصف فمن الناس من كان يدفع من حوله بالعنف بل وبالضرب وإن كان حرامًا ومنهم من يصعد على أعناق المزدحمين ليقبله ولا يبالون بما ينالهم من الأذى والمشقة وكانت الأغوات تجتهد في منعهم عند إقامة الصَّلاة فلا يمكنهم لا بالزجر ولا بالضرب وقد كنت إذ ذاك واقفًا بجانب سعادة الوالي لأداء صلاة الظهر واستماع الخطبة في المحل المعد لشيخ المؤذنين فوق بئر زمزم ويدعى بمقام (الشافعيَّة).

الذهاب إلى عرفة

وفي يوم الخميس ٨ منه س ١ ق ٤٥ وكب المحمل المصري من محل (الجرول) ومرَّ بالزاهر ثم بالشَّيخ محمود ودخل مكَّة من باب العمرة ومرَّ أمام التكيَّة المصريَّة ثم من وسط المسعى إلى القشاشيَّة وسوق اللَّيل وبيت الإمارة إلى أن خرج من مكَّة إلى المعلاة مشرقًا إلى البياضيَّة مارًّا على (جبل النور) إلى منى ونزل في آخرها س ٤ ونصف بجوار الخيمة والمعدة لحلول سعادة الشَّريف عند نزوله من عرفات و(منى) بلدة مستطيلة يقطعها الرَّكب في ثمان عشرة دقيقة بها أكثر من مائتي منزل لا تؤجر

إلا في أيام العيد وهي منحصرة بين جبلين يفصلها شارع عرضه تارة عشرة أمتار وتارة عشرون مترًا تارة ثلاثون على جانبيه دكاكين مخازن، وهناك شارع آخر مبتدئ من وسط هذا الشارع وممتد على اليسار إلى آخر البلد وهذه البلدة لا تسكن إلا في أيام الحج وسميت (منى) لأن إبراهيم عليه السَّلام تمنى هناك أن يجعل الله مكان ابنه كبشًا يأمره بذبحه فدية له، وخارج منى مما يلي عرفات على اليمين جامع كان عليه السَّلام يجلس فيه مكان القبة، وهناك أنزلت عليه سورة المرسلات وهذا الجامع بني في أيام خلافة عبد الله بن الزبير إحياءً لآثار رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو المسمى بمسجد (الخيف) أعني: حضيض الجبل وعلى يسار الداخل في منى ركن مبنى تزعم العامة أنه مكان (إبليس الكبير) ويعبر عنه في كتب الشرع (بجمرة العقبة) يرجمونه بعد النزول من عرفات ثم بعده بنحو مائة وخمسين مترًا بناء آخر على اليسار تزعم العامة أنه إبليس الثَّاني وهو (الجمرة الثَّانية) وبعد مائة وخمسين مترًا في وسط الطَّريق حوض مستدير به بناء مربع كالعمود تزعم العامة أيضًا أنه إبليس الثَّالث وهو (الجمرة الثَّالثة) وبعد نصف ساعة من وصولنا لمنى أتى المحمل الشامي ونزل بالقرب منا أمام مسجد الخيف.

عرفات

وفي س ٥ سار، وفي س ٥ ق ٥٥ وصل إلى (المزدلفة) وهي أرض متسعة تحتوي على محل به جداران على جانبي الطَّريق المسافة بينهما ستون مترًا وارتفاعهما أربعة أمتار عرض الواحد منهما ثلاثة أمتار ويسمَّى هذا المحل (بالمشعر الحرام) ومنه تؤخذ الحصى لرمي الجمرات عند العودة ثم في س ٧ وصل إلى (العلمين) وهما بناآن (بناءان) أصغر من الأولين المسافة بينهما مائة متر يفصلان بين أرض مكَّة أي: حرمها وعرفات، وفي س ٧ ق ٤٥ وصل إلى (عرفات) وهي بقعة سطحها مستوٍ

اتساعها واحد كيلومتر مربع محاطة بالجبال تنصب فيها خيام الحجَّاج في غربيها جامع كبير يسمَّى بجامع (نمرة) وبشرقيها بالقرب من الجبال جبل صغير من زلط منفرد على حدته يسمَّى (جبل الرحمة) وعند العامة (جبل عرفات) يقال: إن آدم وحواء تعارفا به وقيل: لأن جبريل قال لإبراهيم عليهما السَّلام هناك: اعترف بذنبك واعرف مناسكك؛ فلذلك سميت عرفة ولا يتم للحجاج الوقف إلا بها وبه تنزل الرحمة على الحجَّاج وارتفاع الجبل نحو ثلاثين مترًا وطوله قريب من ثلاثمائة متر ويصعد إليه على مدرج من الصخر كالسلم وفي وسط الصعود مكان مستوٍ طوله عشرة أمتار في خمسة عشر مترًا به مصلى به قبلة يقال: إن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم صلَّى فيه والمحراب منحرف نحو ٢٠ درجة من الغرب للشمال وأعلى هذا الجبل سطح مستوٍ مبلط بالحرج مربع في نحو عشرين مترًا وفي وسطه مصطبة طولها سبعة أمتار في سبعة ارتفاعها متر ونصف وفي ركنها الغربي عمود مربع ارتفاعه أربعة أمتار في عرض اثنين يرى من أسفل الجبل كمنار للطريق وبالجانب الغربي من سطح الجبل محراب كالذين بالمصلى وبأسفل الجبل قناة (عين زبيدة) مبنيَّة ومحيطة بثلاث من جهاته ولها فتحات تملأ منها أحواض بجانبها لشرب الحجَّاج، وقد اجتمع بعرفات عالم كثير من الحجَّاج نحو مائة وخمسين ألفًا بل أزيد ناصبين خيامهم ومعهم دوابهم وأمتعتهم وقد تيسر لي أخذ رسم عرفات بالفطوغرافيا وكانت الحرارة ٤٢ درجة بعد الزَّوال وانخفضت في المساء إلى ٣٢ درجة.

وفي يوم الجمعة ٩ ذي الحجَّة سنة ١٢٩٧ كانت الحرارة صباحًا ٣١ درجة وبعد الزَّوال ٤٢ درجة وبعد صلاة العصر السَّاعة العاشرة وكب المحملان المصري وعن يسار الشامي وأميراهما أمامهما وحولهما العساكر حتى أتيا إلى أسفل (جبل الرحمة) في مكان مرتفع قليلًا عن سطح الأرض ومعد لهما بأسفله مصطبة مرتفعة في ثلث الجبل فوقها الخطيب راكب على جمل وهو قاضي مكَّة محاط ببلوك من العساكر يحفظونه من

ازدحام الحجَّاج المجاورة له ولمنعهم من القرب منه ومسه على سبيل التبرك، ويقرأ دعاء الحزب الأكبر ويلبي وبجانبه بيرق أحمر لونه طوبي وبجانبه مبلغ مصري يشير بالمنديل للقريب والبعيد ممن حوله ومن الواقفين أمام خيامهم وللحاضرين بعرفة ليلبوا أيضًا (والمرأة لا ترفع صوتها بالتلبية لما فيه من الفتنة) ويقولون: (لبيك اللَّهمَّ لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وكلما أشار بالمنديل لبى الحاضرون مع البكاء والتضرع والنحيب كيوم العرض بالتقريب وهم في غاية الازدحام عراة الرءوس حفاة الأقدام ليس عليهم سوى الإحرام خاشعون خاضعون قاصدون باب كريم غفار وعدهم بغفرانه وكرمه على لسان نبيه المختار صلَّى الله عليه وسلَّم ما دام اللَّيل والنَّهار فيا له من يوم تعجز عن وصفه رواة الأخبار.

وما أظرف ما قاله ابن هانئ المشهور بأبي نواس في التلبية:

إلهنا ما أعدلك ❊ مليك كل من ملك لبيك قد لبيت لك ❊ لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك ❊ ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك ❊ لولاك يا رب هلك لبيك إن الحمد لك ❊ والملك لا شريك لك واللَّيل لما أن حلك ❊ والسابحات في الفلك على مجاري المنسلك ❊ كل نبي وملك وكل من أهل لك ❊ سبح أو لبى فلك

يا مخطئًا ما أغفلك ❊ عَجِّل وبادر أجلك اختم بخير عملك.

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك ❊ والحمد والنعمة لك

النزول بـ عرفة

وبعد السَّاعة الثَّانية عشرة عقب غروب الشَّمس أطلق ساروخ ليعلم الحاضرون أن المناجاة بعرفات قد تمت وربحت كل نفس بقدر ما اهتمت ثم صفت فرسان وتبعة المحملين على الطَّرفين ولويت أعنة الجمال للنزول إلى منى وفي وسطهم المحملان متجاوران المصري يمينًا والشامي يسارًا وأمام كل منهما أميره وأمينه وسارا على هذا الشَّكل في موكب يسر الناظرين لم يشاهد مثله فيما سبق من السنين تميل المحامل تبخترًا كالعرائس المجلوة والصَّلاة من هذا الجم الغفير على خير البريَّة متلوة والمدافع والسواريخ تضرب في كل مسافة قريبة والطبول والمزامير والموسيقى تطرب بكل نغمة غريبة وجميع الحجَّاج من ركاب الخيول والإبل والتخترونات والشقادف وغيرها والمشاة عن يمين وشمال وخلف المحملين سائرون مع الرَّاحة فرحون مستبشرون بدون أن يحصل أدنى خطر لأحد منهم على خلاف ما كان يحصل في السنين الماضيَّة من الهرج وازدحامهم لسير المحملين متفرقين وكل منهما يريد أن يسبق الآخر بدون فائدة فلله الحمد والمنة لم يحصل ذلك في هذا العام ولم يتضرر أحد من الازدحام وقد وصل الرَّكب من جبل (الرحمة) إلى أول (العلمين) في خمس وعشرين دقيقة ومنها إلى الثَّاني كذلك.

المزدلفة

وسار الرَّكب على هذه الصفة إلى أن وصل (المزدلفة) س ٢ ق ٢٥ ليلًا وبعد إطلاق مدافع الوصول نزل كل من المحملين في محله المختص به كالأصول والمشعر يسمَّى مزدلفة كما ذكرنا لأن جبريل عليه السَّلام قال لإبراهيم عليه السَّلام بعرفات:

يا إبراهيم ازدلف إلى المشعر أي: اقترب.

وبتنا جميعًا في غير خيام عطاشًا من إهمال الفراشين والسقائين الموظفين للصرة ومن كثرة ازدحام الحجَّاج ما أمكننا الحصول عليهم، وفي هذه اللَّيلة بالمزدلفة كل شخص يلتقط من الأرض تسعًا وأربعين حصاة من الزلط بقدر الحمصة أو الفولة لرمي الجمرات ويغسلها سبعًا ويحفظها عنده وقد ذكر أن سيِّدنا إبراهيم الخليل لما مرَّ من هذا الوادي مع ولده إسماعيل تمثَّل له الشيطان ليمنعه عن قصده ويغويه لمخالفة أمر ربه فأخذ إبراهيم عليه السَّلام الحصى من الأرض ورجمه به وأخزاه، وقد شوهد عند نزول الحجَّاج من عرفة صعود حجاج الأعجام ليقفوا بعرفة يوم العيد.

رمي الجمرات

وفي يوم السَّبت ١٠ ذي الحجَّة سنة ١٢٩٧ وهو يوم العيد الأكبر وكب المحملان بعد مضي ربع ساعة من النَّهار وأتيا إلى قريب من (المشعر الحرام) بجوار سلم في ركن من جدار قد صعد عليه الخطيب وصار يدعو الله ويلبي والحاضرون يلبون جميعًا وعند الشروق بعد مضي خمس وثلاثين دقيقة من السَّاعة الأولى من النَّهار ختم الدعاء واتجهت الأحمال إلى منى، وأما في سنة ١٣٠٢ وكب المحملان مع طلوع الفجر وأتم الخطبة السَّاعة ١١ و ق ٢٥ وسار المحملان واكبين في سيرهما كالأمس إلى أن وصلا إلى (منى) بعد ساعة من السير ونزل الرَّكبان كل من محله المعتاد ثم توجه كل أحد من الحجَّاج إلى العقبة الأولى المشهورة بإبليس الأكبر بآخر منى ورمى (الجمرة الأولى) سبع حصيات من حصى المزدلفة واحدة بعد واحدة مع التكبير ثم عاد إلى مخيمه وحلق (والحرمة لا تحلق ولكن تقصر) وفك إحرامه ولبس ثيابه وتحلى بزخارف الدنيا وضحى أو توجه إلى مكَّة وطاف بالبيت طواف

(الإفاضة) ثم عاد إلى منى فضحَّى وفدى وبلغ ثمن الشاة الواحدة من الغنم من ريال ونصف إلى ثلاث ونصف وقد حصل تأخر من السقائين من إحضار المياه للمتوظفين حتى انتصف النَّهار وذلك لبُعد المياه من جهة ولإهمالهم من جهة أخرى حتى اشترى أغلب الناس مياها وسبب إهمالهم عدم صرف الترحيلة لهم من الروزنامة كما ذكرناه سابقًا.

وفي يوم الأحد ١١ منه السَّاعة ١٢ ونصف كانت الحرارة ٢٣ درجة توجَّهت الأمراء والأمناء إلى خيمة الشَّريف لابسين كساوي التشريفة لتهنئته بالعيد واستماع تلاوة الفرمان المحضر إليه من الآستانة، وقد تُلي بحضور دولة الوالي وقومندان العساكر وعدة من الضباط والأمراء والشرفاء والعلماء وكلهم بملابس التشريفة العساكر وعدة من الضباط والأمراء والشرفاء والعلماء وكلهم بملابس التشريفة والنياشين وبعد قراءة الفرمان والدعاء لمولانا السلطان وضع على ظهر حضرة الشَّريف بنش مزركش منظم باللؤلؤ مشابكه من ألماس من طرف السلطنة وسعادته أمر بخلع أكراك ثمينة القيمة على سعادة الوالي وأمير وأمين الحج الشامي وعلى بعض الموظفين ثم بارك له الحاضرون وشربوا الشربات وانصرفوا شاكرين وتوجه كل من الذوات إلى الآخر في خيمته يهنئه بالعيد على حسب مراتبهم فأولًا أنجال الشَّريف ثم الوالي ثم أرباب الوظائف ثم أمير الحج الشامي ثم أمينه وفي وقت الزَّوال والسَّاعة خمسة أطلقت المدافع من كل جهة وقلَّ الهواء وكانت الحرارة ٣٧ درجة، وبعد الظهر صلى كل حاج ركعتين في مسجد الخيف ثم توجه إلى الجمرة الثَّالثة أي: إبليس الأصغر على اعتقاد العامة ورمى سبع حصيات ثم إلى الثَّانية ورمى سبعًا أيضًا ثم إلى الأولى ورمى سبعة أخرى وعاد إلى محله فكان الرمي من الظهر إلى المغرب وفي السَّاعة السَّابعة بلغت الحرارة ٤٠ درجة مع وجود الهواء ثم توجَّهت إلى مكَّة لأداء الطواف ولم أعد منها إلا عند الغروب لرطوبة الهواء بها نوعًا

وكانت خالية من السكان وكثر فيها الذباب وذلك لتحول البياعين وغيرهم منها إلى منى وفي السَّاعة ١١ حضر والي مكَّة إلى أمير الحاج المصري مهنئًا له بالعيد وبعد العشاء ضربت المدافع والسواريخ من جهة الإمارة والولاية والمصري والشامي وبرد الهواء طول اللَّيل مع أن الحر كان في النَّهار شديدًا وكانت الإقامة يوم العيد وثانيه صعبة لكثرة العفونات والوخامات وصارت لحوم الأضاحي ملقاة على الطرق مع اجتهاد مأموري الصحة في منع ذلك وطبعها للمنشورات وإعدادها عربات لحمل القاذورات أولًا فأولًا لكن لم يتيسر ذلك وإن كن قد عمل خارج منى ببقعة مسجد الخيف مجار لذبح الفداء بجانبها حفائر لإلقاء الدم والذبائح فيها إلا أنه لم يحصل من ذلك إلا القليل جدًّا حتى عند غروب يوم العيد انتشرت رائحة جيف الذبائح من كل ناحية لأن أغلب الناس ذبحوا بالقرب من خيامهم وألقوا ذبائحهم حول خيامهم وتحت أرجل المارين، وفي صبح ثاني العيد ازدادت العفونات من تراكم الرمم ووجودها ملقاة حول الخيام وتحت كل قدم حتى حول خيمة الشَّريف ولولا نزول الحجَّاج إلى مكَّة في ثالث يوم العيد لحصل ضرر كبير ومع هذا حصل من ذلك فتور في الأجسام لما شاهدت ذلك في نفسي ولم أدر أهو من تأثير العفونات أو لعدم الاعتياد على الإحرام ولولا أن الزمن كان معتدلًا لزاد ضعف أغلب الحجَّاج ولو نزل السيل بمنى أيام العيد لحصل بمكَّة وباء شديد من العفونات التي تتحلل من الضحايا.

حكام في مصر

وقد أخذ الحاكم بجدَّة عن كل وارد لها بحرًا من الحجَّاج نصف ريال في مقابلة المصروفات السانيتا وحفر وردم الحفائر بمنى وإزالة العفونات وعلى هذا إذا كان الوارد لها مائة ألف شخص كان مبلغ المتحصل خمسين ألف ريال فضلًا عما خصص

على المواشي كما قيل.

وقد حضر بمكَّة في هذا العام حكيمان برتبة ميرالاي أحدهما حضرة عبد الرَّحمن بك الهراوي أحد خوجات مدرسة الطب بمصر والآخر يدعى أحمد بك الشافعي حكيم جدَّة وهما تابعان للحكومة المصريَّة ليكونا مع الحجَّاج بمنى ويخبرا بما يشاهدان من وباء أو غيره، وبلغ ما صرف عليهما م الصرة نقدًا عشرة آلاف وتسعمائة وأربعة وعشرون غرشًا، وهذا فضلًا عما حضر معهما من الصناديق المملوءة بالأدوية التي صرفت بمعرفتهما وقد تيسر لي رسم مسجد الخيف وبقعة منى في هذا اليوم بالفطوغرافيا.

العودة من منى إلى مكَّة

وفي يوم ١٢ منه س ٥ وربع كانت الحرارة ٣٧ درجة وأطلق مدفع التَّحميل، وفي س ٦ من بعد آذان الظهر سار المحمل المصري واكبًا ودخل في شارع (منى) وعند وصوله إلى الجمرة الثَّالثة رمى كل من الرَّكب سبع حصيات وعند الجمرة التَّالية وهي الوسطى كذلك، ولما وصلوا إلى الأولى رموا السبع الباقية وهي آخر الحصى ثم تقهقروا إلى منى نحو عشر خطوات ثم اتجهوا سائرين إلى مكَّة.

جبل النور

وفي س ٧ ونصف وصل الرَّكب إلى (جبل النور) وهو جبل على يمين السائر إلى مكَّة عليه بناء مربع كالعمود علامة له والجبال من الجانبين شاهقة من الصخر الأزرق، وفي س ٨ وصل إلى مبدأ مكَّة، وفي س ٨ وثلث نزل بباب الحرم المسمى

(بباب النَّبي) وانطوت كسوة المحمل المزركشة ووضعت في الصناديق ووضعت عليه كسوته الخضراء وأدخل في الحرم ووضع على مصطبة بجانب الباب على يمين الداخل وتوجَّهت مع الأمير إلى التكيَّة المصريَّة فما وجدنا فيه أحدًا من مستخدميها، وفي س ١١ ونصف بلغت الحرارة ٣٩ درجة ولم يأتوا إليها إلا قريبًا من العشاء، والتكيَّة خالية من النور والنظافة لإهمال الخدمة في خدماتهم إهمالًا كليًّا وقد بلغني أن رجلين وامرأة حاملًا ماتوا بعد مغرب هذا اليوم في المطاف تحت أرجل الناس من شدة الازدحام وخرجت أمعاؤهم وانتشرت دماؤهم.

العُمرة

وفي ١٤ منه كانت الحرارة صباحًا ٣١ درجة وبعد الظهر بلغت ٣٦ وذلك جميعه داخل مكان بالتكيَّة وبداخل الخيمة أثناء السَّفر وصرفت مرتبات التكيَّة وأعطى لكل مقوم عن كل جمع أربع ريالات من مكَّة إلى عرفات ذهابًا وإيابًا وكان الحجَّاج يتوجهون للإحرام بالعمرة من مكان يسمَّى (التنعيم) في الجهة الغربيَّة الشماليَّة بمسافة ساعة ونصف من مكَّة.

وفي يوم الخميس ١٥ منه توجَّهت إلى العمرة لتأخري عنها بسبب الفتور الذي عرض لجسمي عقب نزولي من منى إلى مكَّة فأحرمت بعد الاغتسال وأتيت الكعبة وطفت طواف العمرة سبعة أشواط ثم سعيت بين الصفا والمروة سبعة أشواط ثم حلقت وتحللت من الإحرام وبذا تم لي الحج والعمرة والمنة لله تعالى وحده وقد جرى بالتكيَّة المصريَّة صرف مرتبات العربان والمشايخ والشرفاء وسائر المرتبات والأمانات المرسلة لبعض الأهالي والمجاورين المقيمين بمكَّة من الصرة المصريَّة واستمر الصرف مدة أربعة أيام.

خيل الشَّريف

وفي ليلة ١٦ منه توجَّهت إلى سعادة الشَّريف فوجدته جالسًا على كرسي بين اثنين من أعيان مكَّة في محل من الدور الثَّاني غير مسقف طوله ١٨ متر وعرضه ستة أمتار وفيه شبابيك مطلة على حوش متسع في وسطه خيول قائمة ليلًا ونهارًا بدون تظليل ولا مداود وفي دائرة أيضًا خويل تحت عروش البواكي غير معتنى بجميعها من حيث الخدمة كما ينبغي وفي نصف السَّاعة الرَّابعة حضرت آلات الطرب أي: الموسيقى بأيدي عشرة أشخاص قد أحضرهم من مصر فوقفوا أمام سعادة الشَّريف حذاء الحائط بحيث كانت المسافة بينه وبينهم أربعة أمتار، ثم أتى الفرايحيَّة وهم من مصر أيضًا عددهم خمسة من الزمارة والطبالة وصار كل من هؤلاء المطربين يلحنون ويزمرون بالنوبة وصار الجليس لا يمكنه سماع كلام جليسه من ارتفاع أصوات هذه الآلات المطربات المزعجات وتضايق المكان بمن حضر فسبحان المعطي الوهاب، وفي نصف السَّاعة الخامسة أمروا جميعًا بالانصراف وراق المجلس للكلام وعاينت في ليلة أخرى بعد العشاء الموسيقاتية والفرايحيَّة والنقرزانيَّة يضربون سويًّا أمام منزل سعادته، وفي اللَّيل التَّالي كانت الحرارة ٢٩ درجة ونصفًا وحصل قبيل العصر رعد ومطر يسير وكان سعادة الشَّريف قد دعاني إلى الغداء معه فأجبت ولم يكن معنا ثالث وعاينت منه غاية الملاطفة والبشاشة والاعتناء وطيب النفس وسمح لي برسم صورته بالفطوغرافيَّة بملابس التشريف.

وحيث إني أديت فريضة الحج بحمد الله فلنذكر قبل التوجه إلى المدينة المنوَّرة والطائف وطريقه ووصفه كما شاهدت ذلك في عام آخر ورسمته.

وهو أنه في شهر شعبان عام ١٣٠٤ حضرت إلى مكَّة بخصوص مأموريَّة غلال الصدقة فوجدت سعادة الشَّريف عون الرفيق باشا وسعادة الوالي صفوت باشا

عازمين على التوجه إلى الطائف في آخر الشَّهر لشدة الحر بمكَّة ودعوني أن أكون برفقتهم.

طريق الطايف

وفي يوم الثُّلاثاء غرة رمضان الموافق ٢٤ مايو سنة ١٨٨٣ قبل الغروب بنصف ساعة خرجنا من مكَّة قاصدين الطائف والحرارة ٣٩ درجة سنتجراد وبلدة الطائف موجودة بالجهة الشَّرقيَّة القبليَّة من مكَّة ولها طريقان مسافة أقصرهما ١٨ ساعة فأتبعنا الطويلة لسهولتها عن الأخرى فسرنا مبحرًا ومشرقًا إلى جبل النور بقدر ٢٠ دقيقة ونزلنا بجوار ساقية وبعد الغروب سرنا وعطفنا يسارًا من بعد جبل النور تاركين منى يمينًا متبعين طريق (السيل) أو (اليمانيَّة) مبحرًا مشرقًا حتى وصلنا إلى بئر (البارود) وبعد الاستراحة برهة سرنا تابعين نصف دائرة مشرقًا وبعد ساعتين من البئر مدخل جبال (السولة) وبعد نصف ساعة من هذا استرحنا ببقعة بين جبال، وفي س ١٠ و ق ٤٥ من ليلة الأربعاء اتجهنا سائرين للشرق في صعود خفيف الانحدار ووصلنا بأعلى الجبل س ١١ ونصف وكان الشَّريف يركب عربته تارة وتحته تارة أو الحصان فأمر برجوع العربة إلى مكَّة لعدم إمكان ركوبها بعد هذا المحل لكثرة الحجارة والصخور وعسر الطَّريق وسرنا في هبوط صعب لكثرة الأحجار إلى محل متسع بين جبال، وفي س ١٢ و ق ٢٠ من الأربعاء وصلنا إلى بقعة متسعة بها مزارع وجنائن محاطة بأسوار بها نخيل وليمون متنوع وبعض فواكه ليست بناضجة وسلسول ماء جار يسمَّى عندهم نهرًا وهذا المكان يسمَّى (وادي اليمانيَّة) فدخل الرَّكب بإحدى الجنائن ونصبت الخيام تحت ظلال الأشجار واسترحنا طول النَّهار وتغدينا ونسينا مشقة السَّفر بتغريد الطيور فمن قمري وشحرور ويمام وزرزور وبلغت الحرارة ٣٧ درجة وبعد الغروب سرنا نحو ساعتين ونصف، ومررنا

(بالسولة)، وفي س ١٢ من اللَّيل نزلنا بمحل متسع به مياه جارية ومكثنا تحت الخيام، وفي يوم الخميس ٣ رمضان السَّاعة ١٠ قمنا وسرنا بين صخور مرتفعة وعقبات صعبة إلى السَّاعة ٣ ونصف من ليلة الجمعة وبتنا بمحل يقال له: (نُبيه) بضم النون أو (كوجك دره) وهناك بئر تسمَّى بئر عابد وكانت الحرارة ٣١ درجة، وفي س ١٠ قمنا وبعد مضي نصف ساعة من يوم الجمعة صعدنا من عقبة محجرة إلى سطح متسع به أشجار واتجهنا القبلي تقريبًا، وفي السَّاعة الثَّانية مررنا (بالجديرة) وفي السَّاعة الرَّابعة (بأم حمض) وفي السَّاعة السَّادسة مررنا بمحل يسمَّى (الجيم).

الطايف

وفي س ٧ و ق ٤٠ وصلنا (الطائف) في صحراء متسعة محاطة بجبال صغيرة غير منتظمة أرضها صالحة للزراعة متركبة من رمل ناعم جدًّا مع طين، ويقال أيضًا للطائف: (وادي العبَّاس) وكانت مسافة الطَّريق على الجمال من مكَّة إلى الطائف ٣٦ ساعة وبلدة الطائف محاطة بسور من لبن داخله ٤٠٠ منزل و٢٠٠ دكان وسلخانتان وحمام وستة جوامع أشهرها جامع سيدي (عبد الله بن عبَّاس) حبر الأمة وابن عم الرَّسول عليه السَّلام ومفسر القرآن رحمه الله وبجواره مقام (الطيب) و(الطاهر) ولدا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبه أيضًا سبعة مساجد ودائرة للحكومة ومنزل للمدير وقشلة للعساكر وقلعة لحبس أهل الجرائم وقد حبس بها مدحت باشا الشهير ورفقاؤه وتوفوا بها وعدد أهاليها من ذكور وإناث نحو ٢٠٠٠ نفس، وبيوتها في أكثر الأشهر خالية من السكان إلا القليل، ولا تعمر إلا في الصيف عند طلوع سكان مكَّة بها هربًا من الحر وكان به في زمن الجاهليَّة صنمان وهما (اللات) و(العزى) كانوا يعبدونهما قبل الإسلام وصار إتلافهما ومحو أثرهما وبجوار الطائف جنائن مثمرة وعيون جارية وقرى مسكونة وكان الطائف أولًا مسكن العمالقة ثم آل

ثمود وأخيرًا بني ثقيف وبالبعد عن السور خارجًا موجود نحو ٢٥ منزلًا بعيدة عن بعضها مختصرة جدًّا كالكشك مركبة من ثلاث محلات أرضيَّة نافذة على بعضها وفوقها دور مثلها محاطة بأشجار داخل أسوار تابعة لأغنياء مكَّة خصوصًا أمير مكَّة والشَّيخ عمر الشيبي لهما منازل مشهورة والهواء مستمر بالطائف تارة في الصباح والأغلب قرب العصر وهو جاف جدًّا والحرارة نهارًا ٢٩ درجة وعند الغروب ٣٠ وليلًا ٢٤ وعند كثرة الهواء لا ينقص ميزان الحرارة إلا قليلًا ويصعب السير خارجًا عن المنزل من قبل الظهر إلى العصر لتسلط حرارة الشَّمس ولو بمظلة لأنه يهب على المار حرارة جافة كحرارة النار مع زهوق وهذا مضر بالأغراب لعدم تعودهم كأهل مكَّة لأن مرور الهواء المحرق يمنع الإحساس بذلك فالجسم ينسلي على نار هينة بدون تألم مع فتور دائم في الجسم وكسل وزهوق في النفس، فلذلك أغلبهم نحفاء الجسم والبنية ولولا شدة حر مكَّة لما طاف طائف حتى أهل السوق يشكون من الحر وقت الظهر لعدم اتساع الشوارع والمنازل مانعة لمرور الهواء ويحلو الجلوس بعد العصر في الجنائن تحت الأشجار وأما أهل الحجاز فجسمهم معتاد على هواء السموم فيجدون هواء الطائف رحمة لهم بالنسبة لحر مكَّة وجنائنها قليلة وأشهرها (الهداء) بالهاء المفتوحة غربي البلد بثلاث ساعت ولانتظام درجة الجو على الدوام تنضج فواكهها على الهينة حتى تبلغ منتهاها مع اللذة بخلاف غيرها من سائر بقاع الحجاز فلذا شبهوا هواء الطائف ببلاد الروم فأما الفاكهة فنعم وأما الهواء فلا ومن فواكهها اللذيذة عنب الجاووش وأنواع الأعناب والخوخ والرمان خصوصًا المليسي والتين العلبي والبرشومي والتوت الشامي والبرقوق والبلح والليمون وأنواع الخضروات وقد دعاني مرارًا حضرة الشَّيخ عمر الشيبي للإفطار بمنزله ورأيت منه ما سرني من حسن خلقه وطيب ملاقاته مع البشاشة والإكرام ومنزله خارج عن السور محاط بجنينة بها أشجار وأزهار وأعناب متنوعة وعين جارية تأتي

من جبل في قناة صناعيَّة إلى حوض كبير والجلوس هناك قرب الغروب يشرح القلوب وقد توفي سنة ١٣٠٦ رحمه الله رحمة واسعة، والسواقي هناك عمقها من ستة أبواع إلى تسعة بحسب الأرض وبالمياه مواد باريتيَّة تمنع رغو الصابون كالواجب سريعة البرودة عند مرور الهواء وقيل: إنها في الشتاء تجمد ولو لم تنزل ثلج وقد وجدت درجة الحرارة بالطائف معادلة لدرجة الحرارة بجدَّة لكن هواء الطائف جاف وهواء جدَّة رطب جدًّا وهي مرتفعة عن البحر بنحو (١٥٤٥) مترًا وعن مكَّة بنحو (١٢٦٦) مترًا وولد بها الحجَّاج الثقفي وجميع عربان الطائف مطيعون لسعادة الشَّريف أمير مكَّة وللحكومة وأغلبهم مقيم بأرض (سفيان) و(ثقيف).

ولبعضهم عوائد وحشيَّة يعتقدونها دينيَّة منها أنهم لا يختنون صبيانهم إلا بعد البلوغ أعني بعد سن خمس عشرة سنة وكيفيَّة الختان عندهم أن يسلخوا جلد المختون من أسفل سرته بعرض بطنه إلى ثلثي فخذيه مع جميع جلد ذكره وأغلبهم يموت من ذلك ويكون المختون قد خطب له زوجة من قبل فتحضر وقت سلخه وتزغرت تشجيعًا له مع ضرب الطبول وهو واقف ثابت يهز خنجرًا بيده ويذكر بأعلى صوته بدون تضجر بل بفرح اسمه وألقابه ونسبه حتى تنتهي العمليَّة وإن تأوَّه كان ذلك عليه عارًا ولا ترضى به مخطوبته وقد ابتدءوا في محو هذه العادة السيئة الذميمة، وأما إناثهم فلا ختان لهن، وكيفيَّة عقد النكاح عند هؤلاء أن أحد أقارب الزوجة يقول لها: زوجتك فلانا فقط بدون أن يحضر فقيه أو يذكر مهر[1]، ونساؤهم لا يسترن عن الرجال، وقد بلغني عن سعادة أحمد فيضي باشا قومندان عموم الحجاز وكان قد سبق له الخدمة في اليمن أنه موجود بالعسير قبائل يتركون بناتهم يختلطن بالرجال [2] حتى يحبلن فيزوجونها لمن حبلت منه وإن لم تحبل تصير معرة

(١) إن الكلام عن عادات أهل الطائف في الزواج لا يسري على الجميع.

(٢) قد يوجد الاختلاط، أما أن تترك البنت حتى تحبل ثم تزوج ممن حبلت منه فهذا غير دقيق، مع

بينهم و(بمسكت) يزوجون الذكور بالذكور ويحجزونهم كالنساء في بيوتهم ويخضبون أيديهم ويكحلون عيونهم ويحففون وجوههم وأذقانهم.

العودة إلى مكَّة من طريق الكرا

ومن بعد إقامتي بالطائف مدة أيام أردت العود إلى مكَّة فوصيت على البغال اللازمة للسَّفر في صباح يوم الخميس ١٧ منه لأني نويت التوجه من طريق (الكرا) الذي لا يصلح له إلا البغال ونبه الوالي على ثلاثة من العساكر ليكونوا برفقتي إلى مكَّة وبعد الظهر ودَّعت سعادة الشَّريف والوالي وفي العصر حضرت البغال ووضعوا عليها الأحمال وفي السَّاعة العاشرة قمت من الطائف واتبعنا طريق (الكرا) ما بين الشمال والغرب، وبعد ربع ساعة دخلنا بين جبال ومررنا بجملة محاجر ثم بأرض مرملة بين الجبال، وفي س ١٠ و ق ٥٥ صعدنا من محجر بين جبال حجريَّة صماء ثم هبطنا إلى طريق مستوٍ يسمَّى (بالحميرات) أو الجبال الحمر، وفي س ١٢ و ق ٥ صعدنا من محجر ثم هبطنا ثم صعدنا فوق تلال متعددة وبعد عشر دقائق اتجه الطَّريق للغرب وبعد سبع دقائق هبطنا وبآخره اتساع نزلنا بعد بجوار بئر يسمَّى (بئر العسكر) عذب المياه حتى صلينا المغرب، وفي س ١٢ ونصف سرنا وبعد خمس دقائق مررنا بمحجر صعب وخيران وبعد عشر دقائق مررنا بجنائن وبيوت بوادي (محرم)، وفي س ٢ و ق ١٠ نفذنا من عقبة صعبة الصعود لكثرة أحجارها وارتفاعها بحيث لا يمكن أن يمر منها إلا فرد فرد ومرور التختروان من هذا الطَّريق غير ممكن وبعد صخور وصعود وكثرة انعطاف إلى س ٣ و ق ١٠ وصلنا (الهدا) بنى صخر وهو أعلى الجبل وهناك بيوت وجنائن والفواكه تحلو وتحسن في هذه الجهة أكثر من

استبعاد أن يحصل هذا جملة وتفصيلا.

غيرها لاعتدال هوائها وارتفاعها عن سطح البحر بنحو (١٧٥٨) مترًا وبتنا في محل متسع مفروش بالأبسطة، وفي س ٩ ونصف ليلًا ركبنا وسرنا وعد خمس دقائق مررنا بدرب الجمال على اليمين وتركناه لكونه مختصًّا بسير الجمال وبعد ثلاث دقائق ابتدأ النزول من الجبل من درب ضيق صناعي غير منتظم كثير الانعطاف، وفي س ٩ و ق ٤٥ مررنا بعين ماء جارية من الجبل تصب في حوض مبني وتندفق منه إلى الصخور ويقال: إن هذا الماء كثير الهضم جدًّا وكان نزول هذه البغال من هذه البقعة المعتادة حاملة العفش بأصحابها من الغرائب لصعوبة انحدارها ولولا مهارة البغال وصناعتهم العجيبة في التَّحميل وربط العفش بحيث إن الراكب يستريح عليه للغاية ولا يخاف من تزحزح الأربطة عند صعود البغل وهبوطه لحصل خطر عظيم للمسافر، وأما الخيل والحمير فإنها لا تركب لشدة الصعود والانحدار وكثرة الأحجار وانعطافات كسير الثعبان والتلغراف الموصل من مكَّة إلى الطائف مار من هذا الطَّريق، وفي س ١١ مررنا على ماء جار عذب المذاق ويتهيأ للراكب أن البهيم نازل من سلم مرتفع لكثرة صعوبة الانحدار ولولا قبض الراكب على رباط البرذعة الموجودة من خلف لانكب على الأرض مرارًا عند نزول كل انحدار، وفي س ١١ و ق ٢٥ اجتمع الدربان، وفي س ١٢ و ق ٤٨ وصلنا (الكُر) بضم الكاف أعني: آخر صعوبة الجبل وهناك ماء عذب جار وعرب راعية نساؤهم لابسات قمصًا سودًا من صوف أو قماش ويغطين رءوسهن بقماش أسود مثني على الخلف كشبه مظلة على الأعين يسمَّى (بيرام) ويسترن الفم مع العنق فقط دون الوجه وبعد أن مكثنا برهة لتصليح الأحمال قمنا وكانت س ١ وربع من يوم الجمعة وسرنا نازلين من انحدار خفيف نوعًا، وفي س ١ و ق ٤٨ وصلنا إلى آخر الجبل المسمى (بوادي خريف الراس)، وفي س ٢ و ق ٢٥ نزلنا ببقعة مرملة محاطة بالجبال فملنا على يسار الجبل أعني: للجنوب الغربي، وفي س ٣ و ق ١٠ وصلنا قهوة (شداد) وهذه القهوة

إحدى ثلاث قهاوي موجودة بهذا الوادي ساقتنا إليها البغال لمنفعتها من صاحبها وهي مركبة من أربعة أخصاص متفرقة قطر الواحد منها ثلاثة أمتار ونصف في ارتفاع متر ونصف بإحداها عائلة القهوجي والآخر للمسافرين والبهائم ولما لم يمكننا القعود بها من شدة الشرد وتعرض أبوابها لأهوية السموم عرض علينا القهوجي خص عائلته بعد أن أخلاه منهم فوجدنا به بعض أثاث المنزل ودجاجًا بعضه قائم يلقط الحصى والبعض نائم على البيض ففرشنا السجاجيد في جهة على قدر الإمكان لقلة اتساع المكان ومكثنا ننتظر زوال القيلولة مع سمومها بين أثاث وكأكأة الفراخ وشم رائحتها التي تزهق الأرواح فضلًا عن كثرة الشرد والتعب، وفي س ٩ سرنا لجهة الجنوب الغربي، وفي س ١٠ وربع وصلنا وادي (النعمان) وعلى اليمين مبدأ بناء مجرى عين (زبيدة) ثم بعد برهة اتجهنا غربًا بطريق متسع بين جبال وهذا الطَّريق صالح لسير العربات من مكَّة إلى ابتداء وادي خريف الراس، وفي س ١١ و ق ٨ وصلنا قهوة (عرفات) موجود بجوارها عساكر ضبطيَّة للخفر وبعد الاستراحة قمنا في س ١ من ليلة السَّبت وبعد ق ٥٠ وصلنا إلى جامع (نمرة) بعرفات، وفي س ٢ و ق ١٠ مررنا بين العلمين، وفي س ٤ ليلًا دخلنا مكَّة المباركة.

فتكون المسافة من الطائف إلى مكَّة خمس عشرة ساعة وربعًا بالبغال والبعض يقطعها في ١٣ ساعة وهو أقرب طريق، وها هو بيان ارتفاع المحلات المشهورة عن سطح البحر المالح بالقدم الإنكيزي وكل عشرة أقدام تساوي ثلاثة أمتار.

	قدم	متر		قدم	متر
مكَّة مرتفعة عن بحر جدَّة بمقدار	٩٣٠	٢٧٩	الكر مرتفع عن بحر جدَّة	٢٧٤٠	٨٢٢
عرفة مرتفعة عن بحر جدَّة	١٠٥٠	٣١٥	بمقدار	٥٨٦٠	١٥٧٨
بمقدار	١١١٤	٣٣٤	الهدا مرتفعة عن بحر جدَّة	٥١٥٠	١٥٤٥
عين زبيدة مرتفعة عن بحر جدَّة	١٧٦٠	٥٢٨	بمقدار		
بمقدار			الطائف مرتفعة عن بحر		
الوادي أول الجبل مرتفعة عن			جدَّة بمقدار		
بحر جدَّة بمقدار					

ولنذكر ما شاهدته بمكَّة عند عودتي سنة ١٣٠٣ وهو أنه قد صادف قدومي بمكَّة ليلة الأربعين من وفاة والدة سعادة عثمان باشا نوري والي الحجاز في ذاك الوقت وكان بمنزله بعد العشاء ازدحام من الذوات والأمراء والفقهاء وناول كلًّا ممن حضر جزأ من القرآن الشَّريف والشموع موقدة أمامهم وبعد التلاوة ختموا القراءة وشربوا الشربات ووضع أمام كل واحد طبق مملوء بالحلواء الجافة فأخذ كل شخص ما بطبقه في منديله وتوجه به إلى منزله بعد أخذ خاطر صاحب المنزل كما هي العادة عندهم.

وفي يوم آخر وجدت ازدحامًا بعد الغروب حول تابوت فيه شاب قتيل محمول إلى سعادة شريف مكَّة لكونه حاكم البلد وكان هذا القتيل خياطًا وقد حصل بينه وبين قهوجي بأسفل بيته مشاجرة بسبب شرب الحشيش وتشكى إلى الأمير من ذلك وبعد أيام قليلة وجدوه مخنوقًا مكتف اليدين بجانب حماره بحاصل في بيته والبحث عن ضرب القهوجي وجد أنه مشترك مع ثلاثة أشخاص في القتل فحبسوا ودفن القتيل.

مجلس الشَّريف

ولنرجع الآن ونذكر التوجه من مكَّة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة وهو أنه في يوم الأربعاء ٢١ من ذي الحجَّة سنة ١٢٩٧هـ دعا حضرة الشَّريف أمراء وأمناء المحملين ووالي مكَّة والمدينة وبعضًا من الموظفين من أعيان مكَّة إلى مجلس عقده وبقصره ليتشاوروا في الطَّريق المستحسنة لوصول المحملين إلى المدينة من الطرق الثلاثة الموصلة إليها التي إحداها تسمَّى بالدرب (الشَّرقي) وهي بعيدة والثَّانية تسمَّى (بالفرعي) ومسافتها اثنا عشر يومًا والثَّالثة تسمَّى بالدرب (السلطاني) وهي طريق الجديدة وكان إتيان المحمل الشامي منها في هذا العام وأما المحمل المصري فلم يمر منها منذ سبع عشرة سنة فحصل اتفاق المجلس بحضرة الشَّريف على مرورهما من السلطاني وإن لم يستحسن أمير الحاج الشامي مرورهما من هناك لعدم ائتمان من هناك من العربان فأمنه حضرة الشَّريف واستصوب الطَّريق السلطاني للمحملين إلا أنه حصل توقف من خليل بن حذيفة بن سعد وعمه عمر المندوبين نيابة عن حذيفة شيخ مشايخ الدرب السلطاني ليضمنا مرور الحاج من هناك مع الأمن والرَّاحة وادعيا في آخر هذا المجلس أن لهم على الحاج المصري مبلغًا جسيمًا خلاف ما صرف إليهم في كل عام من الأعوام الماضية وإن لم يمر المحمل المصري عليهم وطلبا تجديد مرتبات لهما زيادة على الأصل وأطالوا القول والتصلب في ذلك حتى تعجب الحاضرون من أفعالهم وجراءتهم فبعد خروجهما من المجلس استقر الرأي على المرور من الدرب (الفرعي) وأخذت من مشايخه الضمانات القويَّة والرهائن وبعد الغداء وشرب القهوة والشربات عاد كل شخص إلى محله بالفرح والسرور.

وأما الطَّريق (السلطاني) فتستمر مع طريق الوجه الذي ذكرناه إلى (القاع)

ويفترق إلى (بدر وحنين) وأول محطَّة به من مكَّة (وادي فاطمة) ثم (عسفان) ثم (خليص) ثم (بئر قديمة) ثم (رابغ) ثم (مستورة) ثم (بدر) ثم (الصفراء) ثم (بئر عبَّاس) ثم (بئر شريوفي) ثم (المدينة المنوَّرة) على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وأما الفرعي فيستمر مع السلطاني من مكَّة إلى (رابغ) ثم يفترق لجهة أخرى إلى المدينة ومحطاته بعد رابغ (وادي حرشان) ثم (بئر رضوان) أو الشيوخ ثم (أبو دبع) أو أبى ضباع ثم (الريان) ثم (الغدير) ثم (بئر ماشا) ثم (المدينة المنوَّرة) وسنعود إلى ذكر السير بالطَّريق الشَّرقي مفصلًا بعد أيضًاح الفرعي.

العربان المقومون

وبعد قرار المجلس توجه أغلب الحجَّاج إلى ديارهم مع القوافل ومنهم من انتظر المحملين ليتوجه معهما خوفًا من عربان الطَّريق ومن العربان المقومين أعني: الجمالة ومن أشنع ما بلغني عنهم أن كل مقوم يضمن لمن يكتري منه وصوله إلى مقصده مع الأمن والرَّاحة ثم متى تجاوز العمار وصار في القفار تمرد على ركابه وتنمر وتحكم عليهم وتأمر خصوصًا إذا كثر بالرَّكب الإناث ولم يكن مع الرجال سلاح فينجبرون على الانقياد لأمره إلى أن يصلوا إلى مقصدهم وأغلب هؤلاء المقومين يبحثون عن القوي من ركابهم والضعيف ويتفحصون عما بأمتعتهم من الثقيل والخفيف ومتى وصلوا ليلًا إلى محل مخوف يجعلون أنفسهم حراسًا طول اللَّيل على ركابهم وأمتعتهم ومتى علموا أن أعينهم قد حل بها المنام وهدأت منهم الأجسام وثب كل مقوم على ركاب صاحبه وافترسهم بأفاعيه وعقاربه وصال عليهم صولة الذئب على الخروف السمين فهذا دأب هؤلاء المقومين فإذا أصبح كل وشكا فَقْد أمتعته لم يجد من يعذره فضلًا عن كون المقوم يحنق عليه ويزجره وقد سرق من

القوافل بهذا الحال كثير من الأحمال وطالما قتل الجمالون الغني بجانب متاعه ليلًا وسلبوا منه الأموال.

إنكار الجميل

وقد بلغني بالمدينة المنوَّرة من حضرة أحمد بيك ناشد المرسل من مصر بالإعانة لعين زبيدة أنه أتى من مكَّة إلى المدينة مع القوافل من الدرب السلطاني وشاهد عندما نزل الرَّكب بمحطَّة وقت العشاء واشتغل كل شخص بالعشاء رجلًا قرمانيًّا مذبوحًا بجانب جمله ودراهمه مأخوذة من كمره، ما ذاك إلا بدسيس من مقومه وقد سرقوا ليلًا من حضرة البيك المذكور بعض ملبوسه ولولا انتباهه من نومه سريعًا لضاع متاعه جميعًا، ومن عادة هؤلاء الأعراب مع من يحملونه من الركاب أنه إذا نزل أحدهم ليلًا ليفك الحصر وتأخر نحو عشرين خطوة قتلوه في الحال وسلبوا ما معه من الثياب والأموال ولهم في ذبح من ينفردون به السرعة العجيبة التي هي كلمح البصر أو أقرب بحيث لا يتركونه ينطق بكلمة وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولنذكر هنا واقعة غريبة ونادرة عجيبة هي أنه كان في الفقراء الذين قصدوا الحج برًّا من السُّويس واتبعوا المحمل على الأقدام يقتاتون بصدقة الخاص والعام رجل من دراويش الأعجام فقير الحال مكشوف الرأس ليس برجليه نعال وما عليه من اللباس ولا معه إلا خلقة مرقعة فرق لحاله أحد مستخدمي الصرة وأحسن إليه بما يقيه البرد ويستر منه العورة وعند الوصول إلى العقبة أنزله في البحر إلى الوجه في مركب الشراع مع الفقراء مجانًا على الحكومة المصريَّة التي لا يحصى ما لها من الإحسانات والإنعامات الخيريَّة وذلك لأجل عدم ازدحام الرَّكب بحمل المنقطعين منهم في البريَّة وبوصول الرَّكب إلى قلعة المويلح كان مركب الشراع قد وصل إليه فتخلص منه الدرويش بكل حيلة وأتى عريانًا ملتجئًا إلى من ابتدأه بالجميلة وأخذ

يخدعه بأحاديث متنوعة وأكاذيب مصطنعة حتى رقَّ لحاله وكساه وقرَّبه وأحسن مثواه وبما أن هذا الأفندي المحسن طاعن في السن وبه رمد مزمن طالما سأل عن علاجه كل كافر ومؤمن اتفق أنه سأل هذا الدرويش عن مادة الأكحال لظنه أن هؤلاء الفقراء يحتوون من الصناعات على ما يغنيهم عن الأموال وقد بلغه عنهم ما يذهب العقول ويثبت ما ليس بمعقول من دعوى الكيمياء الباطلة التي من اشتغل بها أصبح والنعمة عنه زائلة ففي الحال فطن الدرويش إلى مرغوب الأفندي ذي الإحسان ومدح له كحلًا مركبًا من الميمران والذهب والكهرباء والمرجان حتى خامر ذلك عقله وتملك زمامه فاتخذ هذا الدرويش قدوته وإمامه وزاد احترامه وإكرامه كي ينال منه بالوصول إلى مكَّة مرامه ولما وصلا إليها اشترى الأفندي له الميمران الهندي والمرجان الغشيم والكهرباء ودفع إليه أربعة عشر مجرا ذهبًا لكون هذا الكحل يدخل في تركيبه الذهب على ما قال ويحتاج إلى عدة عقاقير وأوان تشتري في الحال وتوجه إلى منزل الأفندي ومكث فيه يومين معززًا مكرمًا آكلًا شاربًا منعمًا يسحق هذه العقاقير ساترًا ما في الضمير ثم في اليوم الثَّالث خرج من المنزل بعلة تكليس مجرات الذهب فأخذ كل ما أحضره له الأفندي وذهب ولما عيل صبر هذا الأفندي وكل صبره من طول الانتظار لهذا الدجال الغدار يئس من رجوعه وألقى باقي العقاقير في النار وصار يحط على هذا الدرويش وأمثاله من الأشرار المدعين للأسرار فاعتبروا يا أولي الأبصار والحمد لله على خلاص الأفندي منه بهذا المقدار ولو تمادى معه لباع الدار والعقار فكم من غنيٍّ اتبع الدجالين فأصبح في الذل والافتقار فليت كلًّا منا اعتبر بسير غيره واستقام وحمد ربه وشكره على الدوام.

وفي يوم الأحد ٢٥ منه نزل السيل صباحا بمكَّة واستمر يهطل نحو ساعتين وصار الناس يخوضون في الماء في الشوارع والأزقة وقبل ظهر هذا اليوم وكب المحمل المصري من الحرم المكي إلى محطته خارج البلد وطاف كل حاج طواف

الوداع وخرج من باب الوداع واحتمل ما معه من المتاع وتوجه إلى محطَّة المحمل فبات متأسفًا على مفارقة محل الرحمات ولله در من قال:

إلهي عبدك العاصي أتاكا ... مقرًّا بالذنوب وقد دعاكا
فإن تغفر فأنت لذاك أهل ... وإن تطرد فمن يرحم سواكا

الطَّريق الفرعي

وفي يوم الاثنين ٢٦ منه الموافق ٢٩ نوفمبر شدت الأحمال على الجمال وفي نهاية س ٦ و ق ١٥ سار الرَّكب متكلًا على الرب المتعال، وفي س ٣ وصل إلى العمرة، وفي س ٥ و ق ٥٠ وصل إلى السَّيدة ميمونة زوج الرَّسول عليه السَّلام وبعد استراحته نحو ربع ساعة جدَّ في السير.

الجمالة المصريَّة

ووصل س ٨ و ق ٣٠ إلى وادي فاطمة تابعًا لسير المحمل الشامي ومتأخرًا عنه بقدر ثلث ساعة وكان سير الجمال بالرَّكب ضعيفًا وذلك أن الجمالة المصريَّة المقاولين لحمل الرَّكب والصرة الذين هم من الحجارة بمصر غدروا الميري غدرًا كبيرًا لأنهم مع صرف علائق جمالهم إليهم كاملة مدة الإقامة بمكَّة التي هي عشرون يومًا أجروها إلى جدَّة لحمل بضائع التجار واشتروا بثمن الإيجار جمالًا أخرى وأشركوها مع جمالهم الأولى في عليق الميري حتى اضمحلت من قلة العلف وصارت مهزولة بحيث إن من ركبها عند الرجوع ولو ساعة أدرك الفرق بين حالتها الأولى وحالتها عند الرجوع وإن اشتكى من الجمال احتج له الجمالون بالعلل الواهية في الحال لأنه ليس عليهم رقيب ولا حسيب يتعللون بثقل الأحمال مع أنهم حملوها مع الفرح

والمسرة في ابتداء الحال ولا يزالون ينغصون على الراكب مدة الطَّريق ولولا خوفهم من سطوة الحكومة والعساكر التي مع الرَّكب لفعلوا أقبح ما يفعله جمالة العرب.

الأمير

ومنشأ ذلك تعيين موظفين مستجدَّة للحاج في عام لأن (الأمير) الجديد إذا لم يكن له بالطَّريق ولا بالعادات معلوميَّة ولا إلمام يترك المقصرين من الموظفين على حالهم ولا يجازيهم على التقصير في أشغالهم كمحافظي القلاع على عدم تطهير ونزح الآبار التي في الطَّريق مجاورة للقلاع وتركها مردومة معطلة بدون انتفاع ولا يسعى في إزالة بعض صعوبات في الطَّريق تسهل إزالتها بدون تعويق ويترك المقومين يؤجرون جمال الميري بمكَّة بدون التفحص عليهم ومجازاتهم لتحققه أنه ليس عائدًا في هذه الوظيفة بعد سنته بل إنما يفتخر بكونه أمير الحاج وكل ما استحسنه برأيه فعله بدون معارض.

الأمين

وأما (الأمين) فليس عليه إلا ختم الكشوفات فقط إذ لا يعلم بحقيقة الحال وكان ينبغي للروزنامجة أن تعطيه استمارة بما يخص مأموريته والاطلاع على كلياتها وجزئياتها ليكون على بصيرة ولا تحيله على كاتب الصرة في هذه المعلوميات كما هو الجاري فإنه في الطَّريق يبين له البعض ويخفي عنه البعض وكذا كان ينبغي لها أن تفرز المستخدمين بالصرة نحو الفراشين والسقائين والضويَّة والعكامة من حيث لياقتهم لهذه السَّفريَّة وعدمها لأن مقدمي هذه الطوائف متى تقيدوا بالروزنامجة قيدوا معهم أنفارًا حسبما اتفق ليأخذوا من مرتباتهم ما أرادوا ويترتب على ذلك

تعطيل أشغالهم أثناء الطَّريق.

كاتب الصرة

(وأما كاتب الصرة) فلما كانت وظيفته دائمة على ممر السنين صار له معرفة تامة بالطَّريق وسكانها وسلاطه على كافة الجمالة ونحوهم من المستخدمين وعلى أغلب العربان ومن بالقلاع بحيث إن أمره عندهم مسموع ومطاع وله في الرَّكب اليد العليا لأن توزيع الصرة والعطايا بمعرفته وبحسب دفتره.

العساكر

(وأما العساكر) فلعدم غيارهم ليس أحد منهم بشاكر فالحاج في البر يكابد أعظم المشاق ولا يعرف ذلك إلا من ذاق وفي يوم الثُّلاثاء ٢٧ منه في السَّاعة الأولى من النَّهار سار الرَّكب ومعه كثير من الحجَّاج الأغراب مقتفيًا أثر المحمل الشامي بمسافة نصف ساعة وذلك لسهولة السير وأخذ المياه من المحطَّات بالرَّاحة بدون ازدحام وكان الدرب بين جبال، وفي س ٤ وصل إلى واد متسع سهل ذي سنط وحشائش، وفي س ٦ و ق ٣٠ استراح بهذا الوادي ويسمَّى بوادي (فاطمة)، وفي س ٧ و ق ١٠ أخذ في السير، وفي س ٧ و ق ٥٥ وصل إلى بئر (الباشا)، وفي س ١٠ و ق ٤٥ مرَّ بسبيل (الجوخي) وبعد الغروب بنصف ساعة من ليلة الأربعاء نزل قريبًا من المحمل الشامي متباعدًا نحو ساعة وربع عند محطَّة (عسفان) كانت هناك برك كثيرة من سيل نزل وكان الجو باردًا رطبًا ولعدم وجود الخيام منصوبة عند الوصول كما كانت الأصول والانتظار لنصبها نحو ساعة ما بين العفش والجمال مع التعب وتشتت البال حصل ضرر كثير للموظفين من ذلك.

وفي يوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجَّة غرة ديسمبر سار الرَّكب في السَّاعة الأولى من النَّهار، وفي س ٢ و ق ١٥ وصل إلى محطَّة (عسفان)، وفي س ٢ و ق ٣٥ استراح بالقرب من بوغاز وادي عسفان، وفي س ٣ و ق ١٠ سار، وفي س ٣ و ق ٣٠ مرَّ من أول البوغاز وصعد بين تلال من الأحجار والزلط الكثير وهذا البوغاز يضيق تارة ويتسع أخرى، وفي س ٣ و ق ٥٠ مرَّ ببناء على يساره وانتهى المنفذ إلى واد متسع أرضه صلبة سهلة، وفي س ٤ و ق ١٠ استراح، وفي س ٤ و ق ٥٠ سار، وفي س ٩ و ق ٢٠ نزل بمحطَّة (خُلِيص) بضم الخاء وكسر اللام.

وفي يوم الخميس ٢٩ منه سار الرَّكب في السَّاعة الأولى بعد سير الرَّكب الشامي، وفي س ٥ و ق ٤٥ استراح، وفي س ٦ و ق ٢٥ سار في واد متسع به درن واتجه نحو عشرين درجة إلى الغرب، وفي س ٩ و ق ٥٥ مرَّ بمحطَّة آبار الهندي أو (القضيمة) وهي بئر قديمة، وفي س ١١ و ق ٥٥ نزل بواد متسع به زلط يسير وهناك تشكى بعض الحجَّاج الأغراب من جمالة الرَّكب المؤجرين لهم من الخارج بسبب ضعف الجمال وعدم قوتهم على الأحمال.

وفي يوم الجمعة غرة شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٨ سار الرَّكب بعد مضي ربع ساعة من أول النَّهار، وفي س ٥ و ق ٥٠ نزل للاستراحة، وفي س ٦ و ق ٣٠ سار وبعد نصف ساعة من الغروب وصل (إلى رابغ) وهذا التأخير سببه كثرة السيول في الطَّريق المعتادة والسير في طريق أخرى عارية عن السيل لارتفاعها أبعد من الأولى بساعة ونصف.

وفي يوم السَّبت ٢ منه استلم الخرج كافة المستخدمين ولعدم وجود الشعير بشونة رابغ صرف للخيل فول عوضًا عن الشعير كما حصل ذلك في مكَّة ووجدت القنيطة متعفنة ومتفتتة وادعوا أن ذلك من كثرة الشيل والحط ونزول الأمطار عليها

عند ورودها من مصر حتى تركها البعض لعدم الانتفاع بها ولا يخفى ما في ذلك من الخسارة العائدة على الميري فإنه أجرى تكاليف جسيمة لإرسال ما يلزم من مرتبات مسخدمي الصرة والمحمل إلى القلاع التي يمرون عليها ولم يجر صرفها كالواجب بل صار كل من المخزنجي والناظر يتصرف في أحسنها ولا يجد المستخدمون عند مرورهم إلا فضلات من متفتت ومتعفن فضلًا عن نقص الوزن وتطفيف الكيل.

وفي يوم الأحد ٣ منه سار الرَّكب س ٣ و ق ٤٥، وفي س ٤ خاض في سيل ثم انحرف ما بين البحري والبحري الشَّرقي، وفي س ٤ و ق ٣٠ استراح، وفي س ٦ و ق ٤٥ جدَّ السير في واد به زلط وبعض أكمات من رمال مع صعود وهبوط، وفي س ١٢ مرَّ بتلال على اليمين وفي السَّاعة الأولى من اللَّيل نزل تحت سفح وادي (حرشان).

وفي يوم الاثنين ٤ منه بعد مضي خمس وأربعين دقيقة من النَّهار سار عن يمين تلال، وفي س ١ و ق ٥ سار بين تلال عالية، وفي س ١ و ق ٢٠ صعد إلى جبل لا يمر منه إلا الجمل أو الجملان، وفي س ١ و ق ٢٥ هبط إلى واد ذي رمل وتلال على اليسار، وفي س ٣ و ق ٥٠ وصل إلى يمين جبل هرمي الشَّكل، وفي س ٤ و ق ٢٠ استراح، وفي س ٥ و ق ٢٥ سار شيئًا فشيئًا ونفذ من منفذ يسمَّى (نقر الفار) يمر منه الجمل فالجمل مع هبوط شديد في محجر ضيق بين جبلين طوله نحو مائتي متر ثم اتسع الدرب بين الجبال، وفي س ٥ و ق ٤٥ استراح لانتظار باقي الرَّكب، وفي س ٧ و ق ١٥ سار في سنط كثير، وفي س ١٠ نزل بمحطَّة بئر (رضوان) في مكان متسع بين الجبال ليس به مساكن إنما فيه بئر واحدة ماؤها عذب وقد اشتد البرد ليلًا ولكون الترمومتر الذي كان معي انجبر بمكَّة ما أمكنه بعد ذلك معرفة درجة الجو على التحقيق.

وفي يوم الثُّلاثاء ٥ منه سار الرَّكب في س ١ و ق ١٥، وفي س ١ و ق ٤٠ مرَّ بزلط وحجارة، وفي س ٢ مرَّ ببوغاز عرضه خمسون مترًا بين جبلين مرتفعين قائمين أملسين وبعد عشر دقائق قل ارتفاعهما وتسلسلا في أرض وعرة ذات هبوط وصعود في محجر وزلط كثير مستمر، وفي س ٦ استراح، وفي س ٦ و ق ٥٠ سار، وفي س ٩ و ق ٣٠ خف الزلط نوعًا وسهل السير، وفي س ١١ و ق ١٥ مرَّ بأكمات محجرة ثم ببقعة بها نخيل بكثرة وبيوت كبيوت الأرياف وسوق يباع به التمر والأكياس الجلد المزخرفة المتنوعة من صناعة تلك الأراضي وتسمَّى (خرائز وقلص)، وفي س ١١ ونصف نزل بمحطَّة (أبي ضباع) وبها عين ماء عذبة جارية في آخر النخيل عن يسار البلد.

وفي يوم الأربعاء ٦ منه في السَّاعة الأولى سار الرَّكب في زلط كثير، وفي س ٢ و ق ٣٠ مرَّ على نخيل كثير، وفي س ٣ و ق ٣٠ ارتفعت جبال الطَّرفين وصار عرض الطَّريق مائة متر وكسورًا، وفي س ٥ كثر النخيل على الطَّرفين ما بين الجبال والطَّريق وهناك سوق يباع فيه التمر والأكياس والمخدات الجلد، وفي س ٥ و ق ١٠ مرَّ بدرب (المضيق) عرضه عشرة أمتار بين النخيل وبه سوق وبأعلى الجبال من اليسار بيوت، وفي س ٥ و ق ١٥ مرَّ على مجرى ماء بين النخيل، وفي س ٥ و ق ٥٠ انتهت المزارع، وفي س ٦ مرَّ بماء جار عرضه متر ونزل الرَّكب للاستراحة إلى س ٦ و ق ٥٠ ثم سار بين زرع وجداول ماء متباعدة بمسافات قليلة، وفي س ٨ و ق ٣٥ انتهى كل من المزارع والجداول واتسع الطَّريق بين جبال منخفضة عما قبلها، وفي س ١١ و ق ١٠ نزل بوادي (الريان) بجوار نخيل وماء جار وبيوت وعشش وسوق.

وفي يوم الخميس ٧ منه سار بعد مضي خمسين دقيقة من السَّاعة الأولى بأرض أقل زلطا مما قبلها، وفي س ٣ كثرت أشجار السنط وصار الطَّريق مشرقًا مبحرًا، وفي

س ٦ اتجه الرَّكب إلى بحري ثم بعد ساعة اتجه مشرقًا، وفي س ٦ و ق ٤٠ اتجه مشرقًا مبحرًا وهناك عقبة (ريع الخيف) واستراح في ابتداء هذه العقبة، وفي س ٧ و ق ٣٠ سار وصعد العقبة إلى أعلى جبل لا يمر منه إلا جملان فجملان، وفي س ٧ و ق ٤٥ وصل إلى سطح الجبل في اتساع مستوٍ وبعد خمس دقائق هبط منه بسهولة، وفي س ٨ و ق ١٠ انتهى الشوك المسمى بأم غيلان، وفي س ٨ و ق ٢٠ وصل إلى واد متسع، وفي س ٨ و ق ٤٥ استراح، وفي س ٩ و ق ٥٠ سار، وفي س ١٠ و ق ٤٠ نزل بـ (الغدير) بجوار جبل هرمي في وسط الوادي وكان هناك سيل جار وفي يوم الجمعة ٨ منه سار الرَّكب بعد نصف من السَّاعة الأولى تاركًا ذلك الجبل عن يمينه متبعًا جهة الغرب حتى قطع الجبل، وفي س ٢ و ق ٣٠ اتجه بين الشمال والغرب الشمالي في أرض تارة يعلوها زلط خفيف وتارة رمل ثم اتجه مبحرًا، وفي س ٥ و ق ١٠ مرَّ بجبال على اليسار، وفي س ٦ و ق ٢٠ وصل إلى محطَّة (بئر العظم) وهناك بئر واحدة بجوار نخلتين ماؤها عذب وعلى بُعد مائتي متر تقريبًا من جبل هرمي على يسارها، وفي س ٦ و ق ٣٠ استراح، وفي س ٧ و ق ١٥ سار، وفي س ٩ و ق ٣٠ مرَّ بين جبال واتسع الطَّريق من مائة متر إلى ثلاثمائة متر متجهًا إلى بحري، وفي س ١٠ و ق ٢٠ صار العرض تارة دون مائة وخمسين مترًا وتارة أكثر في سنط كثير، وفي س ١١ و ق ٥٠ استراح وفي نصف السَّاعة الأولى من اللَّيل سار، وفي س ٣ و ق ٣٠ وصل إلى (العلواية) وهي مهبط منحدر مستوٍ بين جبلين طوله مسافة ثلاث عشرة دقيقة، وفي س ٤ و ق ٣٠ انتهت الجبال، وفي س ٦ و ق ٣٥ هبط من محجر إلى تلال على الجانبين، وفي س ٧ و ق ٣٠ نزل بمحطَّة (بئر الماشي) وهناك بئر واحدة عذبة في بقعة محاطة بالجبال بها مخزن كبير للغلال وحرسه من أعراب المدينة.

وفي يوم السَّبت ٩ منه س ١ و ق ٣٠ سار الرَّكب في طريق متسع بواد محاط بتلال به شجر وزلط وهذه التلال تتقاطع تارة وتارة تتسلسل بجبال، وفي س ٦ مرَّ

على نخيل وآبار على اليمين وتوارت المزارع في بقع متقطعة يمينًا ويسارًا إلى س ٧ و ق ٤٥ ونزل بمحطَّة (آبار علي) على يسار الطَّريق في نخيل وآبار وبناء تعلوه قبة وهناك يلتقي الدرب السلطاني بالفرعي، وفي س ٨ و ق ٤٥ سار مبحرًا مشرقًا، وفي س ١٠ و ق ٤٠ وصل إلى باب المدينة المنوَّرة المسمى بباب (العنبريَّة) غربي المدينة ونزل بمكانة المعتاد.

مجلس الشَّريف

ولنرجع الآن ونشرح السَّيد بالطَّريق الشَّرقي من مكَّة إلى المدينة حسبما وعدنا وهو أنه في يوم الثُّلاثاء ٢٠ ذي الحجَّة سنة ١٣٠٢ السَّاعة الثامنة توجَّهت مع الأمير إلى منزل سعادة الشَّريف عون الرفيق باشا لنحضر المجلس المنعقد في شأن تعيين الطَّريق التي تمر المحامل منها كما هو العادة في كل عام وكان مشتملًا على سعادة الوالي وبعض من الضباط وأمير الحاج الشامي وأمين صرته وبعض أكابر مكَّة ومشايخ عربان الطَّريق الثلاث أو من ينوب عنهم.

واستقرت الآراء على المرور من الطَّريق الشَّرقي والسير في ٢٩ من الشَّهر فسقى الحاضرون ماء مثلجًا بواسطة آلة ضاغطة فيها حمض كبريتيك وعند الغروب أحضر لهم الطعام فتناولوه مع ترنم الموسيقى والمزمار منزل سعادته وسقوا بعد الطعام الشربات على استماع الآلات من ناي وقانون وشكر الحاضرون حسن التفات سعادة الشَّريف وملاقاته وبعد صلاة المغرب استأذن بعضهم في الانصراف وبعضهم أقام ليستكمل حظه من هذا السرور.

ولا بأس بأن أذكر هنا ما عرضه عليَّ كثير من رؤساء عربان الطَّريق السلطاني في شأن مرور المحمل المصري في طريقهم مع الأمن وأنهم يعطون على ذلك

رهونات إما لسعادة الوالي أو للشريف نظرا لرُؤيتهم توجهي إلى الحج دفعتين ورسم الطرق ومعالمها ومعرفتي بها وسؤال بالدِّقة عن سبب عدم رضاهم في ذلك ولكن لعدم صدور أوامر قطعيَّة من الحكومة المصريَّة لأمراء الحج في هذا الشأن لم يتجاسر أحد على الاتفاق معهم على ذلك.

وقد اختار سعادة الوالي والشَّريف هذا الدرب الشَّرقي الذي يمر الآن منه من تلقاء أنفسهما للعلم بأن المحمل الشامي لا يتأتى له أن يسير من الطَّريق السلطاني للمشاجرات السَّابقة بين الحج الشامي وبين أعراب هذه الطَّريق ويترك المصري فانجبر طبعًا على اتباعه ليتقوى كل منهما بالآخر مع أن الطَّريق السلطاني أقرب من غيرها ولا يتعسر وجود الماء فيها كغيرها الذي هو كثير الخطر فالأوفق أن ترسل الحكومة الخديويَّة مع الحج أميرًا تعوَّد على ذلك ذا دراية بالطرق ومعرفة برؤساء قبائل العرب وعوائدهم وطبائعهم ليتألفهم ويسترضيهم شيئًا فشيئًا فيعتمدوه ويتكفلوا له بمرور المحمل من طريقهم مع الأمن وتقل زيادة المصاريف على الحكومة الخديويَّة المصريَّة كما علمت ذلك.

وفي يوم الأربعاء ٢١ منه صار صرف بعض مرتبات العربان وفي أثناء الصرف حضر أحد الشرفاء بكتاب من سعادة الشَّريف مضمونه أنه مندوب للتوجه مع المحمل المصري إلى المدينة ليحفظه من غدر ومكايد عربان الطَّريق كما هي العادة في كل عام وطلب ن يصرف له مرتبه المخصص له في مقابلة ذلك ولعلمي بعدم توجه هذا المندوب في العام الماضي مع المحمل طلبت منه أن يعطيني تعهدًا عليه بذلك فامتنع وامتنعت من إعطائه شيئًا والحالة هذه ولما تقابلت مع سعادة الشَّريف أخبرته بما جرى بيني وبين هذا المندوب فصوَّب رأيي وأمره بإعطاء التعهد وبالسير صحبة المحمل إلى المدينة فكان ذلك إلا أنه عجز عن حمايته للمحمل فإنهم سلبوا أربعة

جمال من ركب المحمل بأحمالها وسلبوا منه هجينًا وقتلوا آخر لما تخلف عن الرَّكب في إحدى المحطَّات كما سيأتي ولولا أنه فر منهم هاربًا وأغاثه العساكر لقتله اللصوص ومن معه والحرارة بلغت بعد الزَّوال ٣٥ درجة.

وفي ٢٧ منه توجَّهت صباحًا إلى سعادة الشَّريف فوجدته جالسًا في روشن بمحل الدور الأول يقضي حوائج العربان وغيرهم ويسعى في مصالحهم ومنهم من يقبِّل يده ولا يتركها ما دام شكو حاله إليه والآخر يكلم سعادته بصوت عال وآخرون يعرضون شئونهم معًا في آن واحد بأصوات مرتفعة وآخر يحكي له حكاية طويلة مع هزه لركبته لظنه أنه لا يصغي إليه إلا بذلك هذا كله وهو يحكم عليهم مع الرزانة والبشاشة التي هي شيمته وعنده الفقير والغني سيان ويدعونه (بسيد الجميع) ومنهم من يقبِّل ركبته ومن يقبِّل يده على حسب مراتبهم فتعجبت من جراءتهم عليه وأفعالهم غير المرضية أمامه فالتفت إليَّ وتبسم وقال: اكتب فعلهم هذا في الكتاب الذي تؤلفه بخصوص الحج، وفي يوم الخميس لم يتأت المسير إلى المدينة حسبما كان قرره المجلس لتأخر الشامي في انتظار صرف مرتباته.

وفي يوم السَّبت أول محرم سنة ١٣٠٣هـ الموافق (١٩ أكتوبر سنة ١٩٨٥م) وكب المحمل من باب على السَّاعة اثنين ونصف وكان سعادة الوالي عثمان باشا نوري المشير في انتظاره أمم منزله وبجانبه سعادة عمر باشا قومندان العسكر وعدة من الضباط والأمراء فلما دنا منه أخذ زمام الجمل فدار بالموكب ثلاث دورات أمام المنزل ثم سلم الزمام للأمير فسار المحمل إلى أن وصل أمام خيمة الأمير خارجًا عن الشَّيخ محمود فنزل هناك للمبيت وعدت إلى مكَّة لطواف الوداع ووداع كل من سعادة الوالي ودولة الشَّريف وبتنا مع المحمل وفي هذا اليوم قام الشامي إلى المدينة وكان سبق التنبيه في يوم الجمعة على المقومين بإحضار الجمال اللازمة وكان الهواء

معتدلًا بتلك البقعة وبلغت الحرارة قبيل الشروق ٢٦ درجة.

أجرة الجمال

وفي صباح يوم الأحد لم يكن عدد الجمال المطلوبة تم بالنظر لكثرة الحجَّاج وتوجه القوافل وعدم تعود المقومين الأعراب على مثال حملة المحمل مع أنَّا صرفنا لهم نصف الأجرة مقدمًا على حسب شروطهم وكانت أجرة الشقدف من مكَّة إلى المدينة ١٨ ريالًا بطاقة وأجرة العصم ١٧ وأما من مكَّة إلى المدينة ثم إلى ينبع البحر فأجرة الشقدف ٢٣ والعصم ٢٢ ومن مكَّة إلى المدينة ثم إلى جدَّة الشقدف ٢٨ والعصم ٢٧ ومن مكَّة إلى المدينة ثم إلى الوجه الشقدف ٣٥ والعصم ٣٤.

والعادة الجارية بمكَّة أن يدفع المقوم من أجرة جماله عن كل جمل يسافر إلى المدينة ريالًا للشريف وريالًا للوالي وثالثًا للمخرج ورابعًا للمطوف فإن كان إلى جدَّة فربع ريال فقط للميري وكذا على الآتي منها إلى مكَّة وأما من المدينة إلى ينبع فريال للمزور وآخر للميري ومع هذا انتظرنا تمام الجمال إلى س ٤ و ق ٤٥.

الدرب الشَّرقي

وفي س ٥ سار الرَّكب إلى جهة الشمال الغربي في طريق العمرة ثم شمالًا، وفي س ٥ و ق ٣٥ انحرف إلى الشمال الشَّرقي في طريق مرملة متسعة بين جبال فيها زلط خفيف، وفي س ٦ اتجه شرقًا وبعد خمس دقائق شرق مقبلًا وبعد خمسة أخرى مال من الشَّرق إلى الشمال، وفي س ٦ و ق ٣٠ مرَّ على جبل (النور) عن يمينه بعيدًا عنه وهو على يسار طريق منى ثم شرق، وفي س ٧ و ق ٢٣ مرَّ بين جبال متجهًا إلى

الشمال الشَّرقي ثم بعد س ٩ و ق ٤٨ شرقي في واد متسع مرمل به سنط قليل يعرف بأم غيلان، وفي س ١١ و ق ١٨ نزل ببئر (البارود) وهي متينة البناء اتساعها ستة أمتار وعمقها ١٢ مترًا عذبة الماء في قاعها شجرة جميز كبيرة وفي وقت الغروب أرعدت السماء وأبرقت وأمطرت نحو ساعة وربع فأسقطت الرياح الخيام على ما فيها وتكاسل الفراشون عن أشغالهم طول ليلتهم.

وفي يوم الاثنين ٣ منه س ١ وق ٤٥ سار مبحرًا مشرقًا ثم بعد ساعة انتهى الوادي وصار اتساع الطَّريق ٣٠٠ متر بين جبال بعدها تلال، وفي س ٣ ضاق الطَّريق وبعد عشر دقائق مرَّ على تل لكثرة الزلط يسارًا، وفي س ٤ ضاق الطَّريق وصار عرضه خمسة أمتار بين أحجار وصخور ثم اتسع شيئًا فشيئًا مبحرًا، وفي س ٤ وق ٣٠ انتهى إلى طريق ضيق مشرق قريبًا من وادي الليمون ثم اتجه إلى الشمال الشَّرقي، وفي س ٤ و ق ٤٥ مرَّ على بئر عذبة الماء تعقبه مرارة في طريق مرملة اتساعها ٢٠ مترًا بين جبال ثم اتجه مبحرًا مائلًا إلى الغرب، وفي س ٥ و ق ٤٠ استراح، وفي س ٦ سار مبحرًا ثم مبحرًا مغربًا، وفي س ٧ اتجه إلى الشَّرق الشمالي يسارًا محاذيًا لجبل وبعد ٥ دقائق مرَّ على بئر معطلة على اليسار واتجه مشرقًا في واد متسع فيه على بُعد أراض ذات شكل مربع تارة ومستطيل تارةمرتفعة نحو خمسة أمتار مسطَّحة مرملة يغمرها السيل من الجبال المجاورة لها ويزرعها العربان ذرة وخضروات، وفي س ٨ و ق ٢٠ مرَّ بقطعة أرض عن يساره مرتفعة فيها نخيل وزروع وعشش تسمَّى بـ (الجديدة) وعلى يمين الطَّريق صخرة منفردة في جنب طريق بين الشَّرق والجنوب صالحة لمن يسير من السعاة إلى مكَّة ثم اتجه الرَّكب مشرقًا منحرفًا إلى الشمال، وفي س٩ و ق ٤٥ شرع في (وادي الليمون) عن يسار أرض مرتفعة محاطة بسور ذي حجارة مرصوصة ارتفاعه نحو مترين متسعة فيها نخيل وأشجار وبيوت مبنيَّة في سفل الجبل وعن يمينه في أسفل الجبل بعض نخيل

وهناك يباع النارنج والليمون والفجل والفقوس وغير ذلك وعن يساره جنائن ممتدة على الطَّريق فيها أشجار ليمون كثيرة وتين شوكي تنصب إليها المياه من جبل بعيد وتجري في وسطها فكأنها روضة من الجنَّة، وفي س ١٠ و ق ١٥ اتجه شماليًّا ومرَّ على قناة كبيرة ماؤها جار إلى جنان وهو عذب جدًّا وبعد خمسمائة متر اتجه إلى الشَّرق وبعد ألف متر انتهى الزرع ومرَّ على ماء منصب من الجبل يمينًا إلى قناة مبنيَّة ثم منها إلى الأرض ليدخل في الجنان ثم يجري إلى مسافة بعيد ونزل الرَّكب بوادي الليمون قريبًا من هذا العين في س ١٠ و ق ٤٠ في مكان متسع مرتفع عنده سوق فيها يباع اللحم والسمن والأرز المطبوخ والفطير ونحو ذلك تأتي إليها البياعون من مكَّة خصوصًا للتسبب.

وفي يوم الثُّلاثاء كانت الحرارة عند الشروق ٢٦ سنتجراد وبعد س ١ و ق ٤٥ سار الرَّكب مشرقًا مبحرًا في أرض متسعة مرملة ذات زلط محاطة بالجبال، وفي س ٦ و ق ٤٠ استراح، وفي س ٧ و ق ٢٠ سار إلى الشَّرق تقريبًا، وفي س ٨ و ق ١٠ اتجه إلى الشَّرق الشمالي ثم تارة إلى الشَّرق وتارة إلى الشمال على حسب وضع الجبال في سنط وزلط ورمل، وفي س ٩٠ و ق ٢٠ ظهر جبل بالأمام يظن أنه ساد للطريق فهبط يسيرًا واتجه إلى الشمال في اتساع بين الجبل ورمل مستوٍ ثم مال إلى الشمال الغربي، وفي س ١٠ و ق ١٠ مرَّ على بئر يمينًا في أسفل الجبل ماؤها مالح صالح لشرب الدواب واستمر الرعد مع انتشار الغمم، وفي س ١٠ و ق ٢٠ نزل الرَّكب للمبيت قريا من أول البقعة المسمَّاة (بالمضيق).

وفي يوم الأربعاء ٥ محرم س ١٢ و ق ٣٠ سار مبحرًا وكانت الحرارة ٢١ درجة والبرد شديد وبعد عشر دقائق مرَّ على عبل وارتفاع قليل من انخفاض وسنط وزلط ثم بمتسع عن يساره تلول صغيرة وف س ١ و ق ١٠ اتجه إلى الشمال الغربي وبعد

س ١ و ق ٣٠ اتجه إلى الشمال بين جبال وضاقت الطَّريق فصارت نحو عشرين مترًا وهذا ابتداء المضيق ثم اتجه من الشمال الشَّرقي إلى الشَّرق ثم تكاثرت المحاجر واعتدل إلى الشمال بعد س ١ و ق ٤٧ ثم مرذ في متسع وبعد دقيقتين تعسر المنفذ من الحجارة فلم يمر غير جملين جملين ثم انحرف مغربًا، وفي س ١ و ق ٥٧ بحر ثم شرق ثم أخذ مبحرًا على حسب وضع جبال الجهتين في الاعوجاج والارتفاع والانخفاض وكثرة السنط والزلط، وفي س ٢ اتسع الطَّريق شمالًا والجبال في ارتفاع وانخفاض مع كثرة الحجارة ثم انحرف إلى الغرب الشمالي، وفي س ٢ و ق ٢٥ شرق نصف دائرة ثم اتجه شمالًا، وفي س ٢ و ق ٣٥ دخل في محجر لا يمر منه إلا الجمل فالجمل مسافة ٢٥ مترًا ثم صار يمر منه الجملان فالجملان، وفي س ٢ و ق ٤٣ دخل مشرقًا في محجر ثم اتجه للشرق القبلي، وفي س ٢ و ق ٥٤ شرق في عرض عشرين مترًا وسهل المسير وبعد س ٣ و ق ٨ انتهى المضيق واتسع الطَّريق بعض اتساع بين سنط وزلط واتجه إلى الشمال الشَّرقي وبعد س ٣ و ق ٢٥ تناقصت جبال اليسار مع وجود تلول على اليمين وبعد عشر دقائق مرَّ في محجر مرتفع يسيرًا منحدر عرضه عشرة أمتار وبعد ثلاث دقائق مرَّ في منحدر خفيف يصعد منه إلى أرض بين تلال نحو خمسين مترًا ثم يهبط منه إلى واد بين تلال متجهًا إلى الشمال وهنا تنتهي محاجر المضيق ثم يستوي الطَّريق ويتسع الوادي يسارًا ثم تتباعد جبال اليمين وبعد س ٥ أخذ في هبوط وصعود إلى أرض مستوية وبعد س ٥ و ق ١٥ نزل للرياضة وبعد س ٦ سار بين جبال من الطَّرفين في اتساع ٣٠٠ متر وبعد ١٠ دقائق ضاقت الطَّريق إلى مائة متر ثم إلى ٥٠ وشرق الرَّكب مارًّا بين تقاطع السلسلة كدائرة ثم اعتدل إلى الشمال الشَّرقي بعد س ٦ و ق ١٥ في اتساع وانخفاض لجبال اليسار وبعد س ٦ و ق ٢٥ نزل للمبيت في أرض (الحفائر) أو الضريبة بين الجبل ليأخذ منها المياه إلى المحطَّة التي تليها لعدم وجود ماء فيها وأما هذه الأرض فبمجرد حفرها قليلًا

ينبع منها الماء وبعد س ٧ و ق ٣٠ من هذا اليوم كانت الحرارة ٣٧ سنتجراد ثم عند الغروب انخفضت إلى ٣٠ درجة وعربان هذه الجهة لا تؤمن، وفي يوم الخميس ٦ منه س ١٢ و ق ٢٠ سار والحرارة ٢١ درجة وبعد س ١٢ و ق ٥٥ ضاق الطَّريق من كثرة الأحجار والتلال في الجهتين ثم اتسع نوعًا مشرقًا مبحرًا وبعد س ١ و ق ٤٠ مرَّ في زلط كثير واتجه إلى الشَّرق وانتهت الجبال وبعد ثلاث دقائق عاد إلى الشَّرق الشمالي في واد متسع ذي سنط وزلط وبعد السَّاعة الثَّالثة مرَّ على رمل بلا زلط وشجر وبعد ربع ساعة على زلط خفيف بأرض في غاية الاستواء صالحة للطرق الحديديَّة، وفي س ٦ و ق ٦ كانت رياضة، وفي س ٦ و ق ٤٥ سار في براح مستوٍ والحرارة ٣٥ سنتجراد وبعد خمس دقائق مرَّ على تلال على اليمين بعيدة موازية للطريق وبعد س ٧ و ق ٣٥ انتهت التلال مع بقاء الاستواء وبعد س ٧ و ق ٣٥ مرَّ على ثلاثة كيمان يمينًا وتلال خفيفة بعيدة يسارًا وبعد س ٨ و ق ١٠ مرَّ على حشائش بالبعد نافعة للدواب وهذا المكان يسمَّى بوادي (البركة) ومال عن الشمال إلى الشمال الشَّرقي ولاستواء الأرض كان الجمل يسير من ٤٠٠٠ متر إلى ٥٠٠٠ متر في السَّاعة وبعد س ١٢ مرَّ في زلط كبير كثير وبعد ثلاث دقائق مرَّ في رمل وحشيش وبعد س ١٢ و ق ٢٠ مرَّ في بقعة أرض يسارًا منخفضة عن الأرض بمترين مربعة الشَّكل طولها خمسون مترًا كانت بها بركة ماء وهي الآن مردومة ليس فيها ماء وإنما يحمل الحجَّاج الماء معهم من الحفائر السَّابقة وبعد س ١٢ و ق ٢٥ نزل الرَّكب للمبيت.

وفي يوم الجمعة بعد س ١٢ سار والجو بارد والحرارة ٢٧ سنتجراد وبعد ق ٥ مرَّ من محجر معوج عرضه ٥٠ مترًا كثير الزلط يعسر المرور فيه فشرق مغربًا نحو نصف دائرة ثم اعتدل مبحرًا وبعد ق ١٢ أشرقت الشَّمس واتجه إلى الشمال في براح من الأرض مستوٍ مرمل وبعد س ١ مرَّ على حشيش وأخذ الوادي في الاتساع جدا

وهو صالح للزراعة وبعد س ٣ و ق ٣٥ على أرض صلبة وحشيش وبعد س ٦ و ق ٣ نزل للرياضة وبعد س ٦ و ق ٣٥ سار بين الشمال والشمال الغربي في أرض مستوية وبعد س ٧ و ق ٣٠ مرَّ على زلط كبير منتشر نحو مائتي متر ثم على رمل وحشيش وبعد ربع ساعة وقربت تلال اليمين شيئًا فشيئًا متسلسلة من زلط أسود وكانت الحرارة ٣٤ سنتجراد وبعد س ٩ انتهت التلال وبعد ق ٦ مرَّ في زلط كبير ينتهي بعد ق ٢٠ متجهًا إلى الشمال الغربي وبعد س ٩ و ق ٤٨ مرَّ على زلط خفيف ثم رمل وحشيش وبعد س ١٠ و ق ٨ مرَّ على تلال متقطعة يمينًا وأخرى على بعد ٣٠٠ متر يسارًا متجهًا إلى الشمال الغربي وبعد ق ٤ كثر الزلط وبعد س ١٠ و ق ٤٥ مرَّ على تلال خفيفة متجهًا إلى الشَّرق وبعد س ١١ و ق ١٠ مرَّ على تل يمينًا وعلى حشائش ثم زلط ثم حشيش وعبل كثير ثم زلط ثم عبل وحشيش ثم زلط في واد متسع ثم حشيش وهكذا إلى محطَّة (حاذا) فنزل بها الرَّكب بعد س ٢ و ق ٤٥ ليلًا في محل متسع مخطط بقنوات وأحواض للزراعة فيه ثلاثة آبار مياهها عذبة وهناك جبل في أعلاه بناء شبيه بالمرقب أي المنظرة.

وفي يوم السَّبت قبل الشروق كانت الحرارة ١٧ سنتجراد وفي نهاية السَّاعة الأولى سار في أرض خصبة جيدة للزراعة ما بين الشَّرق والشَّرق الجنوبي وبعد ق ٨ مرَّ بأرض سبخة فيها حشائش وكان السير فيها صعبًا من الأمطار وبعد س ٣ كثر السبخ واتجهنا على يسار تلول بعيدة على شكل أهرام وبعد ق ١٠ مررنا على تلال يسارًا ممتدة على محاذاة الطَّريق وبعد س ٣ و ق ١٧ مر على زلط خفيف وتل قريب على اليسار ثم على سبخة واتجه إلى الشَّرق وبعد س ٣ و ق ٤٠ اتجه بين الشَّرق والشَّرق الشمال وتلال اليمن إلى الجنوب وبعد ق ٥ بعدت وتسلسلت إلى اليسار على امتداد الطَّريق في مستوٍ متسع من الأرض قليل السبخ، وفي س ٤ و ق ٢٥ ظهر على اليسار مغرب وعلى اليمين براح واتجه بين الشمال والشَّرق الشمالي في أرض

متسعة ممتدة يعلوها سبخ بدون حشيش وبعد س ٥ و ق ٣٠ قربت جبال اليسار وبعد س ٦ كانت الرياضة والحرارة ٣٢ درجة وبعد س ٦ و ق ٣٥ سار وعن يمينه جبال بعيدة متقطعة وبعد س ٦ و ق ٤٧ مرَّ وعن يساره مغربًا جبل ثم أكمة عالية بعيدة تعقبها جبال متسلسلة وبعد س ٨ و ق ٤٠ بحر تاركًا عن يمينه أكمتين ممتدتين إلى الجنوب وعن يساره جبال محدقة وبعد ق ٢٠ مرَّ وعن يمينه بالبعد جبال وأمام الطَّريق جبال متقطعة والأرض في جميع سير هذا اليوم سبخة وبعد س ١٠ و ق ٣٠ جبل هرمي على بُعد ٢٠٠ متر واتجه الطَّريق مبحرًا في أرض بها بعض حشائش وصخور وبعد ق ٧ وجد صعود يسير يعلوه زلط من تلول اليسار الممتدة إلى الغرب المتصلة بجبل اليمين وبعد ق ١٠ هبوط بأرض مرملة، وفي س ١٠ و ق ٤٥ كانت رياضة وسار بعد س ١١ ثم وصل بعد ق ١٠ إلى مكان المحطَّة لكن لفقد الماء بها استمر على السير في أرض سبخة وبعد س ١١ و ق ٣٠ سار في رمل صلب واتساع عن يمينه صخور متكونة من أحجار هائلة وفي يساره بعد ق ١٥ صخور أيضًا تليها على البُعد جبال وبراح متسع يمينًا وبعد س ١٢ و ق ٢٠ نزل للمبيت بواد متسع ذي أرض صلبة يسمَّى (الحبيط) أو ضبعة.

وفي يوم الأحد ١٠ محرم سنة ١٣٠٣ سار بعد س ١٠ وكانت الحرارة ٢٢ درجة ثم انخفضت بعد س ١٢ إلى ١٩ درجة واتجه من الشمال إلى الشمال الغربي في فلاة متسعة سبخة فيها يسير زلط تحيط بها جبال بعيدة والبرد مشتد وبعد ق ٢٠ أشرقت الشَّمس وبعد س ١٢ و ق ٣٠ سار ف أرض يعلوها ملح كثير وأمامه على البُعد أكمات هرميَّة وبعد س ١٢ و ق ٥٥ خف الملح نوعًا وبعد س ٣ اتجه إلى الشمال الغربي في أرض ذات حشائش وبعد س ٣ و ق ٢٠ وصل إلى أحجار كبار.

على اليسار وبعد ق ٥ إلى أرض حجريَّة مستوية وجبل لطيف متسلسل إلى

الغرب وبعد ق ٥ إلى رمل وسنط وبعد ق ٧ إلى أحجار كبار على يساره وجبل هرمي بعيد عن يمينه وبعد س ٣ و ق ٤٠ إلى صخر عضه مستو مع رمل الأرض وبعضه مرتفع وعلى يساره أكمات حجريَّة وعن يمينه أشجار وصخور متقطعة متباعدة عن بعضها بمسافة ومحاذية للطريق وأمامه سلسلة جبال من الشَّرق إلى الغرب وبعد س ٤ استراح وبعد س ٤ و ق ٤٠ سار في أرض ذات زلط يسير وبعد ق ١٠ مرَّ على جبال صغار متفرقة عن اليمين وبعد س ٥ و ق ١٠ مرَّ على زلط خفيف عند مبدأ جبل مشرق يمينًا وجبال قريبة مبحّرة وكانت مسافة السير نحو ٤٠٠٠ متر في السَّاعة وبعد ق ١٥ استراح، وفي س ٥ و ق ٤٠ سار وبعد ٥ دقائق مرَّ على سنط كبير مسافته ٢٠٠ متر أكثره على اليمين وبعد س ٦ على تل حجري عن يساره وبعد س ٦ و ق ١٢ بين سلسلة جبال شرقيَّة غربيَّة وعلى الجانبين تلال مع صعود وهبوط يسيرن وبلغت الحرارة ٣٤ سنتجراد وبعد س ٦ و ق ٤٠ على تلك صغير عن اليمين والآخرين على اليسار ببعد، وبعد س ٧ و ق ٢٥ على حشائش متجهًا إلى الشمال الغربي مغربًا على سلسلة أكمات عالية مشرقة مغربة وبعد س ٨ و ق ٥ صعد على محجر كثير الزلط مشرقًا نحو ق ٥ ثم اتجه مغربًا تاركًا عن يمينه الجبال في براح من الأرض يعلوه زلط يسير وبعد س ٨ و ق ٢٦ مرَّ على سنط على يساره وبعد ق ٢٢ انتهى جبل اليمين وظهرت أمامنا جبال على البُعد مبحرة مغربة في س ٩ وزلط كثير وبعد ق ٤ في هبط إلى أرض متسعة ذات حشائش وبعد س ٩ و ق ١٥ وصل إلى محطَّة (السفينة) بتشديد الياء فنزل بها بجوار نخيل وآبار عذبة الماء ومزارع وعشش وسوق مُعد للبيع والشراء.

وفي يوم الاثنين ١١ منه سار س ١٢ و ق ١٥ والحرارة ١٧ سنتجراد متجهًا إلى الشمال الغربي تاركا الجبال عن يمينه وبعد س ١٢ و ق ٤٠ صعد في محجر صعب كثير الأحجار وبعد س ١ و ق ١٢ انتهى المحجر واتجه مبحرًا وبعد س ٢ و ق ٧ مرَّ

على زلط بين جبال من الجهتين وبعد ق ٦ صعد وبعد ق ١٥ هبط وبعد ق ٧ اتجه مغربًا ثم بعد ق ٧ أخرى صعد في ملتقى جبلين وبعد ق ٨ هبط واتجه مبحرًا ثم مال إلى الغرب الشمالي وبعد س ٢ و ق ٥٥ انتهى جبل اليسار وظهر غيره متسلسلًا على بعد وحشيش صالح لمرعى الجمال وبعد س ٣ و ق ٣٥ اتجه إلى الشمال وبعدت جبال اليمين نوعًا مارًّا بين حشائش وسنط وبعد ق ٣٠ كثر السنط وبعد س ٤ و ق ٢٠ مرذ على زلط ثم حشيش وبعد ق ٥ اتجه إلى الشمال الشَّرقي عن يمين جبل هرمي بعيد وقلت الجبال من الجهتين وبعد س ٤ وق ٣٠ مرَّ في واد متسع وبعد س ٥ و ق ١١ على جبل يمينًا واتجه إلى الشمال وبعد ق ٩ مر في صعود سهل وانعطف إلى الشمال الشَّرقي وبعد س ٥ و ق ٢٥ أفضى على الصعود إلى واد متسع تاركًا الجبل المار ذكره عن يمينه ومتجهًا إلى الشمال وبعد ق ٥ شرق تاركًا درب الطَّريق المعتاد عن يساره وبعد س ٥ و ق ٣٧ مر الرَّكب وعن يمينه جبل متجه إلى الشمال في انحدار يسير ذي زلط وبعد س ٥ و ق ٥٥ نزل للرياضة وبعد س ٦ و ق ٣٠ سار وبعد ق ٢٠ اتسع الوادي وبعد س ٧ مال الطَّريق إلى الشمال وبعد ق ٨ سار في سبخ ذي ملح وعن يمينه بمسافة ذات بعد يسير جبل وبعد س ٧ و ق ٣٠ سار في سبخ ثم رمل ثم حشائش وبعد س ٨ في سبخ متسع يعلوه ملح وبعد س ٩ انتهى الملح والسباخ وهذه الطَّريق أقصر من الطَّريق السوبرجيَّة ولم يمر منها الرَّكب لكون موقعها على اليسار بمسافة كبيرة وبعد س ١٠ و ق ٤٠ مرَّ على بعض حشائش وسنط وبعد س ١٠ و ق ٥٠ نزل للرياضة وبعد السَّاعة ١١ و ق ٥ سار وبعد س ١ من اللَّيل مر بمحطَّة العام الماضي التي لا ماء فيها تاركًا عن يمينه جبالًا متسلسلة إلى الشَّرق وبعد س ١ و ق ٣٠ مرَّ في أرض مرملة ذات زلط يسير، وفي س ٢ مرَّ على سنط وحشيش وبعد س ٢ و ق ٢٠ نزل الرَّكب في أرض متسعة بها على يسير من البعد جبال ولا ماء بها تسمَّى أرض (السوبرجيَّة) وقد ناله تعب شديد من العربان

الجمالة لهزال جمالهم من قلة العلف وفقدهم الحبال الكافية لشد الأحمال ومن كن كل عشرة من الجمال بل أزيد ليس لها إلا جمال واحد يتعسر عليه تحميلها وحده فأصحاب الأحمال من عساكر وفراشين وضويَّة وعكامة يحملون جمالهم بأنفسهم وجمال سائر المتوظفين ولولاهم؛ لكان المتوظفون يحملون جمالهم بأيديهم ومع هذا يغضب الجمال من أدنى شيء ويسل سيفه على الخدمة فيجتمعون عليه ويأخذون منه السيف قهرًا ويأتوني به فكنت إطفاء للفتنة أسترضيهم للاحتياج إلى أباعرهم التي لا وجود لغيرها في هذه الأراضي المنقطعة امتثالًا للحديث **((رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس))** وعملًا بقول بعض البلغاء: دارهم ما دمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم ولم يمر يوم إلا وترفع إلي منهم شكوى على أدنى سبب ومتى أراد أحد من الخدمة الركوب على الجمل الذي عليه متاع قليل تشاجر معه الجمال ومنعه من الركوب وركب هو وترك هذا الخادم ماشيا ويقول الجمال إن الجمل جملي وأنا أحق بأن أركب على المتاع من الخادم ولم يرض الجمالون بركوب الخدامين إلا بشق الأنفس وبشرط أن يتناوبوا معهم في الركوب وما زالوا ينغصون على الراكب والماشي فلا يبلغ أحد من الحجَّاج أربه منهم إلا بعد كل مشقة مع الانقياد لأغراضهم الفظيعة فيندم الحاج على السَّفر للحج الذي أحوجه إليهم فكلهم جماعة حفاة عراة ليس عيهم ثياب إلا القمص الرثة الأكمار والأردية الحمر وترى الأمراء منهم يتجملون إذا دخلوا البلدان بأفخر الملبوس من مقصب ومزركش وحرير وفي الطَّريق تراه صعلوكًا حافيًا أسوأ حالًا من الفقراء وما منهم أحد إلا ومعه سلاح من سيف أو خنجر أو طبنجات ليخيفوا بذلك الركاب ويثبوا على الضعيف وثوب الكلاب وعندهم السرقة شطارة والخيانة إمارة قاتلهم الله أنى يؤفكون، وفي يوم الثُّلاثاء ١٢ محرم سنة ١٣٠٣هـ سار الرَّكب بعد س ١٢ و ق ٤٠ والحرارة ١٩ سنتجراد في واد متسع أرضه ثابتة وفيها حشيش يعلوه زلط خفيف محاط بجبال

بعيدة متجهًا إلى الشمال الغربي وبعد س ٢ و ق ٣٠ صعد بين جبلين إلى واد آخر متجهًا إلى الشمال عن يمين جبل هرمي وبعد س ٥ مرَّ في محجر مسافته ق ٣ مشرقًا ثم مبحرًا مائلًا إلى الشمال الشَّرقي ثم مبحرًا بين أكمات وزلط وشجر وبعد س ٥ و ق ٥٠ بين جبال على الجانبي من الشَّرق إلى الغرب مدة ق ٦ ثم مال قليلًا إلى الشَّرق الشمالي وبعد س ٦ اتجه إلى الشمال الشَّرقي مع تلال حجريَّة وبعد ق ٣ اتجه إلى الشمال وبعد س ٦ و ق ٢٥ مرَّ بالقرب من جبل على اليمين وعن يساره على البُعد جبلان هرميان واستمر في طريق متسعة ذات أحجار صخريَّة وسنط كبير وبعد س ٧ نزل الرَّكب للاستراحة بجوار حفائر ماؤها عذب والحرارة ٣٦ سنتجراد وبعد س ٧ و ق ٥٠ سار وبعد س ٨ و ق ٩ مر في محجر يسير ثم في سنط كثير وبعد ق ١٠ هاج الجمالة والعساكر وشاع في الرَّكب أن العربان نزلت من الجبال على أواخر الحجَّاج فنهبوا جملًا وقتلوا مقومًا وعسكريًّا فتقهقر أحد المدافعين إلى الوراء ثم انكشف عن أن الشَّريف الذي انتدبه سعادة شريف مكَّة ليحمينا ويمنعنا من أذى العربان إلى أن نصل المدينة بقي جالسًا بجانب إحدى الحفائر حتى سار الرَّكب وغاب عن العيون فنزلت عليه العربان من الجبل المجاور لهذه الحفائر الذين من دأبهم اتباع القوافل والمحامل في الخفية مدة خمسة أيام فأكثر ليسلبوا من يتأخر منهم ماله وجماله التي لا يتركونها ولو ماتت ليسلخوا جلودها وحالًا أطلقوا الرصاص على هجين لهذا الشَّريف فقتلوها وسلبوا أخرى مع حملها ففر إلى جهة الرَّكب على هجين أخرى وتلاحق به أتباعه وعدوا السَّلامة غنيمة فحمدوا الله على نجاتهم وحكوا ما جرى لهم مع أن وظيفة هذا الشَّريف حفظ الرَّكب من هؤلاء الأعراب وحراسته من هذه الذئاب فقلت:

سلب الذي قد قلدوه محاميًا ... للركب حتى صار تحت حمايته

ومن هذا المعنى قول بعض العوام

طلعـــت تجـــري يـــا مغـــرور لأجـــل كيـــد الرجالـــة
أخـــذوا طقيتـــك يـــا مـــسكين وجيـــت براســـك عريانـــة

اللهباء

كما أن قبيلة من العرب تسمَّى اللهباء ما بين رابغ والمدينة حرفتها السرقة والنهب قديمًا ويتبعون القوافل من مكَّة إلى المدينة ذهابًا وإيابًا ويختفون نهارًا في الجبال وفي اللَّيل يسرقون الحجَّاج وبعد انقضاء الحج يبيعون سرقتهم من الأمتعة الثمينة بأدنى قيمة، ومن عاداتهم إذا تزوج منهم أحد يمهل زوجته بالمهر إلى آخر موسم الحج ليدفعه من سرقته وبعد س ٩ و ق ٥٠ سار الرَّكب في محجر ذي زلط كبير كثير واتجه مبحرًا بين جبال قريبة من جهة اليمين وبعيدة من جهة اليسار وبعد ق ٥ في زلط صغير وبعد س ١٠ و ق ٦ مرَّ الرَّكب في محجر متسع وجبال كالسَّابقة وبعد ق ١١ اتجه إلى الشمال الغربي مارًّا على زلط كثير وبعد س ١٠ و ق ٣٥ اتجه مغربًا في واد متسع وبعد س ١٠ و ق ٥٥ كثر الشجر ووصل إلى مهبط ذي انحدار ومنه إلى مصعد من محجر إلى أحجار كثيرة بين تلال منخفضة المسير منها مستصعب ممتدة ومائلة إلى الجنوب الغربي وصعوبة المسير من تراكم الأحجار واعوجاج الدرب وبعد س ١١ و ق ٢٠ سهل الدرب نوعا وبعد ق ١٠ مرَّ من مهبط صعب حجري إلى خور وقبل مصعدًا ولولا عدم الأمطار لكان السير خطرًا وبعد ق ٨ انتهى الصعود واتجه مغربًا في أحجار كثيرة ذات اتساع كبير بين جبال وبعد س ١٢ نزل الرَّكب للمبيت بمحطَّة (لحجريَّة) الكثيرة الحجارة أسفل جبل بعيد عن الآبار بربع ساعة.

وفي يوم الأربعاء ١٣ منه سار س ١٢ و ق ٥٠ مبحرًا في سنط وعن يساره جبال

وبعد س ١ و ق ٥ اتجه إلى الشمال الشَّرقي في أرض متسعة ذات جبال على اليسار وبعد ق ٥ بحر في براح ذي زلط يسير وبعد س ١ و ق ٤٠ مرَّ على أشجار كثيرة وبعد ق ٢٠ على زلط كبير كثير مسافته ٥٠ مترًا متجهًا بانحراف إلى الشمال الشَّرقي وبعد س ٢ و ق ١٠ انتهت الجبال واتسع الوادي في أرض مستوية صلبة متجهًا تقريبًا إلى الشمال عن يسار السنط وبعد س ٣ مرَّ في سنط كثير مع الميل تارة إلى الشَّرق الشمالي وبعد س ٤ و ق ٢٥ في سنط وعن يمينه آكام من الزلط وبعد س ٤ و ق ٥٨ على أحجار سود متسلسلة من الشَّرق إلى الغرب وبعد س ٥ و ق ٦ انتهت الأحجار وبعد ق ٧ مرَّ وعن يمينه أحجار وسنط إلى براح وبعد س ٥ و ق ٢٠ إلى زلط مسافته كبيرة ثم إلى براح وسنط عن اليمين وبعد س ٥ و ق ٤٥ إلى براح مستوٍ خال من الشجر وبعد ق ٨ إلى زلط منتشر وسلسلة مشرقة مغربة وبعد س ٦ انتهى المرور والهبوط منها وبعد ق ٣ مر في واد به حشيش وبعد س ٦ و ق ١٥ استراح وكانت الحرارة ٣٢ سنتجراد وبعد س ٦ و ق ٤٧ سار وعن يساره تل عال وخلفه جبال بعيدة مبحرة وبعد س ٧ وق ٥ صار التل المذكور عن يمينه واتجه السير إلى الشمال قريبًا من أحد الجبال المذكورة في أرض مرملة ذات حشائش وبعد س ٨ و ق ٤٣ مرَّ على شجرة سنط كبيرة منفردة ذات اليمين وبعد ق ٥ على تلال من زلط شبهة بجسر على ذات اليسار بعضها متجه إلى الغرب وبعضها إلى الشمال وبعد س ٩ و ق ٣٥ مر على تلال على اليمين متجهًا إلى الشمال الغربي وبعد ق ٥ على تلال عن اليسار وعلى جبال ذات اليمين بعيدة في أرض ذات رمل ثابت وبعد س ١٠ على جبل عن اليمين مشرقًا وبعد س ١٠ و ق ٣٠ نزل للمبيت عن يسار تلال بمحطَّة (غرابة) في واد متسع مجرد عن المياه ومياه هذه الطرق باردة كلها تحمل الشارب على تناول مقدار كبير منها لاحتوائها على أملاح كيماويَّة كالصودا وكبريتات الباريتا وهي لزجة ولا ترغي الصابون ما عدا مياه وادي الليمون ومياه الحجريَّة، وبعد س ٩ و ق ٣٠

من اللَّيل سار وبعد س ١١ و ق ٣٠ مرَّ على تلال عن اليمين وبعد س ١٢ حط لصلاة الصبح وبعد ق ٣٠ سار متجهًا إلى الشمال الغربي.

وفي يوم الخميس س ١ و ق ٢٥ مرَّ على حشيش كثير وبعد ق ٢٥ اتجهت جبال اليمين إلى الشَّرق وعلى اليسار جبال بعيدة وبعد س ٢ و ق ١٠ مرَّ وعن يساره تلال منخفضة وبعدت جبال اليمين وبعد س ٢ و ق ٣٠ ابتدأت عن اليسار تلال متجهة إلى الغرب وبعد دقيقتين اتسع الوادي وبعد س ٣ و ق ٢٠ صعد يسيرًا على تلال مستحجرة وبعد ق ٥ انحرف الاتجاه مغربًا بين تلال ثم اعتدل إلى الشمال الغربي وبعد س ٣ و ق ٣٥ مرَّ بين تلال عن اليمين وجبال عن اليسار مقبلة وبعد ق ٥ مرَّ بين سلسلة جبال في أرض متسعة فيها زلط كثير وبعد ق ٥ أخرى ابتدأ عن اليمين جبل مُبحر وعن اليسار براح بعد س ٤ نزل الرَّكب للرياضة وبعد س ٤ و ق ٣٥ سار إلى الشمال الغربي إلى براح في أرض سهلة صلبة واتسع الوادي وتباعدت الجبال وكانت الحرارة ٣٣ سنتجراد وبعد س ٦ و ق ٤٥ مرَّ على تلال عن اليسار متسلسلة إلى الغرب وبعد س ٧ و ق ٣٠ تقاربت التلال وبعد س ٩ و ق ١٥ مر وعن يمينه جبل على بعد ٢٠٠٠ متر متسلسل إلى الشَّرق وبعد س ١١ و ق ٥ مر وعن يمينه جبل وبعد ق ١٠ مرَّ بين جبال متسلسلة من الشَّرق إلى الغرب ترى من بعد ٥ ساعات لاستواء الأرض متجهًا بين الغرب والشمال الغربي وبعد س ١٢ اتجه إلى الشمال ثم إلى الشمال الشَّرقي ثم بعد ق ١٠ إلى الشمال الغربي بين جبال في أرض يعلوها زلط وبعد س ١٢ و ق ٤٠ مرَّ في انحدار متناسب وانعطفت الطَّريق على حسب الجبال ثم في محاجر وبعد س ١ من اللَّيل اتجه إلى الغرب وبعد س ١ و ق ٤٠ نزل للمبيت بمحطَّة (الغدير) أو الحنق المسمَّاة بالحنق أيضًا بواد متسع بين جبال وهناك على بُعد ست دقائق بركة من ماء المطر في سفل جبل من الصخر طولها مائة متر وعرضها عشرة أمتار تمتلئ من قناة بين جبلين ماؤها عذب يرغي الصابون.

وفي يوم الجمعة ١٥ محرم بعد س ١ و ق ٢٥ سار مغربًا تقريبًا ثم اتجه إلى الشمال الغربي بين جبال تارة إلى الشمال وتارة الغرب وبعد س ١ و ق ٥٠ اتجه إلى الغرب وبعد ق ١٠ بين الشمال والشمال الغربي في متسع نوعًا مع الاستواء وبعد س ٢ و ق ٣٠ تارة إلى الغرب وتارة إلى قبلي وبعد ق ١٠ سار في صعود سهل إلى أرض مستوية فيها عن اليمين جبال متجهًا بين الغرب والقبلي الغربي وبعد س ٣ و ق ١٥ استقام إلى الغرب وبعد س ٣ و ق ٣٥ هبط في محجر بين جبلين وبعد س ٤ سار في زلط كثير وهبط إلى واد ذي زلط عن اليسار وبعد ق ١٥ اتجه إلى الشمال الغربي على أحجار منتشرة في جميع الوادي فلولا آثار الجمال لصعب المرور ومن هذا الطَّريق جدًّا لا سيما مع الأمطار وبعد س ٤ و ق ٤٥ انحرف بين الشمال والشمال الغربي وقلت الأحجار ثم بعد ق ١٥ كثرت وبعد س ٥ و ق ٨ هبط إلى منخفض صعب لكثرة أحجاره وهذا الوادي يسمَّى الحادة، وبعد س ٥ و ق ٤٠ اتجه إلى الشمال الغربي في أحجار كثيرة مع هبوط قليل وبعد س ٦ و ق ١٥ اتجه إلى الغرب على جبل كبير مبحر عن آخرين وبعد س ٧ مر في منحدر خفيف وعن يمينه تل وبعد ق ٧ صعد قليلًا إلى سطح متسع وبعد س ٧ و ق ٢٥ انتهت الأحجار وهبط إلى أرض مرملة تُعرف بغدير الأغوات ذات شجرة من السنط وبعد س ٧ و ق ٣٠ كانت رياضة والحرارة ٣٨ سنتجراد وبعد س ٨ و ق ١٥ سار وبعد ق ٢٠ عبر على تل خفيف وبعد س ٨ و ق ٥٧ مرَّ على خور متسع أرضه ثابتة ذات استواء تصلح للزراعة وبعد ق ٥ صعد في محجر صعب إلى أرض كثيرة الأحجار وبعد س ٩ و ق ١٣ هبط إلى رمل وزلط متجهًا إلى الغرب على جبل (أُحد) وبعد س ٩ و ق ٣٠ وصل إلى هبوط يسير وبعد س ٩ و ق ٤٨ وصل إلى صعود وبعد س ١٠ و ق ٥ اتجه بين الغربي والقبلي الغربي وبعد س ١١ و ق ١٨ سار بين تلال وبعد ق ١٥ بين جبال جبل أُحد عن اليمين وجبل صغير عن اليسار وبعد س ١٢ و ق ١٠ مرَّ على عدة آبار

متجهًا إلى الجنوب الغربي وبعد ق ٥ نزل للبيت بعيدًا عن مسجد سيِّدنا (حمزة) رضي الله عنه.

وفي يوم السَّبت س ١ و ق ٢٠ وصل إلى قريب منه ثم انعطف إلى اليسار حتى بلغ أمام باب المدينة المسمى بالعنبريَّة س ٣ وربع ونزل بمكانه المعتاد سنويًّا والعساكر الشاهانيَّة مصطفة على جانبي الطَّريق خارج الباب لاستقبال المحمل وموسيقاهما تتغنى بكل الألحان والأنغام فرحًا بالوصول إلى أرفع مقام.

دخول المدينة

وفي السَّاعة الثَّانية من صبيحة يوم الأحد دخل المحمل المدينة النَّبوية واكبًا من باب العنبريَّة محاطًا بالخيالة وأمامه العساكر الشاهانيَّة وعساكر المحمل وموسيقاهما في غاية الانتظام وأهل المدينة فرحون يتفرجون بالسرور التام والمحمل يتبختر تبختر العروس حتى وصل (المناخة) كما هي عادته في كل عام فأطلق من الطوبخانة أحد عشر مدفعًا للسلام وعند دخوله من الباب (المصري) ترجل كل راكب إجلالًا لصاحب المقام وقام كل قاعد ومر في شارع المدينة والبخور أمامه صاعد حتى وصل إلى باب (السَّلام) وصعد الجمل على السلم في متسع بقدر مبركه مع الرَّاحة فاستلم شيخ الحرم سعادة عادل باشا من المحاملي الزمام وأناخه أمام العتبة التي تحيا بالقبل فرفع الحمل من فوق الجمل وأدخل الحرم الشَّريف إلى محله المعين في كل عام بالقرب من المنبر النَّبوي فرفع عنه متوظفوه كسوته وحملوها بمفرداتها بعد أن لبسوا الجبب البيض والأحزمة والعمائم مع غاية التأدب والاحتشام حتى أدخلوها حجرة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام من الباب (الشامي) وتركوها في بقعة السَّيدة (فاطمة) رضي الله عنها بجوار ضريحه الشَّريف وأما البيرق فوضع بجوار الفجوة

الكائنة عند الرأس الشَّريف وترك هناك وبعد أن دعوا الله مخلصين خرجوا من باب السَّيدة فاطمة رضي الله عنها مسرورين بزيارة حرم سيد الأنام حامدين شاكرين للملك العلام على هذا الإنعام وتوجه كل أحد لشأنه سواء إلى محله أو لزيارة حرم خير الأنام.

المناخة

ولنشرح الآن ما تيسر لنا معرفته من المدينة المنوَّرة والحرم المدني وكيفيَّة الزِّيارة فأقول: (المناخة) محل متسع من ضمن المدينة يقفل به الحاج وبينها وبين المدينة سور به باب كبير عليه خفر يوصل أيضًا لداخل المدينة يسمَّى الباب (المصري) الذي دخل منه المحمل بموكبه كما سبق وبجانبه بالمناخة وكالتان وقهاوي من أخشاب وسوق الغلال والمواشي ويرى بداخل سور المدينة قبة بيضاء وهي مقام سيدي (أبي سعيد مالك بن سنان) صاحب لواء رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبشرقي المناخة الطوبخانة وباب المدينة المسمى بالباب (الشامي) وببحريها أماكن وجامع الإمام علي كرم الله وجهه وبها أيضًا جامع صغير يقال له: جامع (الغمامة) لأنه صلَّى الله عليه وسلَّم صلى به في يوم شديد الحر فظللته من الشَّمس غمامة مدة صلاته وباب السور المذكور يُغلق عند صلاة الجمعة لتكون الصَّلاة متفقًا عليها عند الأئمة حيث إن الشافعي رضي الله عنه لا يقول بتعدد الخطبة ولذلك السادة الشافعيَّة يصلون الظهر عقب صلاة الجمعة في البلدة التي تعددت بها المساجد الجامعة ولم يكن بالمدينة مسجد جامع غير الحرم الشَّريف وهذا علة غلقهم باب السور المذكور عند صلاة الجمعة لتصير المناخة منفصلة كبلدة أخرى ثم إني بعد النزول بالمناخة دخلت من باب المدينة إلى السوق وهو غير منتظم عرضه تارة أربعة أمتار وتارة أقل وعلى طرفيه دكاكين صغيرة مرتفعة عن الأرض بمتر واحد على هيئة قيسريَّة تعلوها

أماكن ويمتد هذا السوق على خط غير مستقيم نحو أربعمائة متر وينتهي إلى باب الحرم المسمى بباب (السَّلام) ويتصل بهذا السوق أزقة موصلة لداخل المدينة عرض أغلبها متران وبيسار باب السَّلام سوق آخر موصل لباب آخر للحرم من الغرب ويسمَّى (باب الرحمة) وباقي الأبواب ليست بالأسواق.

كيفيَّة الزِّيارة

والزَّائر لحرم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يصطحب بأحد المزورين أعني: المرشدين للزوار على رسوم الزِّيارة لديهم أدعية مأثورة تتلى ويدعى بها عند كل مشهد والمزور بالمدينة كالمطوف بمكَّة ولولاهما لم ينتظم للحجاج بهذين البلدتين حال ويدخل برفقته الحرم الشَّريف النَّبي برسم الزِّيارة من باب السَّلام واضعًا يديه على صدره متوجهًا إلى ناحية الرَّوضة الشَّريفة سائرًا في طرقة مفروشة بالمرمر وتنتهي إلى ما وراء حجرته عليه السَّلام وعلى يساره المسجد بعمد مزخرفة بشكل جميل ظريف مفروشًا بالأبسطة الثمينة وفيه المنبر والمحراب الشَّريف وهو يقول:[1] «اللَّهمَّ أنت السَّلام ومنك السَّلام وإليك يرجع السَّلام فحينا ربنا بالسَّلام وأدخلنا الجنَّة دارك دار السَّلام تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» فيمر من بين المنبر والمحراب الشَّريف ويصلي ركعتين تحيَّة المسجد بالبقعة الكائنة بين المنبر والحجرة النَّبوية وتسمَّى (بالرَّوضة المطهرة) التي قال في حقها عليه الصَّلاة والسَّلام: **((ما بين حجرتي ومنبري روضة من رياض الجنَّة))** ويدعو بعد صلاته ويقول: «اللَّهمَّ إن هذه الرَّوضة من رياض الجنَّة شرفتها وكرمتها ومجدتها وعظمتها ونورتها بنور نبيك وحبيبك سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، اللَّهمَّ كما بلغتنا في

(١) التوسل الذي ذكر أنه يقال عند الحرم النبوي لا يخلو من الشرك.

الحياة قبل الممات زيارة نبينا ومآثره الشَّريفة فلا تحرمنا يا الله في الآخرة من فضل شفاعته واحشرنا في زمرته وأمتنا على محبته وسنته، واسقنا يا الله من حوضه المورود بيده الشَّريفة شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبدًا إنك على كل شيء قدير، برحمتك يا أرحم الراحمين» ثم يخرج من باب (الرَّوضة) الذي بين المحراب النَّبوي والحجرة الشَّريفة ويدخل في الطرقة التي كان بها ويتوجه إلى شباك (التوبة) قائلا: «رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرًا» ويقف أمامه وهو الشباك المتوسط بين شباكين من نحاس منقوش كالشبك مكتوب عليها آيات قرآنيَّة لأنه دائر ما يدور الحجرة من داخل شبكة من الفضلة ومذهبة أهداها السلطان أحمد وذلك الشباك مواجه للقبر الشَّريف يقفون أمامه للزيارة وهو من ضمن أبواب الحجرة النَّبوية مكتوب عليه بالخط الجلي المشبك هذان البيتان.

(من عوَّد الناس بإحسانه ... وعمَّ بالفضل جميع الأنام
تزاحم الناس على بابه ... والمنهل العذب كثير الزحام

وبهذا الشباك ثلاث طاقات مستديرة في اتساع اليد يرى من الأولى (الكوكب الدري) المعلق على ستر المقام الشَّريف من داخل الحجرة على علو ذراع من الأرض وهو قطعة من حجر الماس كبير كبيضة الحمامة في وزن ٩٢ قيراطا قيمته اثنا عشر ألف دينار هديَّة من السلطان أحمد سنة ١٠٢٢ وبأسفلها فص زمرد كبير مثمن وهما في شبكة من الذهب معلقان بالمواجهة الشَّريفة ومن تحتهما فجوة صغيرة مستورة بستائر المقام يوضع فيها تراب الصندل في السَّابع عشر من ذي القعدة الحرام في كل عام وعند دوران الحول تقتسمه الأغوات ويعطون منه الزوَّار بقصد التبرك ومن العادة الجارية في المدينة أنهم يضعون في هذه الفجوة كل مولود يوم أربعينه ويسبلون عليه الستر كما أن أهل مكَّة يضعون المولود كذلك على عتبة الكعبة المشرفة.

والبرزخ الشَّريف بعيد عن الشباك بقدر ثلاثة أذرع معماريَّة يقف الزَّائر بعيدًا

عن الشباك المذكور بذراعين أمام الطاقة الأولى واضعًا يديه على صدره شاخصًا لجهة خير الأنام داعيًا بما يلقنه المزور فيقول: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم الصَّلاة والسَّلام عليك يا سيد الأنام ومصباح الظلام وقمر التمام ورسول الله الملك العلام، الصَّلاة والسَّلام عليك يا من كلمك الحجر وانشق لك القمر وسعى إلى إجابتك الشجر الصَّلاة والسَّلام عليك يا سيِّدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا وملاذنا وقرة أعيننا يا سيدي يا رسول الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا نبي الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا حبيب الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا من بسيف النصر قلدك الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا شفيع المذنبين عند الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا أول خلق الله وخاتم رُسل الله، الصَّلاة والسَّلام عليك يا محمَّد يا بن عبد الله يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا طه يا يس يا بشير يا نذير يا سراج يا منير يا مقدم جيش الأنبياء والمرسلين، أتيناك زائرين وقصدناك راغبين وعلى بابك وأعتابك واقفين لا تردنا خائبين ولا عن باب شفاعتك محرومين، الصَّلاة والسَّلام عليك يا من أنزل الله على قلبك {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرَّسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا} وها أنا يا رسول الله قد جئتك هاربًا من ذنبي ومن عملي ومستجيرًا ومتشفعًا بك إلى ربي فاشفع لي يا شفيع الأمة، اشفع لي يا كاشف الغمة[1] أنت الشفيع أنت المشفع،

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته عند الصراط إذا ما زلَّت القدم

نشهد أنك قد بلغت الرِّسالة وأدَّيت الأمانة ونصحت الأمة وجليت الظلمة وجاهدت في سبيل الله حق جهاده، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، نسألك الشفاعة أن تشفع لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولمن علمنا ولجيراننا ولمن أوصانا واستوصانا، وقلدنا عندك بدعاء الخير والزِّيارة والصَّلاة والسَّلام عليك سلطان

(١) هذا العبارات ينفرد بها سبحانه وتعالى دون سائر خلقه.

الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين».

ثم يتقدم خطوة إلى اليمين حتى يحاذي الدَّائرة الثَّانية وهي بمواجهة سيِّدنا (أبي بكر) رضي الله عنه ويقول: «السَّلام عليك أيها الصديق الأكبر والعلم الأشهر وخليفة رسول الله في الحضر والسَّفر، السَّلام عليك يا سيِّدنا أبا بكر الصديق، السَّلام عليك يا صديق رسول الله على التحقيق، السَّلام عليك يا مفرج كل هم وغم وكرب وضيق، السَّلام عليك يا صاحبه في الغار وفي الحضر والأسفار، السَّلام عليك يا من قال الله في حقه: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} السَّلام عليك يا من قال في حقه سيد البشر: **((ما طلعت الشَّمس ولا غربت بعد النَّبيين على رجل أفضل من أبي بكر))** السَّلام عليك يا من أنفق ماله كله في حب الله وحب رسوله حتى تخلل بالعباء، رضي الله تعالى عنك وأرضاك وأحسن الرضا وجعل الجنَّة منزلك ومسكنك ومحلك ومأواك، وجزاك الله عنا أفضل الجزاء، السَّلام عليك يا أول الخلفاء وتاج العلماء وعلى صهرك النَّبي المصطفى ورحمة الله وبركاته» ثم يتزحزح إلى اليمين خطوة ويحاذي الدَّائرة الثَّالثة المواجهة لسيِّدنا (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه ويقول: «السَّلام عليك يا فاروق الدِّين وكهف المستخلفين، من أتم الله به الأربعين وأنزل في حقه: {ياأيها النَّبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}، السَّلام عليك يا سيِّدنا عمر بن الخطاب، السَّلام عليك يا حنفيّ المحراب، السَّلام عليك يا مكسر الأصنام، السَّلام عليك يا مظهر دين الإسلام، السَّلام عليك يا من فر منه الشيطان، السَّلام عليك يا من قال في حقه سيد البشر: ((لو كان نبي بعدي؛ لكان عمر)) السَّلام عليك يا سراج أهل الجنَّة، جزاك الله عنا أفضل الجزاء رضي الله تعالى عنك وأرضاك أحسن الرضا، وجعل الجنَّة منزلك ومسكنك ومحلك ومأواك، السَّلام عليك يا ثاني الخلفاء وتاج العلماء وعلى صهرك المصطفى ورحمة الله وبركاته» ثم يتوجه شرقي المقام من الطرقة

الثَّانية أمام الشباك الوسطاني من الثلاثة شبابيك التي هي شبابيك (مهبط الوحي) والستائر المحيطة بالمقام الشَّريف ترى من جميع هذه الشبابيك مسدولة إلى الأرض متصلة بمحيط قاعدة القبة الشَّريفة بحيث لا يرى الزَّائر القبة من داخل الحرم أيًّا كان وعند هذا الشباك يسلم على الملائكة الأربعة الكرام ويدعو ويقول: «السَّلام عليك يا سيِّدنا جبرائيل، السَّلام عليك يا سيِّدنا ميكائيل، السَّلام عليك يا سيِّدنا إسرافيل، السَّلام عليك يا سيِّدنا عزرائيل، السَّلام عليك يا ملائكة الله المقربين المشرفين المعظمين المنورين من أهل السموات وأهل الأرضين، يا ربنا يا كريم يا حليم يا رءوف يا رحيم أتمم لنا نورنا واغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين»، ثم ينتقل لجهة اليمين إلى الشباك الثَّالث ومنه إلى باب يُقال له: باب السَّيدة (فاطمة) رضي الله عنها، ويسلم ويدعو بقوله: «السَّلام عليك يا سيدتنا فاطمة الزهراء السَّلام عليك يا ابنة رسول الله، السَّلام عليك يا ابنة نبي الله، السَّلام عليك يا ابنة المصطفى، السَّلام عليك يا سيدة النساء، السَّلام عليك يا خامسة أهل الكساء، رضي الله تعالى عنك وأرضاك أحسن الرضا، السَّلام عليك وعلى أبيك المصطفى وبعلك المرتضى وابنيك الحسنين ورحمة الله وبركاته» وبجوار هذا الباب من الداخل البقعة التي سيدفن فيها عيسى ابن مريم عليه السَّلام بعد نزوله من السماء ولم تكن السَّيدة فاطمة رضي الله عنها مدفونة تجاه هذا الباب وإنما هو من أبواب الحجرة الشَّريفة تسمَّى بها وهي مدفونة بالبقيع بجوار العبَّاس عم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم على القول الصحيح، وهذا الباب مُعد للدخول إلى الحجرة النَّبوية في كل ليلة للخدمة ثم بعد أن يدعو الزَّائر هناك يستديره ويسلم على أهل (البقيع) لأن البقيع من وراء هذه الجهة خارج المدينة مُعد لدفن أمواتها ويدعو قائلًا: «السَّلام عليك يا أهل البقيع يا أهل الجنَّة الرفيعة، أنتم السَّابقون ونحن إن شاء الله تعالى بكم لاحقون أبشروا بأن السَّاعة آتية لا ريب فيها

وأن الله يبعث من في القبور، آنسكم الله ثبتكم الله بقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمَّد رسول الله»، ثم يلتفت إلى شماله ويستدبر القبلة ويستقبل جهة جبل (أُحد) ويسلم على سيدي (حمزة) عم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى الشُّهداء ويقول: «السَّلام عليك يا سيِّدنا حمزة، السَّلام عليك يا عم رسول الله، السَّلام عليك يا عم نبي الله، السَّلام عليك يا عم المصطفى، السَّلام عليكم يا شهداء يا سعداء يا نجباء يا أصفياء يا أتقياء يا أهل الصدق والوفاء جاهدتم في سبيل الله حق جهاده وعبدتم ربكم حتى أتاكم اليقين، السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، ثم يرجع القهقرى إلى مبدأ هذه الجهة حتى يأتي (قبلة المدعي) ويدعو الله بما شاء بدون واسطة المزور، أو يقول: «اللَّهمَّ يا الله يا الله يا حنان يا منان يا ديان يا سلطان يا برهان يا مستعان يا قديم الإحسان، يا من علمه في كل مكان، يا من إذا سُئل أعطى وإذا استعين أعان، اللَّهمَّ اكتب السَّلامة والعافية علينا وعلى عبيدك الحجَّاج والغزاة والزوَّار والمسافرين والمقيمين في برِّك وبحرك من المسلمين واغفر لأمة محمَّد أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم يستدير على يمينه ويتوجه إلى مواجهة الشباك (النَّبوي) ويدعو ثانيًا ويقول: «اللَّهمَّ إني أسألك وأتوسل إليك بجاه نبيك[1] المصطفى أن ترزقني يا إلهي إيمانًا كاملًا ويقينًا صادقًا وعلمًا نافعًا وبدنًا ناصحًا وقلبًا خاشعًا وولدًا صالحًا ورزقًا واسعًا وعملًا مقبولًا وتوبة نصوحًا وتجارة لن تبور يا نور النور يا عالم ما في الصدور أخرجني يا إلهي أنا ووالديَّ من الظلمات إلى النور برحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم يلتفت خلفه ويتوجه لمحراب سيِّدنا (عثمان بن عفان) رضي الله عنه وهو في الحائط الذي عن يمين الطرقة المبدوءة من باب السَّلام ويقول: «اللَّهمَّ يا إله العالمين وقابل التائبين وأمان الخائفين وحرز المتوكلين وجبار المنكسرين وراحم الضعفاء والفقراء والمساكين تقبَّل منا أجمعين وعافنا واعف عنا يا

(١) التوسل بالله، لا بجاه النبي.

كريم بسر الفاتحة»، وبذلك تتم الزِّيارة ثم يدخل الحرم ويزور (الجذع) وهو جذع كان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر الشَّريف وبعد اتخاذ المنبر حن ذلك الجذع لفراقه وبقي هناك مدة بعد وفاته صلَّى الله عليه وسلَّم ثم أحرز في هذا المحل بجوار المحراب ثم يتوجه لزيارة المحراب والمنبر والرَّوضة ويصلي بها ركعتين يميل لزيارة (المصحف العثماني) من وراء الشبكة وهو موضوع على رحله على يمين الداخل للحجرة الشَّريفة من باب (الوفود) ولا يفتح هذا المصحف إلا عند حادث عظيم كحرب أو وباء فتجتمع العالم بالحرم ويدخلون الحجرة من (الباب الشامي) لهذا المقصد ويفتحون المصحف ويقرأون فيه ما تيسر من القرآن، وهذا المصحف أحد المصاحف السبعة الأولى التي استكتبت عند جمع القرآن الشَّريف من أفواه حملته في خلافة سيِّدنا عثمان رضي الله عنه ولما قتل رضي الله تعالى عنه كان هذا المصحف الشَّريف في حجره ووقع دمه على قوله تعالى: {فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم} وباق به هذا الأثر إلى الآن ومن أراد دخول الحجرة الشَّريفة تيسر له ذلك بواسطة الأغوات قبل الغروب بنيَّة قيادة القناديل والشمع ويلبسونه ثيابًا بيضاء من ثيابهم، وأما زيارة أهل البقيع وحمزة رضي الله عنهم فقد جعلت في الحرم تسهيلًا على المسافر وليكرر زيارتهم مع زيارة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وإن كان ولا بد للحاج أن يزورهم ويتوجه إليهم.

الحرم النَّبوي

والحرم النَّبوي الشَّريف في وسط المدينة مهيب مزخرف موضوع بشكل جميل طوله من داخل (١٥٥) ذراعًا معماريًّا إسلامبوليًّا وعرضه من جهة القبلة (١١٥) ذراعًا من البحري (٨٨) ذراعًا وأحجاره تجلب من جبل بالقرب من المدينة وعواميده مجصصة مغطاة بدهان ونقوش ولم تكن من رخام لعسر نقلها من محلها

وأرضه مفروشة بالرخام ثم الأبسطة الثمينة وبه خمسة مآذن وخمسة أبواب بابان من الجهة الغربيَّة وهما (باب السَّلام) في ابتداء الجدار الغربي من زاويته القبليَّة وفوقه مئذنة ويبتدئ الزَّائر بالدخول منه وفي وسط هذه الجهة الباب الثَّاني وهو باب (الرحمة) وخارجه مئذنة صغيرة وحنفيات للوضوء ويمكن الزَّائر أن يدخل من هذا الباب ويميل على يمينه ويسير في الطرقة الموصلة إلى طرقة باب السَّلام ومنها يتوجه للزيارة كما سبق وابتداء الحائط الشَّرقيَّة مئذنة تواجه باب السَّلام وبهذا الحائط الشَّرقي بابان: أحدهما باب (جبرائيل) أما باب السَّيدة فاطمة والآخر باب (النساء) مواجهًا لباب الرحمة والجدار البحري في كل طرف منه منارة وفي وسطه باب (التوسل) وفي وسط الحرم صحن يقال له: (الحصوة) به جنينة صغيرة بها بئر ونخل وتسمَّى بجنينة السَّيدة (فاطمة) والحجرة النَّبوية الشَّريفة هي بيت السَّيدة عائشة بنت أبي بكر وزوجة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم كائنة بالجهة القبليَّة الشَّرقيَّة من المسجد مدفون بها النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وبجانبه سيِّدنا أبو بكر رضي الله عنه وبجانب أبي بكر سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ولها أربعة أبواب باب صغير في شباك (التوبة) وباب السَّيدة (فاطمة) والباب (الشامي) يقابل شباك (التوبة) وباب (الوفود) مواجه لشباك (الوحي) وكان يخرج منه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم للصلاة بالحرم، والحرم الشَّريف تغلق أبوابه في السَّاعة الثَّالثة من اللَّيل فيما عدا موسم الحج ولا يبقى به إلا الأغوات المختصة بالخدمة، وبالحرم وحمام كحمام حرم مكَّة محرم صيده وقتله، وقد أخذت خريطة الحرم السطحيَّة بالضبط والتفصيل باعتبار كل متر بمليمتر واحد وأخذت كذلك رسم منظر المدينة المنوَّرة وقبة المقام الشَّريف بواسطة الفطوغرافيَّة.

والمسجد النَّبوي صار توسيعه قليلًا في خلافة سيِّدنا عمر بن الخطاب سنة ١٧ من الهجرة ثم زاد في وسعه سيِّدنا عثمان بن عفان سنة ١٩ ثم زاد فيه الوليد بن عبد

الملك سنة ٨٩ وبنى المحراب ومآذن بأربع أركانه وكان عمر بن عبد العزيز أميرًا على المدينة وقتئذٍ ثم زاد فيه المهدي بن المنصور سنة ١٦٠ وسقفه بالخشب ثم انحرق وعمَّره الخليفة المستعصم، وفي سنة ٦٥٠ عمَّره وسقفه الملك الظاهر بيبرس ثم الناصر ابن قلاوون من ملوك مصر وأول من بنى قبته عليه السَّلام السلطان منصور قلاوون في سنة ٦٧٨، وفي سنة ٨٣١ عمَّر سقفه السلطان الأشرف برسباي ثم السلطان الظاهر برقوق في سنة ٨٥٣ وفي مدة قايتباي سنة ٨٧٩ حرق جميعه وبناه وبني قبة الحجرة على ما هي عليه الآن من الوسع والارتفاع، وفي سنة ١٢٧٠ جدده السلطان عبد المجيد خان ونقش سقفه وأعمدته بالألوان وفرش أرضه بالرخام المشكل والقباب المزخرفة اللطيفة وصرف عليه ٧٥٠٠٠٠ جنيه مجيدي وأخبرني محمود أفندي مهندس عمارة الحرم أنه لما أراد وضع عمود الذي بجانب باب الوفود من الحجرة وحفر ثمانية أذرع نبعت عين ماء لونها أبيض في أشد الحلاوة وبخلاف ماء المدينة النبع فإنه قيسوني ووجد لديه جذور نخل تخاطفها الحاضرون للتبرك وأرسل من الماء المذكور للآستانة العليَّة وسد على هذه العين بوضع الأساس الجديد (وأما كسوة حجرته) عليه السَّلام فأول من وضعها الست خيزران جارية المهدي من خلفاء العبَّاسيين وهي أم الهادي وهارون الرشيد، ثم صار أصولًا بين الخلفاء ثم السلاطين إلى الآن، وأما (المنبر) فقد تعدد تجديده وتغييره في خلافة سلاطين متعددة حتى أرسل السلطان سليمان منبرًا من المرمر في غاية الإتقان وهو باق إلى الآن وقد قلت متوسلًا به عليم السَّلام (شعرًا):

أنا عبد أتيتك اليوم أرجو ... منك فضلًا شفاعة عند ربك

يا حبيب الإله أنت شفيعي ... وشفيع لكل عبد محبك

خدمة الحرم

وأما خدمة الحرم فشتى وأكثرهم من الأغوات وهم أهل صلاح يتعممون بعمامة بيضاء ويسبلون وقت الخدمة على ثيابهم ثوبًا أبيض ويشدون عليه حزامًا والرئيس عليهم سعادة عادل باشا شيخ الحرم برتبة مشير وأحمد نظيف أفندي المدير برتبة متمايز وأما الأغوات فنائب الحرم وخازنداره ومستلمه وشيخ أغواته و٥٠ رئيسًا و٢٦ رديفًا للرؤساء و١٢ مشدًّا للحجرة النَّبوية و٥١ كناسًا للحرم و١١ بوابًا و١٠ سقائين البقيع ومن بعد الخروج من الحرم النَّبوي يتوجه الحاج لزيارة سيدي (عبد الله) والد النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وهو مدفون داخل المدينة في دار (مالك) أحد أخواله ومنه يتوجه إلى البقيع و(البقيع) هو محل مستطيل خارج عن سور المدينة من الجهة الشَّرقيَّة طوله مائة وخمسون مترًا في عرض مائة به مقابر أموات المدينة منخفضة المشاهد وبه قبب للمزارات المشهورة كمزارات آل البيت والشُّهداء وأولاد النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وهم زينب وفاطمة وإبراهيم والقاسم والطاهر والطيب وبه من أزواجه الطاهرات التي توفي عنهن عائشة وحفصة ورملة وسودة وصفيَّة وأم سلمة وزينب وأم حبيبة وأم ميمونة فمدفونة بطريق مكَّة ولله در من قال:

آل بيـــت النَّبـــي إني محـــب ... وجـــزاء المحبـــة الإكـــرام
فـــاز مـــن زار حـــيكم آل طـــه ... وتنـــاءت عنـــه الكـــروب العظـــام
حاشـــى لله أن تـــردوا محبًّـــا ... وهـــو فـــيكم مُتـــيم مـــستهام
أنـــتم القـــوم جـــودكم لا يُـــضاهي ... وعلاكـــم لغـــيركم لا يـــرام

وبه أيضًا مقام العبَّاس وعقيل والحسن بن علي وسفيان وعبد الله بن جعفر

الطيار وعائشة وصفيَّة عمتي النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وسعد وسعيد والزبير وهؤلاء الثلاثة من العشرة المبشرين وعثمان بن عفان وحليمة السعديَّة مرضعة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وكذلك قبر الإمام مالك ونافع شيخ القراء وإسماعيل بن جعفر الصادق وأبي سعيد الخدري ولكل منهم مزار مشهور، وهناك قبة تسمَّى (قبة الحزن) تنسب إلى السَّيدة فاطمة بنت النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وزيارة البقيع يوم الخميس ويوضع على القبور ريحان بدل الخوص بمصر وبجانبه بعض أزهار ومن وراء البقيع يرى الوادي كالبساتين مزينًا بالنخيل.

ومن العوائد الجارية بالمدينة قديمًا أن كل شخص من الشيعة لا يدخل قبة أهل البيت بالبقيع للزيارة إلا إذا دفع خمسة غروش كما أنه يؤخذ بمكَّة من كل من يريد أن يدخل الكعبة للزيارة شيعيًّا أو سنيًّا ريال إن لم يكن ذا ثروة وإلا أخذوا منه مبلغًا كبيرًا وكذا بالمدينة الأغوات المنوطون بخدمة الحجرة الشَّريفة يأخذون ريالًا من كل شخص يريد دخولها وذلك قبل الغروب بساعة عند إيقاد الشموع كما ذكر.

جبل أُحُد

ومن بحري المدينة بعيدًا عنها بمسافة ثُلثي ساعة (جبل أُحد) يتوجهون إليه يوم الخميس لزيارة مقام سيِّدنا (حمزة) وشهداء أُحد رضي الله تعالى عنهم وجامع سيِّدنا حمزة لطيف ذو روحانيَّة زكيَّة وفي الطَّريق أشجار ومزروعات من الجهتين تتنزه بها أهل المدينة، وهناك قبة للثنيتين اللتين وقعتا إذ أصاب أحد الأعداء النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم بحجر وهناك محلات مبنيَّة ومصلى لا حاجة للإطالة بذكرها وبقبلي المدينة بنحو نصف ساعة مسجد (قباء) يتوجهون إليه لزيارته وزيارة من حوله وهو أول مسجد بُني في الإسلام.

وصف المدينة

وأما المدينة المنوَّرة فهي ببحري مكَّة وتبعد عنها بقدر ٣٥٠ كيلومتر واسمها القديم (يثرب) وبانيها ملك تُبَّع من حمير وهي معدودة من بلاد نجد الأول (وخيبر) من نجد الثَّاني (وحائل) الذي بالشَّرق من نجد الثَّالث المسمى (بجبل شمر) المقيم به ابن الرشيد وقبيلته وعرب عنزة تابعون له ونجد الرَّابع (القضيم) ونجد الخامس (الرياض) الذي منه الدرعيَّة بلد ابن مسعود فيصل الوهابي، والمدينة زادت شرفًا واعتبارًا من يوم هجرته عليه السَّلام ووفاته بها ويُقال لها: مدينة الرَّسول وطيبة، وقال فيها ابن الفارض:

تيقنت أن لا دار من بعد طيبة تطيب وأن لا عز من بعد عزة

تكيَّة مصريَّة

وهي في صحراء متسعة مستوية ببحريها جبل أُحد وبقبليها جبل ثبير محيط بها وكشوفة من جهة الشَّرق وسورها بانيه عضد الدولة الديلمي، ثم جدده السلطان سليمان سنة ٩٤٥ وعمره السلطان محمود سنة ١١٦٢ وعدد سكانها يبلغ (٨٠٠٠٠) وبها عشرة مساجد المشهور منها مسجد (قباء) ومسجد (علي) ومسجد (الغمامة) ومسجد (البقيع) و١٧ مدرسة وقلعة واحدة وبيت للحكومة وقشلة واحدة و٤٠٠٠ منزل وبها ١٠٠٠ دكان بالتقريب وأربع خانات وحمامان و١٢ كتبخانة وأربعة مدابغ وثماني تكايا من ضمنها التكيَّة المصريَّة على يسار الداخل من باب العنبريَّة طولها ٨٩ مترًا في عرض ٥٠ مترًا مبنيَّة للخيرات كالتي بمكَّة وناظرها معين من مصر وبها مخازن وأفران ومطبخ والخزين اللازم لها يأتي من مصر سنويًّا وفي صبيحة كل يوم تأتي الفقراء إليها ليأخذوا الشوربة مع الخبز وفي كل جمعة يطبخ لهم

فيها أرز وفي موسم الحج يجتمع فيها كل يوم ما ينيف عن خمسمائة فقير ومحافظها برتبة فريق وبها ثلاثة طوابير نظاميَّة وطابور سواري وطابور بيادة ضبطيَّة، وأما أهلها فهم في

الأصل من الأنصار ولكن الآن أغلب أهلها من ذريَّة الهنود والأتراك المجاورين بها وغيرهم من الغرباء ولون أهلها السمرة المائلة إلى السواد وبعضهم أسمر فاتح ويوجد فيهم البيض وتغلب عليهم النحافة وهم قوم أرقاء ظرفاء يميلون للخلاعة يحبون من هاجر إليهم فهم من الأخيار وأهل الانكسار وناهيك بتلك المنقبة التي هي بهم خاصة من وصفهم في القرآن بأنهم {يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} وبينهم تجار معتبرون تجارتهم تجلب إليهم مع الحجَّاج من كل نوع ولا يتمكن غير المسلم من الدخول إلى المدينة مطلقًا ولا يدخلها إلا في غاية التستر مع تبديل القيافة وبيوتها بوضع تجاري غير متسعة وبدون حوش في الغالب وليست منتظمة وبها قيعان ذات لوانين كالطرز القديم بمصر إلا أنها صغيرة جدًّا بالنسبة لقيعان مصر وأغلبها طبقات ويوجد بها ثلاث طبقات وقلَّ أن توجد بها طبقة واحدة وأكثر شبابيكها خرط دقي وقد وجدت في منزل أحد أعيانها لوحتين من المرمر منقوش على إحداهما بالخط الكوفي لفظ الجلالة مكررًا كعدده ٦٦ مرة والأخرى منقوش عليها بالكوفي أيضًا أسماء العشرة البررة الكرام الذين بايعوا الرَّسول عليه السَّلام في غاية الظرف والإتقان.

عوائد أهل المدينة

ومن العوائد الجارية عندهم في الضيافات والولائم بدون تحاش من معترض ولائم أن الضيف يعرف مجلسه المختص به على قدر مقامه المعلوم ورتبته فلكل قاعة

لوانان يجلس الضيف في ركن أحدهما أو صدره على حسب جلالة رتبته ونباهة قدره ولا حاجة للمضيف إلى الدلالة والتعريف حيث إن ذلك بينهم معلوم لدى أهل الخصوص والعموم، وفي المدينة الخضروات والفواكه اللذيذ جناها وأنواع التمر التي لا توجد في بلد سواها لكثرة النخيل المحيط بها، وناهيك بمقال سيد الأنبياء: **((ما بين لابتيها شفاء))** وبها نوع كالبرتقان في طعم النارنج يسمَّى ليموبها الليمون المالح والحلو والجزر والفجل والبصل وبعض من الخضروات، وأما الحنطة فإنها تزرع بها لكنها قليلة وإنما تجلب للتجار من مصر كما أنه يرسل سنويًّا منها ٨٧٨٨ إردبًا باسم جراية الصدقة مرتبة للفقراء من السادة والخدمة والأهالي كما سبق ذكره فضلًا عن مرتبات وأوقاف من جهات أخرى كما هو الجاري بمكَّة أيضًا وأما الإيرادات المرتبة للحرم النَّبوي من الآستانة ومصر فهي مبلغ (١٠٥٠٠٠) غرشًا ثمن زيت أوقة عدد (١٨١٥٥) يخص مصر منها أوقة (٤٤٥٩) وباقيها من طرف الآستانة ويوجد بها من أنواع النقود كثير والريال أبو طاقة وهو النمساوي أرغب العملة لائتلاف العرب له حتى إنهم يأخذونه بسعر الريال أبو مدفع ويطلقون على الريال دورو.

العين الزرقاء

وأما الماء المعد للشرب فهو ماء العين (الزرقاء) وهي التي أنشأها (عبدالملك بن مروان) أحد خلفاء الدولة الأمويَّة، وهي غير نبع آتية من الجبال المجاورة للمدينة من دهة (قباء) بواسطة طرق تحت الأرض مغطاة وتنصب من عدة مجار في حوض منخفض عن سطح الأرض ينزل إليها بدرج متسع للملء وهذه العين ظهرت في مدة مروان بن الحكم لما كان واليًا بالمدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه، وسميت بالزرقاء لظهورها في مدة مروان وكان أزرق العينين فنسبت إليه، وفي

سنة ٩٩ صار شراء بئرين آخرين بأمر السلطان مراد وهما بئر (غربال) وبئر (عقد) وصار ضم مجرى مياههما مع الزرقاء إلى المدينة ومن الآبار المشهورة بئر (رومة) بخارج المدينة ماؤها عذب وكانت لامرأة يهوديَّة [١] فاشتراها منها سيِّدنا عثمان رضي الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم وأوقفها سبيلًا لله تعالى.

بسر بن أرطاة

وفي تاريخ (القرطبي) أنه في سنة ٤٠ أرسل الخليفة معاوية بسر بن أرطاة إلى المدينة بجيش عظيم لقتل شيعة علي رضي الله عنه وعاملها يومئذٍ من جهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ففرَّ أبو أيوب ولحق بعلي ودخل بسر المدينة ليبايعوا لمعاوية فسفك الدم الحرام ولم يرع الذمام وذبح ابني عبيد الله بن العبَّاس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدي أمهما وهدم دورًا كثيرة وقتل خلقًا كثيرًا من أحياء بني سعد وسبى نساءهم فكنَّ أوَّل نساء سبين في الإسلام وربط الخيل في مسجد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وراثت الخيل بين المقام والمنبر وأزيلت بكارة ألف بِكر وباع المسلمات وهتك الحرمات.[٢]

الوهابيون

وقد حصل مثل ذلك في سنة ١٢٢١ من الوهابيين الذين رئيسهم سعود القاطن بالدرعيَّة من أرض نجد وقتل الأغوات بجانب القبر الشَّريف وأهان المسجد ونهب

(١) كانت لرومة الغفاري حسب معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٠.

(٢) هذا الكلام لا يخلو من المبالغة، ذكر القلقشندي (ج ١٣ ص ٢٣٢) أن معاوية بعث بسر بن أرطأة إلى الحجاز في عسكر فدخل المدينة وسفك بها الدماء واستكره الناس على البيعة لمعاوية.

الهدايا من الحجرة الشَّريفة وهدم قباب الأولياء وفعل أمورًا شتى [١] حتى حاربهم محمَّد علي باشا والي مصر بأمر مولانا السلطان وانتصر عليهم وأخمد أنفاسهم ولزيادة الإيضاح نقلت ما هو آت من تاريخ (الجبرتي) أنه في عام ١٢٢١ وصلت الأخبار إلى مصر من الديار الحجازيَّة بمسألة الشَّريف غالب للوهابيين وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية حتى وصل ثمن الإردب المصري من الأرز ٥٠٠ ريال والقمح ٣١٠ وغير ذلك فلم يسع الشَّريف إلا مسالمتهم والدخول في طاعتهم وسلوك طريقتهم وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب التنباك في المسعى وبين الصفا والمروة وبالملازمة على الصلوات في الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال المكوس والمظالم ومصادرات الناس في أموالهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسًا في داره فما يشعر إلا وأعوان الشَّريف يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها ويقولون: إن سيد الجميع محتاج إليها فما يجد حيلة إلا الطاعة وتصير من أملاك الشَّريف فعاهده الشَّريف على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله به في كتابه العزيز من إخلاص التوحيد لله وحده وأتباع سنَّة الرَّسول عليه السَّلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والأئمة إلى آخر القرن الثَّالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والزخارف وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقي الأشياء التي فيها شركة المخلوقين مع الخالق في توحيد الألوهيَّة التي بعثت الرسل إلى مقاتلة من

(١) هذا الكلام يفتقر إلى الدقة.

خالفها ليكون الدِّين كله لله [١] فعاهده الشَّريف على منه ذلك كله وعلى هدم القباب المبنيَّة على القبور والأضرحة فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطرق بين مكَّة والمدينة وجدَّة والطائف وانحلت الأسعار حتى بيع الإردب من الحنطة بأربعة ريالات واستمر الشَّريف غالب يأخذ العشور من التجار بقوله: إن هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين، وفي سنة ١٢٢٤ وصل مسعود الوهابي إلى مكَّة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار وأحضر أمير الحج المصري وقال له: ما هذه العويدات والطبول التي معكم يعني: بالعويدات (المحمل) فقال: إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم، فقال: لا تأتب بذلك بعد هذا العام وإن أتيت به أحرقته، وهدم القباب التي بينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك في الأسواق وكذلك البدع، وفي سنة ١٢٢٣ انقطع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي الناس عن الحج والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحدًا يأتي إلى الحج [٢] على الطَّريقة المشروعة وإنما منع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وقد حج طائفة من المغاربة ولم يتعرض لهم أحد بشيء ولما امتنعت قوافل الحج المصري والشامي وامتنع عن أهل المدينة ومكَّة وما كان يصل إليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بعائلاتهم ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك وأتوا إلى مصر والشام ومنهم من ذهب إلى إسلامبول يتشكون من الوهابي ويتسغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من إجراء الأرزاق، واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التي بأسماء رجال

(١) هذه الشروط تعتبر من الإصلاحات التي تبناها الأمير سعود.

(٢) أن الوهابيين منعوا مجيء المحمل المصري إلى الأراضي المقدسة لما يحتوي عليه من المنكرات كالطبول والزمور والموسيقى، ولم يمنعوا أحدا من أداء فريضة الحج من أي جنس أو لون.

الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك ويذكرون أن الوهابي لما استولى على المدينة أخذ ما كان بالحجرة الشَّريفة من الذخائر والجواهر المحلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر وعبى أربع سحاحير منها ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبذل الشمعة قطعة ألماس مستطيلة ونحو مائة سيف أقربتها ملبسة بالذهب ومنزل عليها ألماس وياقوت، ونصابها من الزمرد واليشم كل سيف منها لا قيمة له وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء والسالفين وغير ذلك فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام وهذه الأشياء أرسلها ووضعها سخاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم إما حرصًا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام وهي في الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم في الأذهان حرمة تناولها وأنها صارت مالًا للنبي عليه الصَّلاة والسَّلام فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها والنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم منزه عن ذلك لم يدخل شيئًا من عرض الدنيا في حياته وثبت في الصحيحين أنه قال: **((اللَّهمَّ اجعل رزق آل محمَّد قوتًا))** وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين مخالف لشريعته وإن قال المدخر: أكنزها لنوائب الزمان ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة إليها قلنا: قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الإفرنج وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم فيصالحون المغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الإفرنج المسالمين لهم واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئًا ولم ينتفع بها أحد إلا ما يختلسه أغوات الحرم وأما الفقراء من أولاد

الرَّسول وأهل العلم والمحتاجين وأبناء السبيل يموتون جوعًا ولما كثرت شكاوى أهل المدينة إلى الباب العالي أمر مولانا السلطان محمَّد علي باشا والي مصر بمحاربة الوهابيَّة فحاربهم وانتصر عليهم وفي ١٨ رجب سنة ١٢٣٣ حضر باقي الوهابيَّة إلى مصر بحريمهم وأولادهم وهم نحو الأربعمائة نسمة وأسكنوهم في محلات تليق بهم وكان عبد الله بن سعود الوهابي خواصه من جملتهم وسكن بدار عند جامع مسكة من غير حرج عليهم وصاروا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ويمشون في الأسواق ولما وصل عبد الله بن سعود إلى مصر عمل له موكب عظيم وضربت له المدافع وسكن في بيت إسماعيل باشا بن محمَّد علي باشا ببولاق، وفي ثاني يوم تقابل مع محمَّد علي باشا بسراية شبرا فآنسه وأجلسه بجانبه وقال له: ما هذه المطاولة؟ فقال: الحرب سجال، وكان ما قدره الله، فقال: إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال: المقدَّر يكون، وكان بصحبته صندوق صغير من صفيح فقال له الباشا: ما هذا؟، فقال هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي إلى السلطان وفتحه فوجد به ثلاثة مصاحف قرآنًا مكلفة ونحو ثلاثمائة حبة لؤلؤ كبار وحبة زمرد كبيرة فقال له الباشا: الذي أخذه من الحجرة أشياء كثيرة، فقال: هذا هو الذي وجدته عند أبي فإنه لم يستأصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل أخذ كذلك كبار العرب وأهل المدينة وأغوات الحرم وشريف مكَّة، فقال الباشا: صحيح وجدنا عند الشَّريف أشياء من ذلك ثم ألبسه خلعة وانصرف عنه إلى بيت إسماعيل باشا المعد له وفي ١٩ محرم سنة ١٢٣٤ سافر عبد الله سعود إلى الإسكندريَّة ومنها إلى الآستانة ومعه خدم لزومه، وفي جمادى الأولى وصلت الأخبار عن عبد الله المذكور أنه لما وصل إلى دار السعادة طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضًا في نواح متفرقة.

مكر المقومين

وفي يوم الثُّلاثاء كانت الحرارة ٢٩ درجة سنتجراد صباحًا و٣٠ ظهرًا وبلغني أن المتوجهين من مكَّة إلى المدينة مع جمالة الحوازم الذين مقومهم مساعد والأحامدة الذين مقومهم المعلى بلغهم لما وصلوا إلى وادي فاطمة أن الطَّريق بالأشقياء من العربان مقطوع فأرادوا إلى مكَّة الرجوع فمنعهم المقومون وخيلوا لهم أن الأمر بخلاف ما يظنون وأشاعوا أن الطَّريق قد سلكت وأن العربان قد اصطلحت وخدعوهم بهذا المقال لئلا يطالبوهم متى رجعوا بما دفعوه إليهم مقدمًا من أجر الجمال فتخيب آمالهم وتتعطل عن المكاسب جمالهم، ولما اطمأن الركاب إلى هذه الأقاويل واغتروا بزخارف هذه الأباطيل وساروا حتى وصلوا إلى وادي فاطمة وأوقعوا الحصر بين هاتيك الجبال في مخالب الأمة الظالمة تواترت الأخبار بأن الطَّريق قطعة الشَّيخ محسن وأن التأخر والتقدم صار غير ممكن فعند ذلك تشوَّشت من الرَّكب الأفكار وتوقعوا حلول الأخطار وودُّوا لو أمكنهم الفرار من هؤلاء الفجار ولو مع سلب أحمالهم ونهب سائر أموالهم ولم يجدوا من يخاطبونه في هذا الشأن من هؤلاء اللئام ومكثوا على هذه الحالة ثلاثة أيام ثم سمحوا لهم بالمرور بشرط أخذ ريال عن كل جمل مما معهم من الجمال، وكانت هذه الجمال غير يسيرة فتحصلوا بذلك على أموال كثيرة وكذا حصل منهم عند الوصول إلى عسفان وأخذوا عن كل جمل نصف ريال واغتصبوا فضلًا عن ذلك من الأغنياء الذين في الرَّكب نحو ستمائة ريال مع ما كانوا فيه من الرعب وتشتت الأحمال وفقدهم لغالب أمتعتهم وتأخرهم أربعة أيام عن المواقيت وسلب الذخائر وتحكم الجمالة المماقيت على من في الرَّكب من الأكابر فقد كان من جملتهم حضرة محرم بك أبي جبل وحرم المرحوم فاضل باشا وغير من ذكر من الأعيان الذين وقعوا تحت أسر هؤلاء العربان بل الغربان، وبعد الوصول إلى المدينة شاع هناك هذا الخبر فكم كتبوا في شأن ذلك

من محضر وما أفاد ولا أثمر وقد بلغني أنه قبل الحج حضر من الآستانة مفتش عن أحوال العساكر والأهالي بمكَّة والمدينة ومعه ماهيات العساكر ثلاثة أشهر فصرف لعساكر مكَّة وتوجه إلى المدينة من الطَّريق الشَّرقي وبصحبته أربعة من العساكر البيادة أعني: البيشة أي: الهجانة فسلبوا منه ماهيات عساكر المدينة بالطَّريق ثم عاد من المدينة مع القافلة المتوجهة إلى مكَّة للحج وقبل وصوله إليها بمرحلتين تباعد عن خيمته لإزالة ضرورة قبل العشاء فوقع ميتًا برصاصة ولم يعلم قاتله فاتهموا من معه من العساكر وسجنوهم بقلعة جياد بمكَّة.

وفي يوم من الأيام حضر لدي بالمدينة ثلاثة من الأعجام يشكون وكيل قنصلاتهم الذي بالمدينة من الجمالة المقومين لأنهم طلبوا منهم أجرة خارجة عن الحد لكونهم من الأعجام ورغبوا إليَّ في التوجه مع المحمل من طريق الوجه فتخابرت مع الوكيل المذكور فأظهر الرضى بذلك بشرط أن يدفعوا إلى العربان من الأجرة ما هو برسم الأخوة المعتادة من قديم الزمان وأخبرني أن تعريفة مشال العجم عند العربان من مكَّة إلى المدينة ٧٥ ريال لجمل الشقدف وللراكب ٢٠ وللعصم ١٠ وللمتاع ٧ ومنهم من دفع عن الشقدف الواحد من ينبع إلى المدينة ١٢ جنيهًا وتزعم العرب أن هذه الأجرة هي مرتب الأخوة وفضلًا عن ذلك كان الوكيل يأخذ عن كل شخص ريالًا بل أكثر والمقوم ريالًا أيضًا في مقابلة تشهيل المشال وكذا المزور ريالًا ما عدا الأعجام فإنه يدفع عن الجمل الواحد من مكَّة إلى المدينة ١٨ ريالًا فقط ومن المدينة إلى الوجه ١٧ ريالًا ويدفع للمزور المقسوم وقد أخذ من هؤلاء الأعجام عن كل جمل من المدينة إلى الوجه ٤٠ ريالًا من ضمنها رسم الخوة أي: الأخوة على اصطلاحهم هذا مع ما يقاسيه الأعجام في الطَّريق من العربان الجمالة من الذل والنهب والسلب وإتلاف الأنفس والأموال فلأجل ذلك لما وصلوا معنا سالمين إلى السُّويس اعترفوا لنا بالجميل وأظهروا لنا الممنونيَّة والشكر الجزيل لأن ما

حصل لهم معنا من الرَّاحة في السَّفر مغاير لما قاسوه في طريق توجههم من مكَّة إلى المدينة من الكدر وبالبعد عن المدينة بساعة قبيلة النخوليَّة من ذريَّة العجم تجتمع بهم العجم مدة الحج ومن عاداتهم نكاح المتعة ويضربون موتاهم قبل الغسل على الفم والوجه ويوصونهم بعدم ذكر الشَّيخين أعني: أبا بكر وعمر عند سؤال الملكين كما بلغني من السَّيد حسين بمكَّة وهؤلاء الطائفة المعروفون بالإسماعيليَّة، وفي ٢٠ و٢١ محرم صرفت المرتبات بالتكيَّة المصريَّة والحرارة وقت الزَّوال بلغت ٣٠ سنتجراد وصلينا الجمعة في الحرام ونزلت آخر النَّهار الأمطار وفي ٢٣ منه كانت الحرارة صباحًا ٢٨ وفي الزَّوال ٢٩ سنتجراد وفي ٢٤ منه في س ٣ أخرج المحمل من الحجرة النَّبوية ووكب كما دخل حتى أتى العنبريَّة وحضر بعض أعيان المدينة ليلًا إلى الخيام للتفرج على الشنك والصواريخ فشربوا الشربات، ثم عادوا ممنونين من حسن المعاملات وحيث قد تم الحج بزيارة حرم فخر الكائنات، فلنبدأ بما قد تصوَّرناه من التفكرات.

(اعلم) أن الشَّمس والقمر لو نزلا على الأرض متباعدين عن بعضهما لسعى من في الأرض لرُؤيتهما بدون تفكر في المسافة التي يلزم قطعها لأجل الوصول إليهما بعيدة كانت أو قريبة سهلة أو صعبة مأمونة أو خطرة فأولًا يتجهون إلى الشَّمس ويمشون مهتدين بأشعتها شاخصة أبصارهم إليها لا يرون ما حولهم ولا ما تحت أقدامهم سهلًا كان أو وعرًا برًّا كان أو بحرًا فكل على قدر درجة قوته يصل إليها بحسب همته فمنهم من يأتي سريعًا ومنهم من يُبطئ ومنهم من يصيب الغرض ومنهم من يُخطئ ثم بعد مشاهدة (الشَّمس) على حسب تفاوت درجات القرب منها واطمئنان قلوبهم بها يتجهون إلى جهة القمر ليشاهدوه بالنظر فيسيرون على نوره ناظرين إليه دون غيره حتى يصلوا إليه بعد المشقة الزائدة غير مبالين بالمسافة قريبة كانت أو بعيدة وبعد المشاهدة والحصول على الفائدة يتوجهون من حيث جاءوا

ملتحفين بما به باءوا تاركين النور وراءهم وظلمة أنفسهم ممتدة أمامهم فمن امتلأ بصره بالنور مشى سويًّا على صراط مستقيم ومن انطمس بصره انكب على وجهه في ظلام مستديم فالكعبة للحجاج هي (الشَّمس والمدينة القمر) وكل امرئ يسعى بقضاء وقدر والمرام من الوصول الاقتباس بحسب طهارة الأنفاس لا التفرج والافتخار بين الناس والقلب المؤمن يتلألأ نوره كالجوهرة الثمينة ولكل مؤمن جوهرة في قلبه تزهو على حسب القيمة فالجواهر منثورة على العباد على حسب ما قسم من الاستعداد لقوله تعالى: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} فمنهم من احتوى على الجواهر ومنهم من احتوى على الذهب ومنهم من احتوى على الفضة أو النحاس بالتعب ومنهم من بقي مجردًا لا ينال القوت إلا بشق النفس والنصب فدرجات الإيمان في قلوب المسلمين كذلك متفاوتة فكما أن الأغنياء بجواهر الدنيا يفوق بعضهم بعضًا كذلك المؤمنون الذين قلوبهم بجوهرة الإيمان مستنيرة يتفاوتون بحسب السيرة والسريرة والله بصير بعباده ويوف كلًّا على حسب مراده وكلما حسنت النيَّة حصل الفوز بالمواهب اللدنية كما قال عليه السَّلام: **((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))** صدق من لا ينطق عن الهوى.

ولنبدأ بضرب مثال لهذا المقال وهو أن الساعين للحج كالساعين لصلاة الجمعة فمنهم من يأتي الجامع قبل الازدحام ويسمع الخطبة ويقرب من الإمام ومنهم من يسمعه تارة وتارة على حسب بُعد المسافة والتأخر لعائق أو آفة فهؤلاء كلهم مصلون وبحسب سعيهم للقرب من الإمام ينالون وعلى أعمالهم يجازون.

وحيث إن أكثر الحجَّاج يتوجه مع القوافل إلى ينبع البحر من الطَّريق السلطاني لقصرها عن غيرها وقد سبق لي المرور منها ورسمها ومقاسها بآلة متريَّة في سنة

١٢٧٧ فلا بأس أن أذكرها قبلًا ثم أذكر الطَّريق الموصلة إلى الوجه فأقول:

من المدينة إلى ينبع

ولما كان يوم الجمعة المبارك ٥ شعبان سنة ١٢٧٧ صلينا الجمعة بالحرم النَّبوي وأخذنا أهبتنا للسَّفر وقفلنا في السَّاعة الثَّانية من يوم السَّبت قاصدين العود على طريق ينبع البحر وسرنا في الطَّريق التي بين المدينة وسلع وفي نهاية البلدة التكيَّة المصريَّة وعلى مسير ١٠١٢٥ مترًا وصلنا إلى (آبار علي) س ٤ و ق ١٥ وهو محل متسع به آبار عذبة قريبة القاع وبيوت كالعشش وببعضه زرع من شعير وكزبرة وثوم وبصل وفجل ونخل وأرضه صالحة للزراعة فبتنا وقلبنا مجذوب مولع بتلك المعاهد والمشاهد لا حرمنا الله من العود إليها وما زلنا نتذكر ما تم لنا من الصفاء بها ولله در من قال:

إذا لم نطب في طيبة عند طيب ... به طيبة طابت فأين نطيب؟
إذا لم يجب في حيه ربنا الدُّعا ... ففي أيِّ حيٍّ للدعاء يجيب؟

وفي س ١ و ق ٣٠ سرنا وعلى مسافة ١٢٠٠٠ متر محجرة في عرض عشرة أمتار طولها ٥٠ مترًا بين جبلين قليلي الارتفاع ثم يتسع الطَّريق ويتعالى الجبلان في بعض المواضع ولمسير ٧٠٠٠ متر منها يتسع الطَّريق لعرض ألف متر مسيرة ٢٥٠٠ مترًا ثم يضيق لما بين ٣٠٠ و٤٠٠ و٥٠٠ متر وأقل وأكثر تارة وتارة إلى سير ٦٥٠٠ متر وهناك بئر يقال له: (بئر الشريوفي) على مسيرة ٢٨٠٠٠ متر من مسير هذا اليوم وهناك محل تسع وكان الوصول إليه في س ٦ و ق ٤٥ فنزلنا واسترحنا للساعة ٩ و ق ٥٠ وسرنا ٣٥٠٠ متر فوجدنا مغار في عرض عشرة أمتار وطولها كذلك تنتهي بواد طوله ألف متر وعند مسافة ٣٥ ألف متر من مسير يومنا واد آخر متسع عن

الأول سرنا به ١٥٠٠ متر ونزلنا وقت الغروب في غير محطَّة على غير ماء على مسيرة ٣٦٥٠٠ متر من آبار علي فيكون السير من المدينة ٤٦٦٢٥ متر، وفي س ١ و ق ٢٠ من يوم الاثنين نهضنا ومررنا بين جبال من صخر شاهقة ارتفاعها من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ متر والطَّريق تارة تتسع وتارة تضيق وعلى ٢٥٠٠ متر مضيق في طول وعرض عشرة أمتار على يساره جبل وعلى يمينه صخرة تنتهي لمحل عرضه ألف متر وطوله كذلك ثم الطَّريق تضيق عشرة أمتار بين صخرتين وتتسع وتضيق لخمسين مترًا فأكثر إلى مسير ٢٦٠٠ متر وعلى اليمين طلل سبيل خراب ومنه تتسع الطَّريق لعرض ١٥٠٠ متر فأكثر وتضيق بعد ٢٧٠٠ متر لعرض مائة متر وأقل مسيرة خمسمائة متر وهناك قبور (الشُّهداء) على مسيرة ٩٥٠٠ متر من سير هذا اليوم، وهم قوم من أهل البيت قتلوا هناك ظلمًا في سوق ذلك المحل الذي كان يعقد به، وقبورهم متكونة من كيمان حجارة وزلط في وسط الطَّريق ويمينه وهذه الكيمان علامة لذلك وعلى سير ١٨٥٠٠ متر منها تتسع الطَّريق لعرض ألفي متر وفي آخر الاتساع بئر يقال لها: (بئر الرَّاحة) بجانبها أثر حوض فاسترحنا هناك من السَّاعة ٧ و ق ٤٠ إلى س ٩ و ق ٣٠ على سير ٣٠٨٠٠ من سير هذا اليوم وسرنا بين جبال وتلول وعلى ٤٤٠٠ متر عين ماء بيسار الطَّريق تحت الجبل وعلى ٢٣٠٠ متر منها واد في عرض ألفي متر به أشجار من شوك وبعد ١٥٠٠ متر ينتهي عرضه إلى ثلاثة آلاف متر ثم بعد خمسة آلاف متر من هذا الاتساع بئر يقال لها: (بئر عبَّاس) وبجانبها قلعة نزلنا تجاهها بعد غروب الشَّمس بنصف ساعة على مسير ٤٤٠٠٠ متر من سير هذا النَّهار.

بوغاز الجديدة

وسرنا في السَّاعة الثَّانية من يوم الثلاث تاسع الشَّهر ودخلنا من (بوغاز

الجديدة) وهو يبتدئ بعرض ٤٠ مترًا ثم يتسع إلى ٢٠٠ متر بين جبال شاهقة من الطَّرفين ممتدة والجبال في ارتفاع ٣٠٠ و٥٠٠ متر وعلى مسير ٩٠٠ متر من هذا الاتساع قطعة أرض يمينًا مزروعة أيضًا وبعدها بنحو ٢١٠٠ متر قطعة أرض كذلك مزروع فيها دخن وشعير محاطة بآثار بناء ومنها إلى ٧٠٠ متر بئر على اليسار بجانبها أرض مزروعة بجوار بعض عشش وعلى سير ٣٣٠٠ متر منها آثار حوض وعلى ٢٨٠٠ متر منه بئر على اليسار بجانب الجبل ويليه سبيل وآثار بناء وعلى ألف متر زرع جهة اليمين وبعد الزرع بمائة متر آثار بناء فوق الجبل وبعد ألف متر بلدة (الجديدة) بتشديد الياء على يمين الطَّريق وهي بلدة كهيئة عشش موضوعة من أعلى الجبل لأسفله وبعد مسير مائة متر منها طابية وجامع سيدي (عبد الرحيم البرعي) مادح النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم وهذا الجامع على مسيرة ١٧٠٠٠ متر من بوغاز الجديدة وهناك سوق يباع فيه ما يلزم للحجاج من حناء ودهن بلسان وبلح ومراوح مصنوعة من خوص ويوجد هناك القارون والبطيخ والباذنجان وهي بلدة كثيرة النخيل بها عيون ماء تجري كالزلال من بين هذه الجبال في جداول كالترع ثم مررنا من بن جبلين في ارتفاع ٢٠٠ متر وعرض ٢٠ مترًا على مسير ٥٠٠ متر من جامع البرعي وتتسع الطَّريق إلى ٥٠٠ متر بعد ٩٠٠ متر وتضيق إلى ٢٥٠ مترًا بعد سير ٣٠٠ متر منها ثم يقل عرضه المائة متر ثم يصير العرض أربعين مترًا عند ألفي متر من الجامع وهذا آخر بوغاز الجديدة وخرجنا منه لقطعة أرض متسعة في تربيع ألف متر استرحنا في أولها تحت نخيل بالقرب من مزارع ورياض مخضرة وهناك حشيش طبيعي يشبه البرسيم والماء متدفق من كل جانب وكان نزولنا في س ٦ و ق ١٠ وكان هذا اليوم شديد الحر وهذا المحل مظلل بالنخيل والنسيم يهب من خلالها فتذكرنا رياض مصر يوم نيروزها، وفي س ٧ و ق ٤٥ سرنا في واد بين جبلين شاهقين بعد أن قطعنا محل الاستراحة وكانت أرض هذا الوادي صالحة جدا

للزراعة وعلى ثمانية آلاف متر منه طريق صعوده سبعة أمتار يتخطى أكمة وينخفض ويتصل بطريق متسعة كالتي قبلها إلى (القلعة الحمراء) طولها ٤٥٠٠ متر فيكون السير من المدينة ١٢٢٢٦٥ مترًا وكان وصولنا إليها س ١٠ و ق ٣٠ وهي قلعة حصينة عامرة بها مدافع ومحافظون وبتنا هناك تلك اللَّيلة وكانت شديدة الحر وبهذا المحل بيوت كالعشش وسوق يباع فيه التمر والحناء وبعض أدهان وبجانبه قطعة أرض مرتفعة بها نخيل ومزروعات كباذنجان وفجل وبصل وبطيخ.

وفي ١٠ منه قمنا من هذا القلعة س ١ و ق ٣٠ وسرنا على يسارها في طريق عرضها يتزايد عن مائة متر إلى ألف متر وعلى مسير ٢٥٠٠ متر وجدنا مجمع طريقين اليسرى توصل (للصفراء) و (بئر حنين) واليمين لدرب (بئر سعيد) فعطفنا على درب بئر سعيد ومررنا من طريق في عرض عشرين مترًا مخنق موصل لواد مستطيل في عرض ألف متر وعلى جهتيه تلول وأحجار وعلى مسيرة ٥٠٠٠ متر منه أخذ في الضيق إلى ٥٠٠ متر ومن بعده بألفين وخمسمائة متر طريق تعطف للميمنة وأمامها بئر ومن بعد أن نخلف هذه الطَّريق بخمسمائة متر تضيق طريقنا إلى خمسين مترًا ثم تتسع إلى مائة ثم إلى مائتين ولمسير ١١٠٠ متر تهيأ للإنسان أن الطَّريق قد انسدت باتصال الجبلين فتخطينا هذه القطعة اللاحمة بينهما وهي ذات صعود وهبوط طولها مائة متر وعرضها ٣٥ مترًا ثم مررنا من عقبة تسمَّى (نقر الفار) لا يمكن منها إلا عبور جمل بعد جمل وتارة جملين جملين وبه مدقان وصعوبة سلوكه من كثرة الأحجار ومسافته ١٥٠ مترًا ثم تمتد الطَّريق وتتسع أحيانًا إلى مائة متر وعلى مسير ٢١٠٠ متر من انسداد الطَّريق واد متسع به أكمات وصخور وأحجار والجبال محدقة به وعلى مسير ١٢٥٠٠ متر يلتحم الجبلان والطَّريق تتخطاهما مستوية الهبوط والصعود عرضها من خمسة أمتار إلى عشرين مترًا ثم تبتدئ أكمات زلط وحجر أكثرها متصلة ببعضها.

وفي س ٧ و ق ٣٠ وصلنا بالقرب من (بئر سعيد) على مسير ٢٥٠٠٠ متر من القلعة الحمراء وبئر سعيد هذه منعطفة عن الطَّريق بخمسمائة متر، وفي س ٩ و ق ٢٠ سرنا ومررنا بين صخرتين في طريق عرضها عشرة أمتار وما زلنا نتخلل كيمانًا بعد كيمان إلى ٦٨٠٠ متر انتهينا لواد سهل متسع كله رمال وسرنا فيه ٥٥٠٠ متر أنخنا به بعد الغروب بربع ساعة كان على مسير ١١٠٠٠ متر من بئر سعيد فيكون السير من المدينة ١٥٨٦٢٥ مترًا.

وفي يوم الخميس س ١ و ق ٤٠ قمنا وسرنا من هذا الوادي الذي بتنا به واشتد بنا الخبب في الرمل عند انتهائه وكان يرى على بُعد من طرفيه جبال من حجر وتلول من رمل وبعض أخشاب منثورة في الطَّريق وكثير من الشوك الذي يقال له: أم غيلان وما زلنا حتى وصلنا (ينبع النخل) السَّاعة ١٠ من دون استراحة في الطَّريق على مسير ٣٩٠٠٠ متر فيكون السير من المدينة ١٩٧٦٢٥ مترًا ونزلنا بمحل متسع بين جبال به بيوت وأراض مزروعة وعيون نابعة تجري في قنوات متتابعة وماؤها صاف كالزلال والنخل مردوم في الرمال وسطح الماء أوضع من سطح الأرض بنحو ذراعين وبذلك المحل خضراوات وبه كثير من الباميا وكان يمكننا التوجه من محل مبيتا إلى ينبع البحر بطريق أقصر من هذه الطَّريق المرملة لكن لقلة المياه بينبع البحر وغلو أسعارها وكون مائها مخزونًا في صهاريج من الأمطار عطفنا العنان إلى طريق ينبع النخل وتحملنا مشقة السَّفر بقصد الاستقاء من ينبع النخل وأقمنا هناك يوم الجمعة إلى س ١٠ و ق ٣٠ من النَّهار ثم قمنا وسرنا إلى أن أقبل اللَّيل وأضاء القمر واستمر بنا السير ومررنا على مسير ١١٠٠٠ متر بطريق بين كيمان من رمل خفيف عرضها من ٥٠٠ متر إلى ٢٠٠ متر ثم انقطعت الكيمان من الجهة اليمنى وبقيت التي بالجهة اليسرى بعدها ١٥٠٠ متر وانتهت الطَّريق لواد متسع جدًّا به عبل وشوك وعلى مسيرة ٣٧٤٠٠ متر لاقينا رشحات البحر المالح وما زلنا مجدين

في السير حتى دخلنا ينبع البحر في السَّاعة السَّادسة من ليلة السَّبت ١٣ شعبان على مسيرة ٣٩٥٠٠ متر من ينبع النخل فيكون السير من المدينة المنوَّرة إلى ينبع البحر ٢٣٧١٢٥ مترًا.

ينبع البحر

وينبع البحر مينة متوسطة من مين بحر القلزم ومنها ترسل الغلال وغيرها إلى المدينة وقد سبق ذكر ذلك وقد اتفق لي التوجه إليها في سنة ١٣٠٣هـ فوجدت العساكر مجتهدة في بناء سور للبلدة طوله ٣٠٠٠ ذراع تحفظًا من هجوم الأعراب الأغراب وتسهيلًا للهجوم على المتعدين منهم وصيانة للذخائر والسبب أنه وقعت ثورة بها من عربان بني إبراهيم وهجموا على السجن وأطلقوا منه شخصين وقتلوا أربعة من عساكر الضبطيَّة ولما وصل الخبر إلى الوالي بمكَّة أرسل طابورًا من العساكر الشاهانيَّة أعني: خمسمائة نفر ومدفعًا واحدًا وأطفئت الفتنة وأقيم السور ولنرجع الآن لشرح سير المحمل من المدينة إلى الوجه فنقول:

السير من المدينة إلى الوجه

وفي يوم الاثنين ٢٥ محرم كانت الحرارة صباحًا ٢٧ سنتجراد وفي الزَّوال ٢٨، وفي س ٩ وكب المحمل من الحرم النَّبوي وسار محفولًا بعساكره مارًّا أمام باب العنبريَّة والعساكر الشاهانيَّة مصطفة على الجانبين تشريفًا لقيامه والموسيقى أمامه إلى أن عطف على اليمين عن يسار سور المدينة في طريق سبخة غير صالحة للزراعة قاصدًا الوجه من الطَّريق الذي سبق ذكر مقاس مسافة محطاته متريًّا والآن نذكر تلك المسافات بالسَّاعة، وفي س ١٠ وصل إلى بئر (رومة) أي: بئر سيِّدنا عثمان رضوان

الله عليه وعلى الصحابة أجمعين التي اشتراها من امرأة[1] ووقفها صدقة على المسلمين، وهناك مصلى بجانبها وماء هذه البئر عذب جدًّا والأراضي المجاورة لها مزروعة فنزل للمبيت وبتنا وقلوبنا مولعة بصاحب تلك المآثر ولله در القائل:

هنيئًا لمن زار خير الورى ... وحط عن النفس أوزارها
لأن السعادة مضمونة ... لمن حل طيبة أو زارها

وفي يوم الثُّلاثاء ٢٦ منه سار صباحًا بعد س ١ و ق ١٥ وكانت الحرارة ١٨ درجة متجهًا إلى الشمال الغربي وبعد ق ٢٥ إلى جبال على الجانبين واتجه إلى الغرب في أرض مستوية وبعد س ١ و ق ٥٣ اتجه إلى الشمال الغربي ثم إلى الغرب ثم اعتدل ثم غرب وبعد س ٣ و ق ٤٥ مرَّ على زلط بين جبال وبعد س ٥ و ق ٥٥ نزل للرياضة وبعد س ٦ و ق ٣٥ سار متجهًا إلى الشمال الغربي بين جبال تارة قريبة وتارة بعيدة وكانت الحرارة ٣٠ درجة ثم اتجه إلى الغرب وبعد س ٨ اتسع الطَّريق مع استواء الأرض وصلاحيتها لسير العربات وشوهد أمامنا من البعد قطعة أرض مرملة بين جبال سود كأنها قطعة قماش منشورة على أعلى الجبل وبعد س ١ نزل الرَّكب للمبيت بمحطَّة (الضعيني) بجوار بئر مالح فبلغني من شخص يسمَّى أحمد ناجي من تجار خان الخليلي صحبنا من المدينة ليتوجه من هذه المحطَّة إلى ينبع من طريق السعاة مع اثنين من العرب كان استأجرهما من ينبع ليحضرانه إلى المدينة ليزور ثم يوصلانه إلى ينبع ثانيًا وأخذ منهما الضمانات على ذلك لأنه قد كان توجه في ٧ محرم من مكَّة إلى جدَّة مع قافلة من الجاوا وغيرهم تحتوي على ٢٠٠ جمل ومعها نحو ٥٠ نفرًا من العساكر خوفًا من العربان فلما وصلوا لجدَّة بلغهم أن العربان هجموا في اللَّيلة الماضية على قافلة قريبًا من بحرة فنهبوا منها نحو عشرين جملًا وقتلوا منها شخصين فلم يصدهم هذا القول وتقدموا بالنظر لوجود العساكر معهم ولكثرتهم

(١) اشتراها من رومة الغفاري.

ولما أتوا بحرة لم يجدوا بها أحدًا من العربان فجدوا في المسير حتى صاروا بين بحرة وقهوة العبد في س ٣ من اللَّيل فلم يشعروا إلا والعربان قد هجمت على مقدم القافلة بالويل وارتفع من القافلة الضجيج وصارت الجمالة يدافعون النهاية بالعصى والسكاكين ولولا العساكر وإطلاقهم السلاح الناري منعًا لهم من التقدم إلى الرَّكب لأتوا على سائر القافلة بالقتل والنهب وصار هؤلاء اللصوص يطلقون على العساكر أسلحة ناريَّة ليمنعوهم من التقدم إليهم ليتمكنوا من توزيع ما نهبوه من الجمال والأحمال فوق رءوس هاتيك الجبال ثم انصرفوا عن القافلة المنهوبة بعد حوزهم الأموال المسلوبة فانكشف الغبار عن ثمانية من الحجَّاج ومثلهم من الجمالة المقتولين سوى من وجد بعد هذه المعركة من المجروحين وقد قطع الأشقياء التلغراف الموصل من جدَّة إلى مكَّة لقصد الفساد ومكث من كان في القافلة بجدَّة بعد وصولهم إليها نحو عشرة أيام حتى جاء وابور وحملهم إلى ينبع وأنزلهم بها ليكمل هناك حمولته وكان فيها وابورات متعددة ومن متأخري الحجَّاج نحو ٣٠٠٠ منعهم من ركوبها غلو بلغت ثلاثة جنيهات ونصفًا بعد أن كانت سبعة فرنكات من السُّويس إلى جدَّة ولا شك أن هذا من الظلم الذي تجاوز في الأذى حدَّه فحصل لهم عطل كثير وضرر من التأخر كبير وكاد أغلبهم من المشقة يموت وباعوا أمتعتهم لأجل القوت منتظرين أن يرحمهم قابودانات الوابورات ولا يأخذوا منهم في مقابلة الأجرة هذا المبلغ الكبير الذي كان طلبه منهم سببًا التأخير وقد تيسر لي العود إلى جدَّة ومكَّة في را سنة ٣٠٣ وسألت عن هذا الخبر فقيل: إن العربان قد سطوا على قافلة بالقرب من بحرة فأرسل من مكَّة عساكر لتأديبيهم وتشتيتهم فقفوا أثر هؤلاء الأشرار وسقوهم كئوس الدمار وأتوا برأسي اثنين منهم إلى مكَّة عبرة لغيرهم.

وفي يوم الأربعاء ٢٧ منه سار الرَّكب بعد س ١ من النَّهار وكانت الحرارة ١٧ سنتجراد في أرض متسعة بين جبال متجهًا إلى الغرب وبعد س ٢ و ق ٢٥ إلى الشمال

الغربي في البقعة التي كان يتراءى من البعد أنها قطعة قماش منشورة لارتفاعها عن الأرض السالفة وهي أرض مستوية ذات حشائش وبعد س ٦ كانت رياضة وبعد س ٧ سار في س ٨ بلغت الحرارة ٣١ سنتجراد وبعدت جبال اليمين وكثر الحشيش وبعد س ٩ و ق ٤٥ نزل بمحطَّة (المللیح) أو النضيف في بقعة متسعة سهلة فيها فحائر عذبة الماء عمقها عن سطح الأرض نحو متر وعند غروب شمس هذا اليوم شكى حريمي مغصًا شديدًا ولم أجد منجدًا لإسعافها وحكيم الرَّكب لم يمكنه شيء لأن الأجزاخانة تربط مع الأحمال عند المسير ولا تحل إلا عند المبيت يعني: من بعد اثنتي عشرة ساعة أو أكثر فإذا مرض شخص في مدة السير لم يجد ما يلجأ إليه غير الصبر والتحمل إلى وقت المبيت وهيهات أن يجتمع عليه لأنه متى نزل الرَّكب اشتغل الحكيم بمباشرة نصب خيمته وجمع أمتعته فيها وتحضير عشائه وبذا يضيع زمن طويل لا سيما إن صادف نزول الرَّكب ليلًا لأن الحكيم حينئذٍ يركن كغيره إلى النوم ولا يلتفت إلى من يشكو مرضًا أو ألمًا من القوم إلا إذا كان هذا المريض من العساكر فيجبر على أن يتوجه إليه مع كونه يتضجر ثم اشتد المغص عليها فسهرت معها طول ليلي في معالجتها.

السجوة

وفي يوم الخميس ٢٨ محرم س ١٢ سار الرَّكب وحريمي لم تزل في تعب ولم يتأت لنا المكث لمسير الرَّكب وبعد س ١ قربت جبال اليمين وأشرقت الشَّمس وبعد ق ١٠ تقاربت جبال اليسار وبعد س ٢ اتجه إلى الغرب في أرض متسعة ذات أشجار بين الجبال وبعد س ٢ و ق ٤٥ في درب على اليمين مبحرًا وبعد س ٣ و ق ١٠ تقاربت جبال اليسار وبعد ق ٢ سار في مصعد متسع وبعد س ٣ ونصف انحدر إلى هبوط وبعد س ٤ اتجه إلى الشمال الغربي في واد متسع ذي حشائش كثيرة وعلى

اليمين جبل قريب وظهر على البعد جبل فوقه بناء كالطابية يُعرف بقصر عبلة وبعد س ٥ و ق ٤٥ نزل للرياضة في أرض ببحرها بئر على بعد نحو ساعة ولم أزل أتردد على حريمي لأنظر في حالها وما يلزم لصحتها من العلاج وبعد س ٧ سار في واد متسع وبعد س ٩ وربع سار في زلط وظهر من البعد قلعة الشامي على اليمين وهي من أعلام طريق الحج الشامي وبعد س ١٠ مرَّ بجبل على اليسار وهو قصر عبلة المار ذكره وبعد س ١٠ و ق ٤٥ بتل صغير على اليسار وعلى بعد جبال وعلى اليمين جبال أيضًا متجهًا إلى الشمال الغربي في أرض سهلة وبعد س ١١ و ق ٤٥ نزل بمحطَّة (السجوة) في أرض متسعة صالحة لسير العربات لا ماء فيها وهناك قلعة وبت طول اللَّيل متكدرًا مشغولًا بأمر حرمتي وبعد س ٧ ونصف توفاها الله إلى رحمته وكساها حلل الغفران، وكانت تقيَّة صالحة محسنة عشنا معًا في أرغد عيش نحو ٣٤ سنة ومن إكرام الله تعالى لها أن وجد في الحج مغسلة وبعد تجهيزها والصَّلاة عليها وضعت في صندوق صنع لها في الحال وسُيِّر نعشها إلى المدينة الشَّريفة على بعض الجمال مع خمسة من العربان والخدَّام للدفن هناك في البقيع الذي دفنها به كان لها غاية المرام فإنها وصلت إلى المدينة يوم السَّبت بعد العصر الذي هو ثاني يوم وفاتها ودفنت بجوار قبة آل البيت الكرام عليهم بعد النَّبي أفضل الصَّلاة والسَّلام طيَّب الله ثراها وأكرم مثواها، ومن فرط حزني على فقدها وأسفي على بُعدها نظمت أثناء الطَّريق بعضًا من الأبيات على سبيل الرثاء لها وكان اسمها ألفا رحمة الله عليها:

الوجد يزداد يا ألفا بذكراك ... لولاك ما ناح جفني اليوم لولاك
فارقت دار الفنا في عفة وتقى ... وارحمتاه لقلب ليس يسلاك
أبكي عليك بكاء لا مزيد له[1] ... ما دمت حيًّا أعز الله مثواك

(١) وردت «بكاء ليس أقطعة» ص ٢٢٢ أعلاه.

قـد فـزت بالـدفن في أرض البقيـع كـما قـد حـزت عفـوًا مـن الـرَّحمن مـولاك

(والتَّاريخ)

ألـــــست ألفـــــا الـــــشهيدة حجـــــت وزارت ولبـــــت
في ليـــــل (كـــــط ٢٩) محـــــرم مـــن عـــام (غـــشج ١٣٠٣) توفـــت

وبعد س ٢ و ق ٢٠ من يوم الجمعة ٢٩ محرم سار الرَّكب وأنا مع التأسف والحزن على ما تم وعم جميع من في المأتم، وفي س ٣ و ق ٤٥ مرَّ على بعد من جبل شاهق فوقه أكمة عالية يسمَّى باصطبل عنتر أو (قصر عبلة) وبعد س ٦ و ق ٢٠ وصل إلى مفرق الدرب الشامي حيث على الجانبين جبال وبعد س ٦ و ق ٤٥ نزل للرياضة وبعد س ٧ و ق ٢٥ سار صاعدًا بين جبلين إلى واد، وفي س ٨ صار عرض الطَّريق من خمسين مترًا إلى مائة متر وتسلسلت الجبال على الطَّرفين كالتلال، وفي س ١١ ابتدأ نزول المطر وبعد ربع ساعة نزل الرَّكب للمبيت بمحطَّة (آبار حلوة) قريبة من جبل وبها خمس آبار عذبة الماء على يسار الطَّريق ببقعة متسعة معتدلة محاطة بالجبال ونصبت الخيام على البلل وعند الغروب نزل السيل وامتد واشتد وغمر الأحمال والفرش حتى لم يمكن وضع شيء على الأرض ليجلس عليه إلا ابتل أسفله وأعلاه وفي نصف السَّاعة الأولى من اللَّيل امتنع المطر وقضى كل شخص ليلته بقضاء وقدر بين رطوبة الأرض وفرشه ومن كانت له سحارة ونام عليها صارت كنعشه وأما الفقير الذي ليس عليه إلا القميص وما له خيمة ولا غطاء فكان فرشه الماء أعني: الأرض ببللها وغطاؤه الهواء وخيمته السماء ويفعل الله بخلقه ما يشاء.

الحفائر

وفي يوم السَّبت بعد س ١٢ سار إلى الشمال الغربي مارًّا من طريق أخرى لعرب عنزة بحري الطَّريق المعتادة التي سنذكرها بعد التابعة لعرب جهينة الصعبة السلوك لسبخها وسيولها بخلاف هذه والتي تليها من جهة اليمين فإنها ينسبان إلى عرب عنزة المقيمين بناحية الشام المخالفين للسنَّة الذين يتزوجون بالمرأة ثاني يوم طلاقها ولا يعتبرون العدة وبعد س ١ و ق ١٠ سار في واد متسع ذي حشائش وعن يمينه تلال وعن يساره جبال متسلسلة بعيدة وبعد س ٣ و ق ٤٠ مرَّ على جبل على اليسار منفرد وسط الوادي وبعد س ٥ اتسع الوادي طولًا وصارت الأرض مرملة مستوية وبعد س ٦ كانت رياضة بوادي الحمض والطَّريق المعتادة خلف جبال اليسار وبعد س ٦ و ق ٥٠ سار في واد متسع مستوٍ ذي حشائش متجهًا إلى جبل هرمي قبلي الجبال على بُعد وبعد س ٩ و ق ١٠ مر على أحجار وبعد س ١١ و ق ٥ على تلال عن اليمين وأحجار منتشرة وعند آخرها نزل للمبيت في س ١١ ونصف بأرض سبخة ذات حفائر قيسونيَّة المياه ولذا تسمَّى (بالحفائر) أو النقارات ومياه هذه الطَّريق في أغلبها لزوجة وبها بعض ملوحة ويغلب فيها وجود الصودا أي: النطرون كما يغلب على مياه الطَّريق الشَّرقي وجود الصودا وكبريتات الباريت.

وأما الطَّريق الأخرى المعتادة من آبار حلوة إلى الفقير المسكونة بأعراب جهينة المحرمين أكل لحوم الأرانب المعتقدين أن قسمة عود من الحشيش أو خوصة بين الزوج وولي الزوجة هو عقد نكاح فالرَّكب نزل بالبعد عن آبار حلوه بجوار الجبل الموجود على يمين الوادي في مكان كثير الحشائش غير لائق للمبيت كأرض محطَّة آبار حلوة وفي ثاني يوم سار وكان البرد شديدًا في واد متسع أرضه سهلة، وفي س ٦

استراح وبعد نصف ساعة قام، وفي س ١٠ و ق ١٥ مرَّ على زلط وتلال على اليسار، وفي س ١٠ و ق ٤٠ مرَّ بست آبار على اليمين ماؤها فيه ملوحة قليلة وهناك محطَّة (النقارات) نزل بها الرَّكب وقد أوضحنا الطَّريقين المتبوعتين بالحج.

محطَّة الفقير

وفي يوم الأحد غرة صفر سنة ١٣٠٣هـ بعد السَّاعة واحدة سار إلى الغرب الشمالي وبعد س ٢ سار في أرض مستوية صلبة يعلوها زلط وبعد ق ١٠ كثر السباخ والملح وبعد س ٢ و ق ٣٥ كثر العبل وبعد س ٣ وربع سار في سبخ ومجاري مياه كثيرة يصعب المرور منها عند نزول السيل وبعد س ٤ ونصف قل العبل وبعد س ٥ مرَّ بجبل هرمي أسود عن اليمين وسط الوادي وبعد س ٥ و ق ٤٥ أتى على ملح وعبل وبعد س ٦ وربع نزل للاستراحة وبعد س ٦ و ق ٥٠ سار من طريق سبخة يعلوها ملح وبعد س ٧ ونصف مرَّ بتل أسود على اليسار وسط الوادي وعلى اليمين بعد مسافة تلول وبعد س ٧ و ق ٥٥ نزل بمحطَّة (الفقير) تحت جبال بأرض سبخة بها خمس آبار ماؤها قيسوني وبالأرض قطع أحجار صغيرة ذات خطوط كالخشب المحجر بطول الزمن وعلى حسب الموقع ومن المعتاد سنويًّا الإقامة ثاني يوم الوصول في هذه المحطَّة لراحة الرَّكب والدواب لأن المسافة من المدينة إلى الوجه اثنا عشر يومًا ويلزم أن يكون في كل خمسة أيام أو ستة إقامة يوم للاستراحة ولكن سار الرَّكب برأي الأمير على خلاف العادة.

وفي يوم الاثنين ٢ صفر بعد أخذ مياه لثلاث مفازات لعدم المياه العذبة إلى محطَّة الخوثلة سار بعد س ٤ و ق ٢٥ في طريق بواد مستوٍ ذي رمل ثابت محاط بالجبال المتسلسلة يسارًا وبعد ربع ساعة جبال على اليمين، وفي س ٥ وربع ضاق الطَّريق إلى

عشرين مترًا مع هبوط يسير إلى واد متسع وجبال من الجانبين تقرب تارة وتبعد أخرى، وفي س ٥ و ق ٣٥ وجد على اليسار آثار بناء حائط قائمة طولها ٥٠ مترًا وارتفاعها متران تسمَّى (بالقصر الأحمدي) أو قصر جحا عند العامة، وفي س ٥ و ق ٥٥ استراح، وفي س ٦ و ق ٤٥ سار وبعد س ٨ وربع قربت جبال اليسار واتجه الرَّكب إلى الشمال الغربي وبعد س ٩ ونصف مرَّ من منفذ بين جبلين عرضه عشرون مترًا وطوله مائة متر ثم اتسع الطَّريق وفيه كثير من السعتر وأجشار مسوسة وبعد س ٩ وق ٥٠ مرَّ ببناء منهدم والغالب أنه كان قلعة من القلاع المبنيَّة قديمًا وقد تركت من عهد بعيد لعدم أهميتها وبعد س ١٠ ونصف نزل للاستراحة وبعد ق ١٠ سار في درب متجه من الغرب إلى القبلي بين جبال عالية في اتساع ٥٠ مترًا ل أكثر ثم اتسع وبعد س ١١ وثلث مرَّ على أشجار سنط، وفي س ٢ و ق ١٠ من اللَّيل اعتدل الدرب إلى الغرب تقريبًا، وفي س ٢ وثلث نزل المبيت بين جبال، وفي س ١١ ليلًا سار متجهًا بين القبلي والقبلي الشَّرقي ثم إلى القبلي وبعد س ٢ وربع من يوم الثُّلاثاء وصل إلى جبل أمامه ونعطف عنه يمينًا متجهًا إلى الغرب بين جبلين وبعد ق ٥ نزل بمحطَّة (العُقلة) بضم العين بجوار بئر مالحة لا يصلح ماؤها إلا لشرب الدواب، وقد ماتت ٨ جمال من الرَّكب من التعب وذلك من عدم تدبير الأمير وبعد س ٦ سار بين الغرب والشمال الغربي في أرض متسعة سهلة ثم غّب والجبال من الشمال إلى الجنوب وبعد س ١١ اتجه إلى الشمال الغربي وبعد ربع ساعة مرَّ في متسع بين جبلين وبعد س ٣ و ق ١٠ من اللَّيل نزل للمبيت بين جبال في مكان ليس به ماء وفي هذا اليوم ماتت ١٠ جمال من طول المسافة وثقل الأحمال واتفق أن أربعة من الجمالة انحرفوا قليلًا عن الكرب لجمع الحشيش لجمالهم فنهبت لعرب جمالهم وسلبتهم لباسهم ونجوا بأنفسهم حفاة عراة وحمدوا الله على ذلك.

العقَلة

وبعد س ١١ ونصف من اللَّيل سار وبعد ربع ساعة مرَّ من مضيق إلى متسع وبعد س ١٢ و ق ٥٠ من صبيحة يوم الأربعاء كثر العبل ولعدم استواء الأرض وكثرة الحجارة يتعسر السير ليلًا فلم يمر إلا جملان جملان فقط في إلب المواضع وبعد س ١ و ق ١٠ خف ذلك واتسع الطَّريق وبعد س ١ و ق ٤٥ وجد اتساع مع استواء بين الجبال وبعد س ٢ اتجه من الشمال لغربي إلى الغرب وبعد س ٣ مرَّ بمحجر على اليسار وبعد س ٤ بأشجار وحفرة فيها ماء على اليمين بخيف الجبل وبعد ق ١٠ نزل للاستراحة وبعد س ٥ و ق ٤٠ سار متجهًا إلى جبل شاهق أمامه على البُعد ذي هرمين أسفله محطَّة (الخوثلة) وبعد س ٧ بعدت جبال اليسار وبعد ق ٤٠ مرَّ بتلال على الجانبين وبعد س ٩ ونصف مرَّ بجبل على اليمين من الشَّرق إلى الغرب ثم بجبال على الجانبين وحشائش في أرض مستوية وبعد س ٩ و ق ٥٥ اتجه إلى الغرب وبعد س ١٠ و ق ١٠ مرَّ بأحجار ذات صعود يسير ثم هبوط وبعد عدة انعطافات على حسب الجبال اتجه إلى الغرب وبعد ق ١٠ مرَّ بجبال قليلة الارتفاع وبعد س ١٠ و ق ٢٥ مرَّ بين جبلين في عرض سبعة أمتار وطول مائة متر ثم في متسع وبعد ق ١٠ مر في صعود ثم هبوط ثم صعود بين تلال ثم هبوط وهكذا تارة يمر الجمل وتارة يمر الجملان وفي هذه المحاجر بين الصعود والهبوط والمضيق والاتساع والانعطاف إلى س ١٠ و ق ٥٣ ثم اتجه مغربًا في طرق متسعة مرملة سهلة وبعد س ١١ و ق ١٠ صعد إلى محجر لم يمر منه إلا الجملان فالجملان ثم هبوط ثم صعود من محجر آخر ثم هبوط إلى متسع وبعد س ١١ وق ٣٧ صعد إلى محجر ثم هبط بصعوبة ثم اتجه إلى الشمال الغربي بين جبال وبعد ق ١٣ من الغروب اتجه للغرب وبعد ق ٢ نزل للمبيت بجوار جبال بأرض ليس بها ماء فصار الرَّكب في شدة الضنك من فقد الماء إلى س ٢ من اللَّيل حتى جاء السقاءون به من محطَّة

الخوثلة وكانت على نحو ربع ساعة من مكان المبيت فشربوا حينئذٍ وسبب عدم الوصول إليها ليلًا هو مرض الأمير وعدم ثبات قول الدليل.

محطَّة الخوثلة

وفي يوم الخميس ٥ منه بعد س ١ سار وبعد ق ١٥ نزل بمحطَّة (الخوثلة) في أرض متسعة فيها ٩ آبار عذبة الماء جدًّا وسلسلول ماء جار من سنن وقد قطعنا المسافة بين العقلة والخوثلة في الدفعة الأولى بأقل من هذه وهو أن الرَّكب قام منها في س ١ صباحًا، وفي س ٦ وق ٣٠ استراح، وفي س ٧ و ق ١٥ اتبع البراح مغربًا، وفي س ٨ وق ٢٠ اتجه مبحرًا وبعد ق ١٥ سار مغربًا مبحرًا، وفي س ١١ و١٥ ونزل للمبيت وفي هذا اليوم مات ١٨ جملًا من طول المسافة وثقل الأحمال، وفي س ٩ و ق ٢٠ من اللَّيل سار إلى أن طلع الصباح، وفي س ١ منه استراح وبعد ق ٣٠ قام، وفي س ٥ مرَّ فوق تلال وانحراف إلى بحري بقدر ق ٧ ثم عاد إلى اتجاهه الأول، وفي س ٥ و ق ٣٥ اتجه مبحرًا بين أكمات من صعود وهبوط وبعد ق ٥ استقام، وفي س ٧ و ق ١٠ نزل بمحطَّة (الخوثلة) وقد أوضحنا ذلك ليعلم السير وفرقه في الدفعتين.

وبالخوثلة سوق يباع فيه التمر والغنم واللبن الرائب والأرز والبقصماط وقابلنا الشَّيخ سليمان شيخ قبيلة (بلي) التي مبدأ دركها من هذه المحطَّة إلى الوجه ليخفر المحمل كما هي العادة وأقمنا هناك يومنا وبعد س ٩ من اللَّيل سار آخذًا معه ما يحتاجه من المياه إلى محطَّة الوجه مارًّا من محجر خفيف إلى واد ذي عبل كثير كبير وبعد ق ٣٠ صعد من طريق مستوٍ عرضه ١٥ مترًا إلى درب متسع فيه عبل قليل، وفي س ١٠ اتجه مبحرًا بين جبال كالتلال وبعد ق ٥ اعتدل إلى الغرب الشمالي في متسع، وفي س ١٠ و ق ١٥ وصل إلى مبتدأ تلال وجبال، وفي س ١١ و ق ٢٥ مرَّ في

زلط وأحجار ثم رمل في اتساع بين الجبال وبعد ق ٥ وصل إلى ابتداء جبال ضرب المحشرة وبعد س ١٢ و ق ١٥ من صبيحة يوم الجمعة مرَّ في متسع بين جبال ذي رمل مستوٍ وبعد ق ٢٠ نزل للرياضة وصلاة الصبح وبعد س ١ و ق ١٠ سار بين الغرب والغرب الشمالي وبعد ق ٢٥ وصل إلى انتهاء درب المحشرة وجبال اليسار بأرض رملها ثابت وبعد س ٢ وق ١٥ سار في أرض بها سنط تعرف (بالمحشرة) وجبال خفيفة عن اليمين وبعد س ٣ و ق ٤٥ انتهت جبال اليمين واتسع الوادي باستواء واتجه إلى جبلين غربًا وثلاث أكمات يمينًا متفرقة على البُعد في امتداد الطَّريق وبعد س ٦ نزل للرياضة وبعد س ٧ و ق ١٠ سار وبعد س ٧ و ق ٣٥ صعد إلى سطح مرتفع غير مستوٍ متجهًا إلى الشمال الغربي بالقرب من محطَّة (أم حرذ) ولعدم الآبار بها سار في أرض سهلة بالقرب من (مفرق الدربين) أعني هنا: الدرب والدرب الموصل إلى ينبع البحر وبعد س ١٠ و ق ٥٥ صعد إلى سطح بين جبال وبعد س ١١ نزل للمبيت في مكان ليس فيه مياه وبعد س ٩ و ق ١٠ من اللَّيل سار وبعد س ١١ هبط بين أكمات وبعد س ١٢ و ق ١٠ نزل لصلاة الصبح.

وفي يوم السَّبت ٧ منه سار بعد مضي ق ٤٠ من النَّهار بين أكمات ذات اعوجاج وازورار متجهًا إلى الشمال الغربي ثم مرَّ بين أكمتين تسميان (بالنهدين) إلى طريق متسع وبعد س ١ مرَّ على جبال صغيرة عن اليمين وتلال متسلسلة عن اليسار وبعد س ١ و ق ٥٥ مرَّ بين صخور صغيرة مع صعود يسير وبعدت الجبال والتلال وبعد س ٢ وق ٢٥ مرَّ على أحجار وعلى اليمين تلال وبعد ق ١٥ مرَّ بين جبلين صغيرين ثم تسلسلت التلال يمينًا ثم بعد وفي الأمام على بُعد جبل يسارًا وبعد س ٣ و ق ٢٥ ظهرا البحر على بُعد س ٣ و ق ٥٥ مرَّ في صعود يسير على تل ثم هبوط بعد ق ٢ والجبال من الجانبين ممتدة إلى محطَّة الوجه وبعد س ٤ و ق ٧ على رمال خلفها الجبل المار ذكره ثم هبوط منها ويتجه إلى قلعة الوجه إذا أراد القلعة ويصلها بعد س ١ و

ق ٣٠ وأما إذا أراد المينة فيتبع طريقها وهو في س ف ٥ يمر في براح متسع مستو إلى البحر وبعد س ٧ في أرض مرتفعة يسارًا تؤخذ منها أحجار للبناء وبعد ق ١٣ مثل ذلك يمينًا وعلى اليسار تل وبعد ٧ و ق ٤٠ نزل بجوار (مينة الوجه) وكان بها الوابور المسمى بالمنصورة منتظر الرَّكب ليوصله إلى السُّويس.

ولنترك الآن المينا والسَّفر منها بحرًا إلى السُّويس ونذكر العود برًّا من القلعة إلى السُّويس لكن إنما نذكر المفيد الذي لم نذكره ولا حاجة لتكرار لسير والمعالم بالمحطَّات التي ذكرت ومر منها المحمل ذاهبًا بل نذكرها مجملة وهي محطَّة (اصطبل عنتر) و (ازلم) و (سلمى) و (كفافة) و (المويلح) و (عيون القصب) و (مغائر شعيب) و (الشرفا) و (ظهر حمار) و (قلعة العقبة) و (بئر أم عبَّاس) و (قلعة نخل) و (وادي الحصن) و (وادي التيه) حتى وصل إلى (الناطور الأخير) من وادي التيه وسار مقبلًا في واد متسع به رمال هابطة وصاعدة وبعد س ٤ نزل الرَّكب من هذا الناطور (بعيون موسى) بالقرب من شاطئ البحر في فلاة متسعة لأجل الركنتينة وبها مأمور والكرنتينة وسوق مؤقتًا لبيع ما يلزم للحجاج والمياه اللازمة للشرب تجلب من السُّويس بواسطة الفناطيس والمراكب.

وفي يوم الجمعة ٢٠ صفر حضر ومحافظ السُّويس ومعه حكيمباشي الكرنتينه والمأمورون فنظروا الحجَّاج وأخذوا تعدادهم وتعداد دوابهم وهم واقفون بالبعد عنهم وجعلوا ثمانيًا وأربعين ساعة كرنتينة على الحجَّاج ولوجود الجمال معهم أوصلوها إلى اثنين وسبعين ساعة من ابتداء وصول الحاج إلى محل الكرنتينة وأما الخيول والبغال والحمير فأمروا بإبقائها بالكرنتينة أحدًا وعشرين يومًا ثم توجهوا فحضرت المرتبات والعلائق والبياعون في الحال كالعادة عند وصول الحجَّاج وكان تعداد الآدميين من عساكر ومستخدمي الصرة وأتباعهم ٥٩٣ سوى الأغراب والفقراء.

عيون موسى

وفي يوم السَّبت ٢١ ص أقام الرَّكب بالكرنتينة وبالبعد عن محلها بنحو أربعين دقيقة إلى الشَّرق (عيون موسى) بواد سهل مرمل به خمسة بساتين لبعض الأوروباويين القاطنين بالسُّويس ينتقلون إليها صيفًا وفيها نخيل وبعض أشجار مثمرة والأرض هنالك مزروعة شعيرًا وقمحًا فقط بسبب الرمال وعدم السباخ لزرع الخضار وبأحد هذه البساتين ثلاث حفائر ماؤها قيسوني عمقها عن سطح الأرض نحو المتر والمترين ومن هذه البساتين ثلاثة في كل منها عينان وهذه العيون منها ما هو صالح لشرب البهائم ومنها ما هو مالح نوعًا وبالبستان الخامس عين ماؤها عذب وبالبعد عن هذه البساتين بثلاث دقائق أرض مرتفعة نحو مترين عن أرض البساتين مع انحدار بها نخلة عالية وبجانب جذعها عين قيسونيَّة عمقها من سطح الأرض ثلاثون سانتي وقطر دائرة الحفرة متر واحد وبالبعد عن النخلة بمسافة ستين مترًا تل مرتفع نحو ستة أمتار سطحه مستوٍ بقدر عشرة أمتار وفي وسطه ماء معين قيسوني مساوٍ للسطح.

وفي يوم الأحد ٢٢ صفر حضر صباحًا سعادة محافظ السُّويس وحكيمباشي الصحة ومأمور الكرنتينة وفرزوا الآدميين والمواشي وأفرجوا عمن بالكرنتينة إلا الخيل والبغال والحمير، وفي س ٧ و ق ٢٠ قام الرَّكب واتجه إلى بحري محاذيًا للمالح ومتباعدًا عنه بمسافة قليلة في أرض مرملة كثيرة السباخ تاركًا العساكر والخيول والحمير بالكرنتينة إلى حين انقضاء المدة، وفي س ١١ و ق ٢٠ وصل إلى (القنطرة) فلم يمكن المرور عليها لكونها مفتوحة لمرور المراكب فنزل بالقرب منها في موضع يعلوه كثير من الأملاح والسباخ فبات هناك متكدرًا من عدم وجود الطعام والمياه العذبة ومن عدم إمكان وضع ما يجلس عليه لشدة رطوبة الأرض وكثرة سبخها

وقد اشتدت الرطوبة ليلًا على الحجَّاج من هذا السباخ.

وفي يوم الاثنين ٢٣ ص حضر سعادة المحافظ قبل الشروق ومعه العساكر والخيالة للسير مع الرَّكب وأمر بإغلاق القنطرة، وفي س ١ من النَّهار مرَّ أول الرَّكب وانتهى آخره في س ٣ و ق ٣٠ وسار إلى أن وصل إلى محطته المعتادة بالقرب من السُّويس في س ٥ و ق ٣٠ وصار استلام التعيينات اللازمة لحد مصر من الشونة وفي هذا العام لم يصر وكب المحمل، وفي س ٩ ليلًا شدت الأحمال على الجمال وسار الرَّكب مهتديًا بالمشاعل بدون إشعار أحد من أهل البلد فمر من كوبري الترعة الحلوة واتجه لطريق مصر ليلًا بأرض ناشعة من المالح حتى صارت الجمال تتقدم رويدًا إلى أن وصل الكرب في س ١١ إلى بئر (السُّويس) ونزل للاستراحة، وفي س ١٢ جد السير في الطَّريق الذي قطعه عند طلعته، وفي يوم الخميس ٢٦ صفر السَّاعة ٣ نهارا ٢٧ يناير وصل العبَّاسيَّة وكان هناك جم كثير من الأهالي ينتظرون الأقارب والخلان وبلقائهم ازداد فرحهم ودخلوا معهم مصر آمنين بعضهم بالطبل والموسيقى والبعض متلفع بالشيلان وصار ما كابده الحجَّاج من التعب كأنه ما كان بل ترك في حيز النسيان فسبحان خالق الأكوان المنفرد بالبقاء وكل من عليها فان.

فكرة

وإذ قد أنهينا الكلام على الحاج المصري من مبدأ خروجه حتى عاد إلى الأوطان فلنذكر نبذة خطرت على الأذهان وهي أن الحجَّاج يكابدون بالبر المشاق التي لا مزيد عليها في النفوس والأجسام، أما في النفوس فحرمانهم لذة الطعام إما لعدم وجوده في الطَّريق أو لأنه لقصر الإقامة بالمحطَّات لا يتمكن من إنضاجه كما يليق أو لتناولهم على الدوام من الطعام ما ليس بعادتهم كالبقصماط والجبن والزيتون بسبب

حاجتهم وكالعدس على حدته أو مع الأرز إن وجد الماء العذب فإنه لا ينضج مطبوخه بالماء المالح وحرمانهم أيضًا من لذة الشراب لتنوع المياه مع قلتها في أغلب الأحيان فتارة مُرة وتارة قيسونيَّة وتارة لزجة أو نتنة من الاختزان فإنها متى مكثت في القرب أكثر من يومين عرض لها النتن، وأما المشاق التي يكابدونها في الأجسام فهي تغير أوقات منامهم وقيامهم ومقاساتهم مشاق السَّفر من ركوب الجمال ولو في المحفات مع إدامة القرفصاء والنوم بها مع أضغاث الأحلام والفزع عند القيام بحيث تعرض لرءوسهم وأعناقهم وأوساطهم في أقرب وقت الآلام من الاهتزاز ليلًا ونهارًا على الدوام ويستمرون على هذه الحالة ثلاثة أشهر بالتمام فضلًا عن الإقامة شهرًا بمكَّة وبمدينة خير الأنام وإن عرض لأحدهم في أثناء سيره البول لم يمكنه النزول عن دابته إلا بالمشقة لقضاء حاجته خوفًا من التأخر عن متاعه ورفقته ومن كان منهم على ظهر حصانه لم يستطع دوام الركوب مع عدم النوم ومن كان ماشيًا على قدميه عرض له الحفا وصار من شدة التعب على شفا ما لم يكن سائسًا أو محترفًا بحرفة الحمارة، ومع هذا فمن هؤلاء من يكل ويتأخر لطول مشيه ليله ونهاره ومنهم من يمشي وهو في حالة منامه قائدًا الجمل بما حمل من زمامه كما شاهدنا ذلك مرارًا في هاتيك المسالك وما يكابدون من شدة البرد لا سيما إذا كان ذلك باللَّيل وما يحلقهم ودوابهم من المتاعب عند نزول السيل وهذا كله يسير بالنسبة للخوف من الأعراب المتعرضين لنهب الحجَّاج وقتلهم إلا أن جميع هذا الضرر البين ليس له تأثير عند المسلم المتدين بل يحتسبه عند ربه طامعًا أن يجازيه على ذلك بغفران ذنبه لأنه متى خرج من بيته مهاجرًا إلى بيت الله الحرام ثم إلى زيارة قبر نبيه عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام واستولى هذا المقصد على لبه وتسلطن عليه آخذًا بمجامع قلبه تعلقت آماله بالوصول إليه وأنفق في مرضاة الله تعالى ورسوله كل ما لديه وتحمل جميع المشاق مع الصبر والحزم محصيًا الأيام والساعات وما مضى منها وما هو آت لا

يخطر غير هذا بفكره ولا يشتغل عنه بشيء غيره مؤملًا بلوغ مأربه فلولا أن للحاج أيامًا معدودات يقربها مرور الأوقات ويدنيها تتابع الساعات لنحل جسمه من شدة الشوق أو مات، وأما يوم الوصول فياله من يوم تكل عن وصفه الألسنة وتندهش بمشاهدته العقول ومتى أديت هذه الفريضة الشرعيَّة بمناسكها المرعيَّة واكتسب كل من الأجر على حسب أفعاله المرضيَّة وما وفق إليه من خلوص النيَّة ثنيت الأعنة إلى الأوطان واشتد الشوق إلى لقاء الأهل والخلان فعند ذلك يلتهب القلب ويشتعل وبالقرب من الأحبة على الدوام يشتغل وتحسب الأوقات بالثواني والثوالث ويزداد القلق والأرق بانتظار المكاتيب وخوف الحوادث حتى يصلوا إلى المواطن ويلتقي المسافر والقاطن فعند ذلك يفتخرون بمشاهدة هاتيك الآثار الشَّريفة ويتفاوضون في كيفيَّة أداء تلك المناسك المنيفة ويتمثل من يحركه الشوق بما يعزي إلى حضرة الإمام أبي حنيفة وهو:

كيف الوصول إلى سعاد ودونها ... قلل الجبال ودونهن حتوف
والرجل حافية وما لي مركب ... والدرب وعر والطَّريق مخوف

وعند وصولنا إلى مصر عرضنا على أولي الأمر صعوبة السير برًّا فصدرت الأوامر بتوجه المحمل بحرًا من الآن فصاعدًا كما ذكرناه سابقًا.

ولنرجع الآن إلى مينا الوجه ونذكر السَّفر بحرًا إلى السُّويس فنقول: إن هذه المينا المذكورة عبارة عن سوق مستطيلة على يسارها دكاكين وقهاوي على البحر وعلى يمينها سطح مرتفع به بعض بيوت وطابية فيها أربعة من الطوبجيَّة وستة أنفار بيادة ومدفعان من الحديد من الطراز القديم وكان بها برج قديم ثم هدم والآن جار بناؤه بمقاولة ٢٢٥٦ جنيه وارتفاعه عن سطح البحر اثنا عشر مترًا ونصف وعن القاعدة ستة أمتار والمدفعان أحدهما جبلي والآخر قبوس وبهذه المينا ١٢ طوبجيًّا ماهية كل منهم ٢٢٠ قرشًا ومن البيادة ٣٤ بماهية ١٣٠ مكفي للنفر وبلوكباشي

واحد وأسطة طوبجيَّة واحد بماهية ٥٠٠ قرشًا وجميعهم من الأهالي وماهياتهم تصرف لهم من مصر في كل ستة أشهر وعدد الأهالي نحو ألف نفس من القصير وينبع والوجه والصعيد وبها محافظ بوظيفة صاغقول أغاسي وبها من الصهاريج خمسة يملأها السيل يحمل الماء منها إلى محطَّة ضبا وإلى القصير وهناك آبار بقلعة الجبل على مسافة ساعتين وأربعة آبار على مسافة ثلاث ساعات ماؤها قيسوني صالح لشرب الدواب وفي بيوتهم صهاريج تمتلئ من السيل أيضًا وبالبعد عن قلعة الجبل بنحو ق ١٥ وفي الجهة الشَّرقيَّة حفائر عذبة الماء جدًّا وبها ثلاثة جوامع وزاويتان و ١٥٠ منزلًا مبنيَّة منها ما هو دور واحد وأغلبها دوران وفي صباح يوم الأحد توجَّهت مع الأميرالاي وابور المنصورة لرُؤية أماكنه وترتيبها للمتوظفين على حسب درجاتهم وعند رجوعنا وجدنا شابًّا من الحجَّاج السائرين صحبة المحمل قتل غلامًا صغيرًا فقبض عليه وأتي به في الحال إلى خيمة الأمير وقميصه ملوث بدم القتيل ومعه سكين ماضية ملوثة بالدم أيضًا فكتب بذلك محضر بعد إقرار القاتل بالقتل وهذا المحضر مكون من كل من محافظ البندر وقاضيه ومن المتوظفين وحوفظ على القاتل ليصير تسليمه إلى محكم مصر ليجازي بمقتضى القوانين وأصل هذا القاتل مسيحي من أقباط مصر اسمه بخوم مخائيل وسنُّه نحو ٢٢ سنة وعلى ما قيل: أسلم وخرج للحج خدمًا لإحدى المخدرات المشهورات بمصر وتسمَّى بأحمد أمين وكان مع هذه الست بنتاها وجاريتها ووكيلها وولده الذي قتل وسنُّه نحو ١٢ سنة وقد حرر لهذا القاتل في مكَّة إعلام شرعي بإسلامه ولما توجه المحمل إلى المدينة رافقوه فحصل بين القاتل والوكيل أثناء الطَّريق مشاجرة وقبل الوصول إلى المدينة بيومين حضر الوكيل عند الأمير متشكيًا من هذا الخادم وأخبر أنه على دينه الأصلي وبأن بينه وبين الست اتحادًا وبأن ادعاءه الإسلام غش فأمر الأمير بمنعه من دخول المدينة لزيارة حرم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وقد حصل وبعد قيام

المحمل من المدينة إلى طريق الوجه أمر الأمير بتخلية سبيله وأن يمنع من مخالطة خيمة سيدته فلما وصلوا إلى الوجه أراد القبطي الانتقام من الوكيل فاغتال ولده خلف إحدى الخيام في س ٣ من النَّهار فكفاه على الأرض واحتز رأسه بالسكين فقطع على الفور نصف عنقه فمات حالًا وكان بالقرب منهما شخصان سمعا صرخة القتيل فأقبلا لإغاثته فوجداه قد مات فشدوا وثاق القاتل إلى أن عدنا من الوابور وعمل المحضر كما ذكرنا وقد اتهم هذا القاتل سيدته بأنها هي التي أغرته على ذلك وأن إحدى ابنتيها أعطته السكين وجاريتها أمسكته له من يده ورجله ليقتله ذبحًا لكن ظهر كذب دعواه في مساعدة الجارية له على ذلك لأن الشخصين الشاهدين المذكورين شهدا بأنه قتله وحده ولما وصلوا إلى مصر سلم القاتل إلى محكمة مصر ليحاكم فيها وحصل له المساعدة من أبناء جنسه وعوقب عقابًا يسيرًا.

وفي يوم الاثنين ٩ ص حضر قبودان الوابور فأعطى غير أرباب الوظائف الذين مع المحمل تذاكر بالأجرة عن السَّفر في الدرجة الأولى ٤ جنيهات وما عداها اثنين جنيه ثم تنازلت إلى ٢ بنتو وعن الجمال ٥ جنيهًا وعن الخيل والحمير ٤ جنيهات وبعد الزَّوال نقلت المهمات إلى الوابور ثم الركاب وانتهى ذلك قبيل الغروب وكان به من الركاب ٢٠٠ نفر بالأجرة و٤٠٠ تبعة المحمل وخيول ٤٤ وفقراء ٤٨ مجانًا.

وفي يوم الثُّلاثاء ١٠ منه بعد س ٣ الوابور من الوجه قاصدًا الطور.

الكرنتينا بالطور

وفي يوم الأربعاء بعد س ٢ و ق ٥٠ مرَّ على أشجار ونخل يمين على شاطئ البحر وتراءت بلدة الطور من البعد وبعد س ٣ و ق ٦ ضربت مدافع السَّلام من الوابور، وبعد س ٣ و ق ١٥ رسا على (مينا الطور) وكان يقطع في السَّاعة الواحدة

٨ أميال وفي الطور على شاطئ البحر جامع وكنيسة ونحو ٢٥ بيتا سكانها أروام وأربعة أبيات للمسلمين وحمام معندي على مسافة نصف ساعة محاط بالنخيل بناه المرحوم عبَّاس باشا وهنا بلوكباشي واحد وأربعة من العساكر واثنان من الخفراء للسانيتا ومحل على شاطئ البحر على بعد ثلثي ساعة يسمَّى بالقروم به نخيل وعدة مساكن لمسلمين من عربان وفلاحين نحو ١٢٠ وفي الجهة البحريَّة موضع يسمَّى مسيعد فيه نحو ٤٠ نفسا من العربان وفي بحري المينا موضع آخر يسمَّى الوادي به ١٥٠ من العربان وأما الدير الذي على جبل الطور فبينه وبين المينا ١٨ ساعة بالهجين و٥٦ بالجمال وفي زمن الحج يحجزون الحجَّاج عند عودتهم في هذه المينا لأجل الكرنتينا ويحضر إليها من مصر حكيم ليقيم بها مدة الحج ومحل الكرنتينا في أرض براح مرملة بعيدًا عن شاطئ البحر وفيه اسبتالية وبناءان معدان للمخازن وبالبعد عنهما بألف متر زمالك من الخشب منها أربعة كبار واثنان صغيران جميعها خرب يمر الريح منها كيف شاء وبالبعد عنها بنحو مائتي متر ألف خيمة مضروبة قبابها سليمة ودوائرها بالية ممزقة من جميع جوانبها يمرض الصحيح إن بات بها في ليالي الشتاء لا سيما إن نزل المطر وهذه الخيام مرتبة صفًّا وصفًّا وبين الصف والذي بعده مسافة تختلف وذلك لينزلوا عند مجيء الوابورات جماعة كل وابور بخيمة متباعدة عن غيرها من الخيم متى ورد هنا وابور أو وابوران أو ثلاثة في أيام متعاقبة ويأخذون عن كل نفس ريالًا مجيديًّا مقننًا وأربعة قرش في مقابلة التعدية من الوابورات ذهابًا وإيابًا إلا المستخدم والفقير جدًّا ومتى زادت الكرنتينا عن ٤٨ ساعة زاد المقنن على حسب تلك الزيادة وفي العام الماضي لما أتى وابور المحمل إلى هذه المينا لم ينزل من ركابه أحد ومكث المدة وأخذ الشهادة من الحكيم وتوجه إلى السُّويس وأما في هذا العام فحكيم الكرنتينا المسمى باللَّيلي تلياني البلدة فإنه أمر بإنزال جميع الحجَّاج من أمير وفقير حتى الحريم ولم يترك بالوابور إلا عساكره ونحو

خمسة عشر نفسًا لخدمة الخيول فترجاه الأمير أن يبقيه مع حريمه وبعض المتوظفين النازلين في الدرجة الأولى فإنه أبقى به بعضًا من الحجَّاج لخدمة الخيول على أن محافظ السُّويس معه أوامر بإبقاء نحو خمسين شخصًا في كل وابور فأبى بالكليَّة وأنزل جميع من كان في الوابور فيا ليت شعري ما فائدة الكرنتينا إذا اختلط بعد انتهاء مدتها من نزلوا إلى البر بمن بقي في الوابور ثم عادوا معًا إلى السُّويس وأيضًا قد أقام بالزمالك بعض المتوظفين وبعضهم أقام بالخيام وقد كان قبودان الوابور يتردد منه إلى من في الكرنتينا بلا حرج ومن العجائب أنه صار منه المقيمين بالخيام من الاجتماع بمن في الزمالك مع أنهم من وابور واحد وقد توجَّهت من الزمالك إلى الخيام وما منعني أحد لا في الذهاب ولا في الإياب ووجدتها على أسوأ حال من هبوب الرياح فيها من جميع الجوانب ومن كونها عرضة للبرد فضلًا عن أنها لا تقي منه أحدًا وشممت داخل بعضها نتن جيفة فأخبرت الحكيم بذلك فأمر بنقل الخيمة وأخبر بأن هذا المكان مقبرة فتعجبت من السانيتا كيف تنصب الخيام المعدة للصحة على العفونات والقاذورات وتفتخر بأنها أدت وظيفتها السنيَّة وقامت بواجبات الصحة العموميَّة والحال هو ما شرحته فإن الحقيقة أن بعض الحجَّاج الذين تقدمونا توفي أحدهم أثناء الكرنتينا فدفنه أصحابه سرًّا داخل الخيمة وقد أشيع وبلغني من عبد الحميد أفندي معاون مأموريَّة الكرنتينا أن شخصًا مستخدمًا بالسانيتا أخذ هو وحكيم الكرنتينا من قومندان وابور شبين أحد عشر جنيهًا على سبيل السمسرة في مقابلة نزول بعض الحجَّاج من وابور يسمَّى راجي كريم إلى وابوره لا يخفى أن هذا مخل بالشرف ثم فيما بعد في السنين الآتية صار تنظيم الكرنتينا على ما يرام.

وفي يوم الجمعة ١٣ ص بعد س ٦ و ق ٣٠ رخص للحجاج في النزول إلى الوابور فنقلتهم القطائر إليه وبعد س ٩ سار وبعد ق ٣٠ من صباح يوم السَّبت ١٤ ص وصلف إلى مينا السُّويس، وبعد السَّاعة الأولى رسا، وبعد س ٤ وق ٣٠ حضر

الحكيم وأتباعه فأمر بفك الكرنتينا ثم رسا الوابور على الرصيف وأخرج ما فيه من المهمات حرر إلى مصر تلغراف بطلب إرسال عربات السكة اللازمة لنقل المحمل وأتباعه فحضرت إلى السُّويس قبل الشروق.

وكب المحمل بالسُّويس

وبعد س ٤ من يوم الأحد أتت إلى رصيف البحر ونقل بها ما في الوابور وقامت بعد س ٨ ووصلت إلى السُّويس بعد ق ٢٠ فوكب المحمل وطاف بشوارع السُّويس وابتهج به جميع أهلها فرحًا وسرورًا ثم أعيد إلى العربات وبعد س ٣ و ق ٣٠ من اللَّيل سار.

الوصول إلى مصر

وفي يوم الاثنين ١٦ ص بعد س ١ وق ١٥ وصل إلى محطَّة مصر بالعبَّاسيَّة فنزل بها بعض الركاب وفي ثاني يوم وكب منها إلى ميدان محمَّد علي في جمع عظيم ومحفل جسيم وسُلِّم إلى يد الحضرة الفخيمة الخديويَّة كالمعتاد.

قمع الصدقة

وفي شهر (ربيع الأول) سنة تاريخه تعينت من الماليَّة لتسليم قمح صدقتي مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة بجدَّة عن سنة ١٣٠٢هـ أعني: سنة ١٨٨٥ مسيحيَّة المحضر من بومباي بالهند مشتركة للحكومة المصريَّة من الخواجة بيل وشركائه وذلك لارتفاع السعر بمصر وكان مقداره ٢٠٧٨٨ إردب وأصل هذا الترتيب من خلافة

سيِّدنا عمر رضي الله عنه كما سبق ذكره وكان مقدار (١٠٠٠٠٠) إردب بحسب الروايات ثم انقطع شيئًا فشيئًا ثم أعيد في مدة السلطان سليم وكان يصنع خبزا أقراصًا ويفرق باسم جراية صدقة على الفقراء وفي مدة المرحوم محمَّد علي باشا استبدل ذلك بتفرقتها حبًّا بدل الأقراص فصدقة مكَّة تبلغ ١٢٠٠٠ إردب وصدقة المدينة ٨٠٠٠ إردب مع زيادة ٧٨٨ إردب في مقابلة مصاريف المشال من ينبع إليه وأما مصاريف النقل إلى شونتي جدَّة وينبع فتخص الحكومة المصريَّة ومنها إلى مكَّة والمدينة تخص أرباب الصدقة والإردب المصري بجدَّة يساوي ٥٤ كيلة وذلك على حسب حجم مكاييل هذه الجهات وأما بمكَّة فيحسبون الإردب ٥٣ كيلة والفرق يجعلونه في نظير العجز الذي يحصل من المشال من جدَّة إليه وقد توجَّهت من السُّويس في ١٢ را سنة ١٣٠٣هـ وصلت جدَّة في ١٦ منه صباحًا ومنها توجَّهت إلى مكَّة ثاني يوم على حمير الأجرة بدون لجام ولا ركاب كما هي العادة في اثنتي عشرة ساعة منها ساعة ونصف استراحة بالمحطَّات وأما الجمل فيصل بعد ٣٣ ساعة كما سبق ذكر ذلك وفي محطَّة (حدّة) بالحاء وتشديد الدال رأيت من العساكر الشاهانيَّة نحو طابور أعني: خمسمائة نفر ومدفعًا واحدًا متوجهين إلى جدَّة ثم إلى ينبع البحر لإطفاء الثورة التي قامت بها من عربان بني إبراهيم فإنهم هجموا على السجن وأطلقوا منه شخصين وقتلوا أربعة من عساكر الضبطيَّة وفي اليوم الثَّاني تقابلت مع سعادة والي الحجاز عثمان باشا نوري وسعادة أمير مكَّة الشَّريف عون الرفيق باشا وقد بلغت الحرارة في هذا اليوم ٢٩ درجة سنتجراد ودعاني سعادة الشَّريف إلى وليمة صنعها بقصر المرحوم حسين باشا الشهيد بالهجيليَّة بطريق جدَّة بعيدًا عن مكَّة بثلثي ساعة فتوجَّهت مع سعادة الوالي في ١٩ منه صباحًا وكان هناك بعض من الشرفاء والضابطان والأعيان وجرى إطلاق بعض المدافع بالكلل للتجربة في ميدان متسع أمام القصر وكانت الموسيقى العسكريَّة والنوبة التركيَّة يترنمان بجميع

الألحان، وبعد العشاء والعشاء أطرب العود والقانون كل مشتاق ولهان وكانت ليلة بهجة سرت قلوب الحاضرين وانصرفوا في منتصف اللَّيل حامدين شاكرين، وفي صباح ٢٠ منه بعد س ٢ فتح بيت الله الحرام للغسل كما هي العادة السنويَّة في ٢٠ را، وفي ثاني يوم عدت إلى جدَّة وعند حضور الوابور من بومباي بقمح الصدقة صار نقل القمح منه بواسطة فلايك إلى البر ثم الشونة وتلك الفلايك تسمَّى سنابك والمفرد سنبوك وأجرة مشال الإردب من الوابور إلى البر ومنه للشونة قرشان بعملة جدَّة وجرى إعمال المعدل بها بواسطة القادوس والكيل المصري بحضور قومسيون تشكل لذلك يكون التسليم والتسلم للأهالي بموجبه وتحررت الشروط اللازمة عن ذلك وعند انتهاء التسليم أعطيت السند اللازم إلى وكيل المتعهد بالمقدار الوارد بالشونة كالأصول وسيق مرتب مكَّة إليها شيئًا فشيئًا على حسب وجود الجمال وأما حصة المدينة فصار نقلها إلى ينبع على مرات بوابورات البوسطة الخديويَّة ثم توجَّهت ثانيًا إلى مكَّة مع ثلاثة من عساكر جدَّة بمبلغ ٧١٧٥ جنيه مصري بدل ثمن قمح متأخر من مرتب سنة ١٣٠١ لمكَّة والمدينة باعتبار كل إردب جنيه مصري واحد وكانت الأمنية انتشرت بالطَّريق بسبب وضع عساكر للخفر في جميع المحطَّات من جدَّة إلى مكَّة لمنع تعدي العرب على المسافرين كما قد حصل بعد الحج وشتتهم العساكر وقطعوا رأسين من هؤلاء العرب وأرسلوهما إلى مكَّة عبر لغيرهم، وبوصولي إلى مكَّة أجريت تسليم الجنيهات إلى سعادة الوالي كأمر الماليَّة وصار تفرقة حصة مكَّة لأربابها وأخذت سندًا دفترًا بذلك وقد اشتد البرد ليلًا حيث صادف ذلك شدة الشتاء بتلك الجهات وبلغت الحرارة ١٧ درجة سنتجراد ثم عدت إلى جدَّة وركبت وابور البحر وتوجَّهت إلى ينبع للنظر في توريد مرتب المدينة إلى شونتها وإيصال ما خص أهالي المدينة من المال المذكور إلى يد سعادة شيخ الحرم المدني بالمدينة، ولما وصلت إلى ينبع بعد س ٢٤ وجدت شونة الميري أوسع وأمتن من

شونة جدَّة والوابور يرسو على بُعد ١٥٠ مترًا من الرصيف وأجرة نقل الإردب الواحد من الوابور إلى الشونة قرش واحد والقرش المصري سبعون فضة ومرتب المدينة تستلمه من الشونة التجار الموكلون عن أهالي المدينة وقد اشتروا أغلبه من أصحابه ليبيعوه لخلافهم ويرسلوه إلى المدينة شيئًا فشيئًا.

وينبع مشهورة بكثرة الذباب للعفونات عن عدم المراحيض بالمنازل، فأما أهاليها من نساء ورجال فيتبرزون بالأزقة وعلى شاطئ البحر كما ذكر سابقًا ووجدت العساكر مجتهدة في بناء سور للبلدة طوله ثلاثة آلاف ذراع تحفظًا من هجوم الأعراب الأغراب وتسهيلًا للهجوم على المعتدين منهم وصيانة للذخائر ولم يمكني التوجه إلى المدينة لانقطاع الطَّريق من ابن حذيفة حتى أني وجدت قافلة منتظرة التوجه إليها من مدة بالصفراء وكان ابن عاصم أيضًا قاطعًا لطريق جدَّة ووجدت كتابًا من سعادة شيخ الحرم النَّبوي يأمرني فيه بتسليم المال الذي معي إلى الأمين المتعين من طرفه لاستلام القمح بينبع لانقطاع الطَّريق فسلمته ذلك بالسند اللازم وعدت إلى جدَّة في مركب شراع تسمَّى سنبوك لعدم وجود وابورات ولا أقدر على شرح ما تم لي من عدم الرَّاحة وكثرة المشقات والخوف من الأشعاب وتلاعب الرياح وقد انكسر في هذا الشَّهر أربع مراكب بالأشعاب التي بين جدَّة وينبع ووصلت إلى جدَّة في أربعة أيام وحمدت المولى العلام والسير كان نهارًا فقط على حسب الريح وكان المركب يرسو بالقرب من البر قبل الغروب بساعة وكانت الحمى متسلطنة في هذا الطقس بتلك البلاد ويتداوون منها بالملح الإنكليزي شربة وبسلفات الكينا تعطيًّا وهيهات أن يكتسبوا الصحة كما ينبغي ثم توجَّهت إلى مكَّة، وفي ١٧ منه عدت إلى جدَّة وانتظرت مجيء وابور البوستة، وفي ١٩ تقابلت مع قائمقام الولاية بها الجديد لحضوره أمس من الحديدة وكان حكمًا ببلدة بيت الفقيه ورتبته أمير الأمراء المضاهية لرتبة القائمقام الجهادي، وفي غرة ج سنة ١٣٠٣هـ

الموافق ٦ مارس سنة ٨٦ ركبت وابور البحر ووصلت إلى السُّويس ثم وصلت إلى مصر ثاني يوم وقدمت أوراق مأموريتي إلى الماليَّة حسب الأصول والطَّريقة الحسنة في تسلم قمح صدقتي مكَّة والمدينة هي أن يصير توريد مرتب أهالي مكَّة بجدَّة ويباع منه جانب لدفع أجرة المشال إلى مكَّة ويساق شيئًا فشيئًا إلى التكيَّة المصريَّة ثم يوزع أولًا فأولًا على حسب الدفتر بمعرفة الأمور المعين من مصر حيث أن متوظفي التكيَّة يمكنهم القيام بهذا التوزيع بدون وضعه في شون الميري وحسبان ماهيات خدمتها على أصحاب المرتبات بدون اقتضاء لكن يلزمهم أن يكونوا منقادين للمأمور في الصرف وتحقيق صحة وجود أصحاب المرتبات وعدمه بحسب دفتر الأسماء المحضر معنا صورته من غير تداخلهم في الأخذ والإعطاء وإن وجد محلول فمبعرفة المأمور يعطي للمستحقين من الفقراء بعد أخذ الشهادة اللازمة ويلاحظ حركة التكيَّة لأن أهميَّة ذلك من جملة الإصلاحات الخيريَّة، ويلزم أن يكون المأمور ذا رتبة مؤتمنًا خبيرًا بأحوال تلك الجهات مرفوعًا عند الأعيان ليتيسر له التسهيل والتشهيل في التسليم والتسلم والمشال لأن ذلك يحتاج إلى همة زائدة ويمكن صرف أغلب المرتبات بجدَّة لوكلاء أصحابها وللتجار الذين اشتروا أغلب حصصهم والباقي يصرف لهم بالتكيَّة وكذا حصة المدينة تصرف بينبع للوكلاء كما شاهدنا ذلك، وتوريد المرتب قمحًا فيه منفعة عظيمة لسكان مكَّة والمدينة بتنازل الأسعار إلا أن التجار تحوزه وتكتسب منه مبالغ جسيمة، وأما الأوفر للحكومة فهو توريده دراهم بدلًا عن القمح كما حصل سابقًا وإنما يلزم الحكومة المخابرة مع سعادة والي الحجاز مقدمًا في ذلك بإرسال مأمور التسيم والتسلم وأن تنتظر الاتفاق على ذلك تلغرافيًّا فإن كان قمحًا استلمه المأمور بجدَّة وصرفه بمعرفته كما ذكرنا وإن كان نقدًا أرسل إلى المأمور بواسطة البوسطة الخديويَّة وبعد استلامه لذلك يفرقه بمعرفته على حسب الدفتر ويلزم الحكمة مراعاة المندوب من جهة مصاريفه ومكافأته احترامًا

وشرفًا للحكومة الخديويَّة وإرسال بعض الهدايا اللائقة لبعض المتوظفين هناك على حسب درجاتهم لتحصل الممنونيَّة للجميع وحسن الالتفات للمندوب إذ الدرهم هو مركز دائرة السلوك بين الأمير والصعلوك كما شاهدته في تلك الجهات والآن جار توريدها بواسطة أورباويَّة لنهبها بالكليَّة والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

obeikandl.com

(يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة الفقير إلى الله تعالى محمَّد الحسني:

بحمد ذي الجلال والإكرام الذي فضل على سائر الأماكن بيته الحرام وحث على أداء المناسك وأعد جزيل الأجر لمن حل بتلك المعاهد وارتوى من زمزم والتزم الملتزم واستلم الحجر الأسود والركن والمقام، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد أفضل من ثج وحج ولبى وصلى وصام، وعلى آله الناسكين نسكه المقتفين أثره وأصحابه الكرام البررة (أما بعد)، فقد تم طبع هذا الكتاب الوافي البيان الصافي المورد والمنهل الحافل الكافل ببيان المنازل من مصر إلى مكَّة المشرَّفة والمدينة المنوَّرة على أتم وجه وأكمل السالف بقارئه من فجاج تلك الديار كل فج وهو المسمَّى (دليل الحج) يصف لك هاتيك المنازل والأماكن فلا تكاد تحتاج إلى معرفتها عند مرورك عليها إلى معرِّف ولا دليل، ويعرِّفك قبائل العرب الحجازيَّة وفصائلها وأخلاق بعضها ومساكنها على وجه جميل مذهب المباني محرر المعاني تأليف الملحوظ بعين عناية مولاه الخال حضرة محمَّد باشا صادق، على ذمة حضرته حفظه الله ومن كل سوء وقاه، في ظل الحضرة الفخيمة الخديويَّة وعهد الطلعة المهيبة الداوريَّة، من بلغت به رعيته غاية الأماني حضرة أفندينا المعظم (عبَّاس باشا حلمي الثَّاني) ملحوظًا هذا الطبع الجميل ينظر من علية أخلاقه تثني حضرة وكيل المطبعة الأميريَّة (محمَّد بك حسني)، وكان تمام طبعه في أوائل ذي القعدة الحرام من عام ثلاثة عشر بعد ثلاثمائة وألف من هجرته عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصَّلاة والسَّلام (م).

obeikandl.com

محمد صادق باشا (١٨٣٢-١٩٠٢)

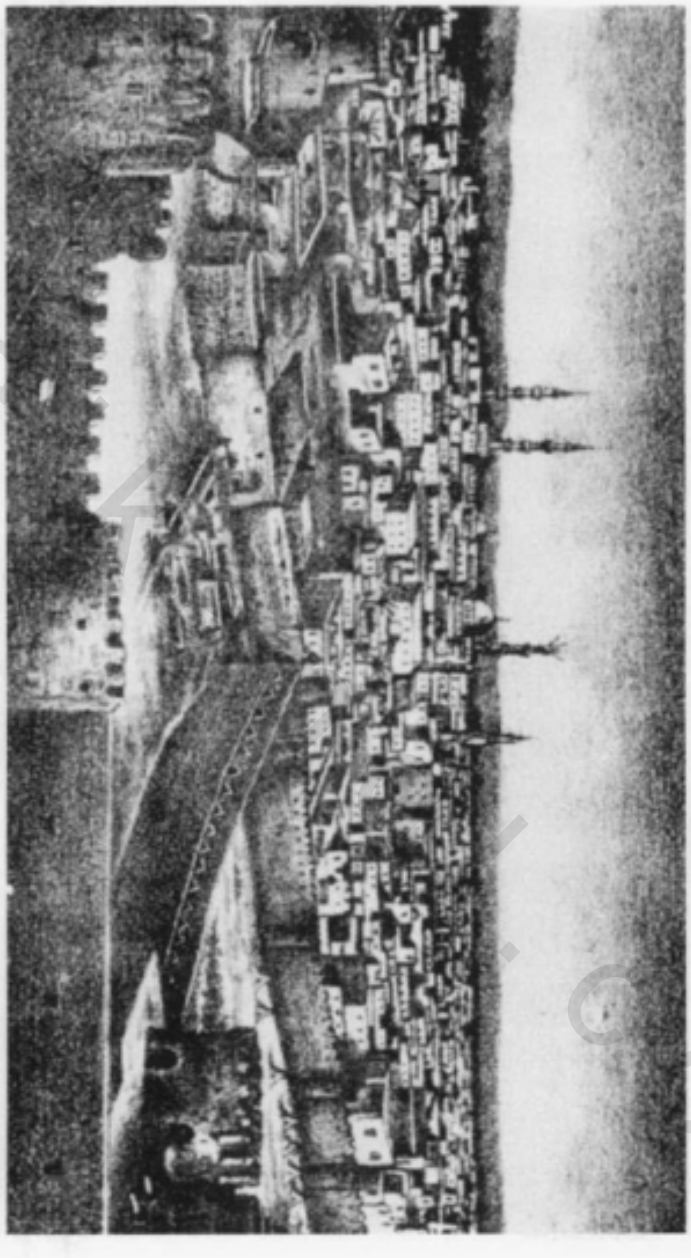

المدينة المنورة

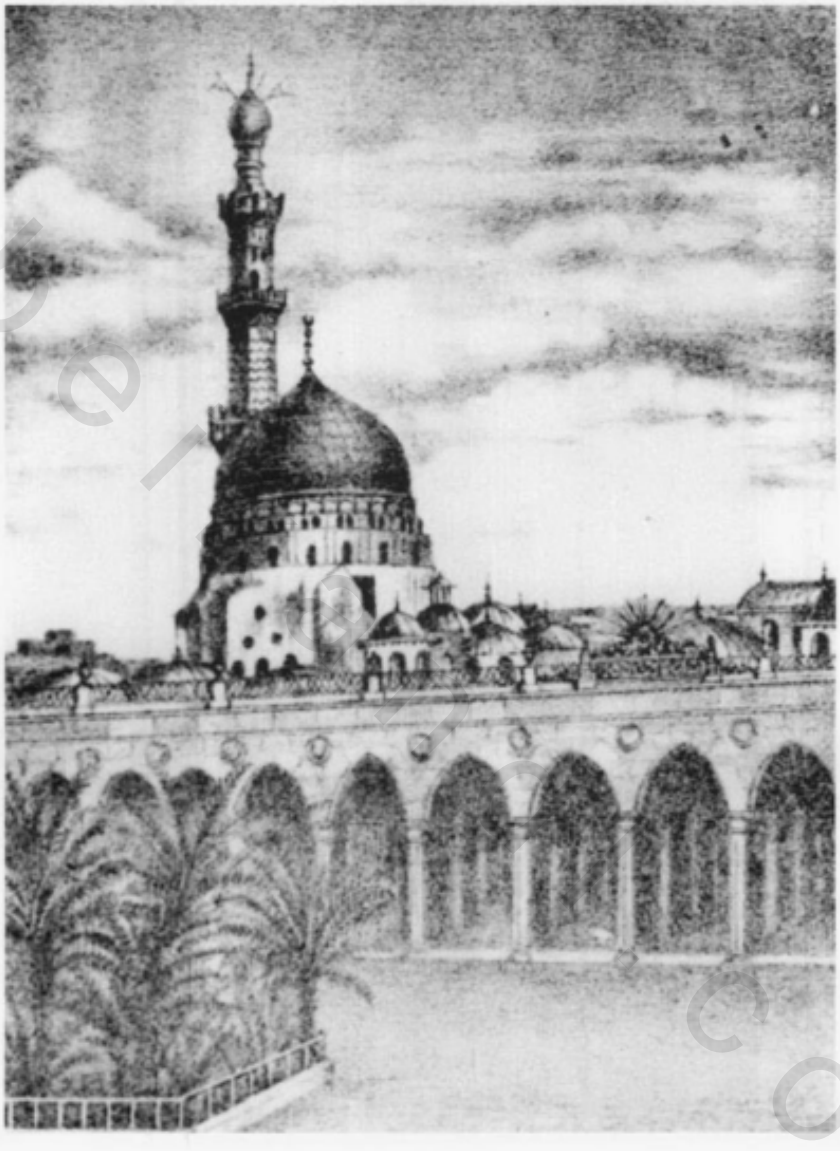

الحـــرم المدنـــي

obeikandl.com

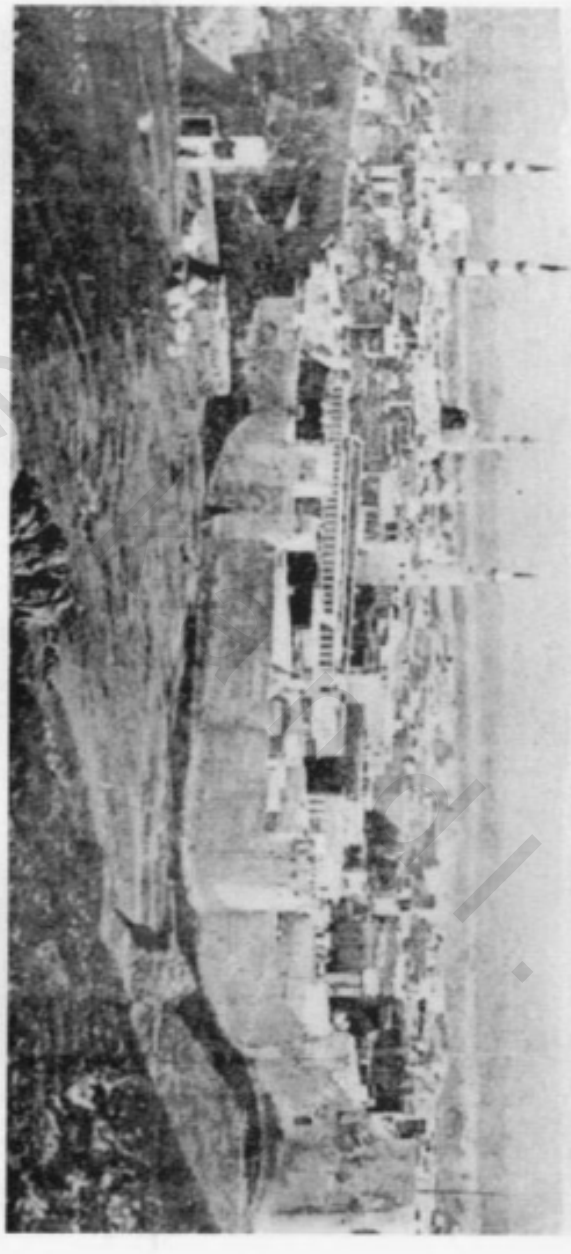

منظر المدينة المنورة من جهة الباب الشامي (تصوير محمد صادق ١٨٨٠)

openkotob.com

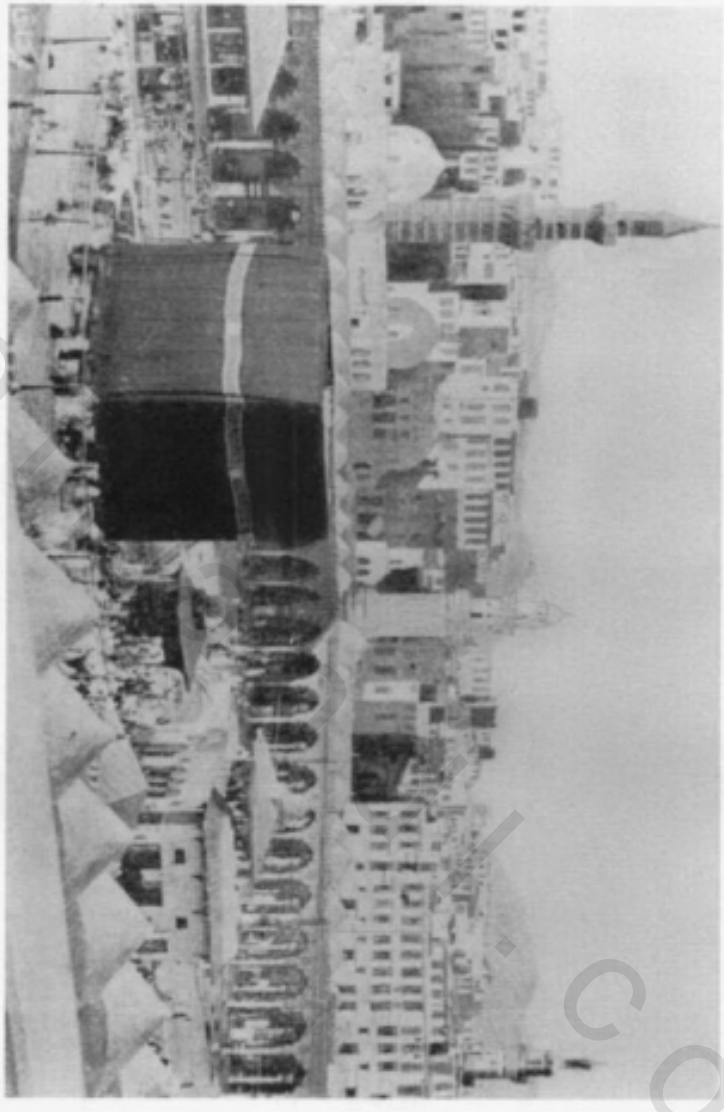

الجهة القبلية و الغربية من الكعبة (تصوير محمد صادق ١٨٨٠)

obeikandl.com

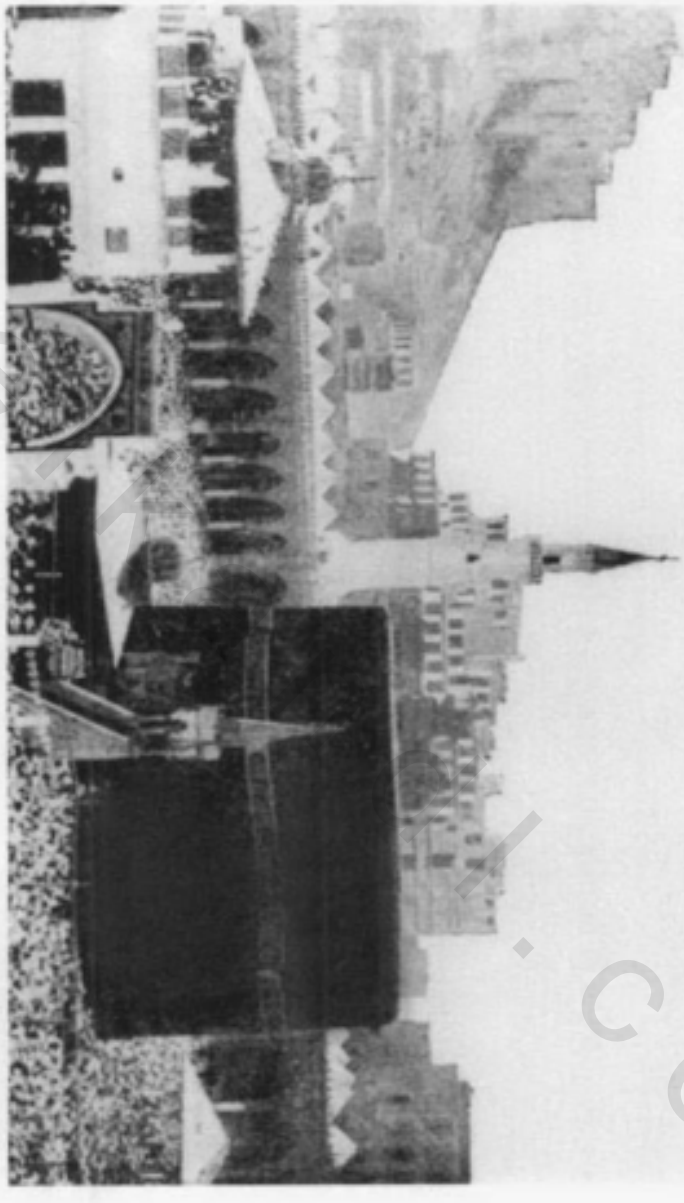

الصلاة حول الكعبة

obeikandl.com

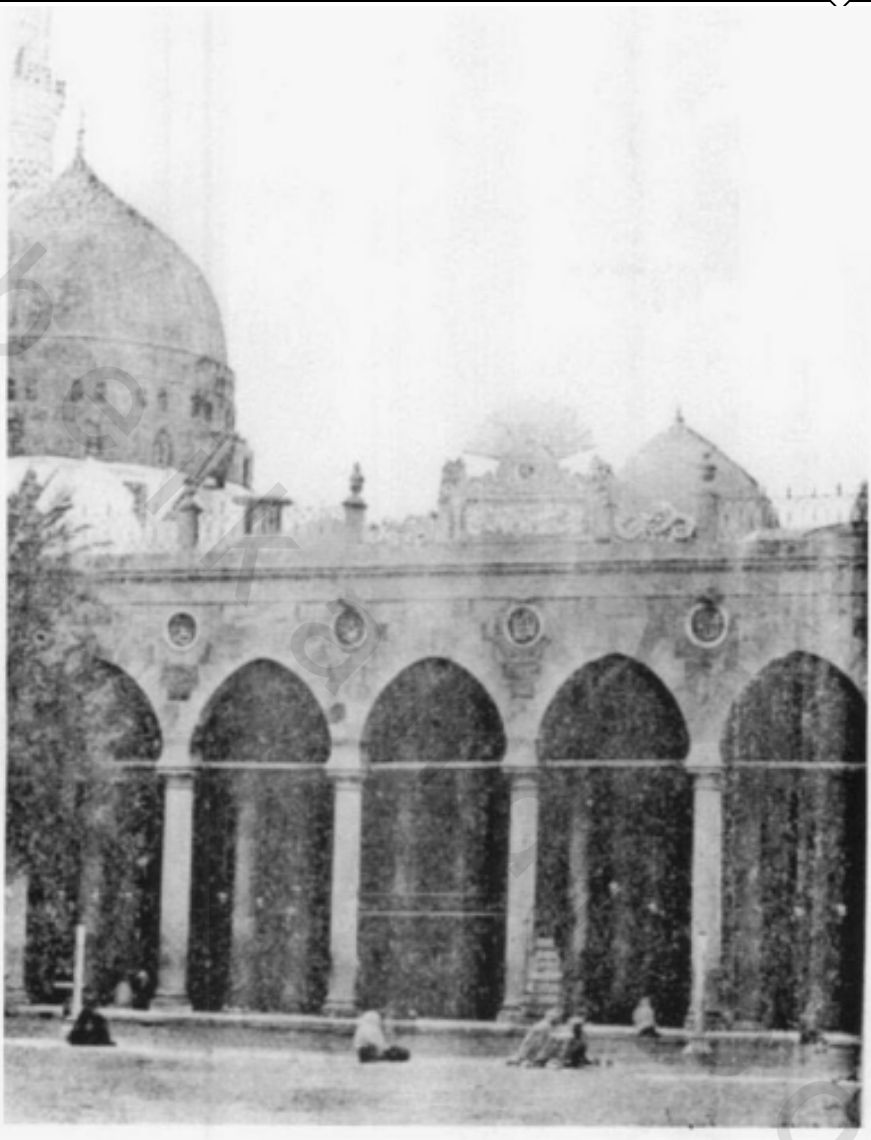

منظر الحرم وفيه مقام النبي محمد ﷺ

obeikandl.com

الحجاج بمنى يوم العيد الأكبر جامع الخيف

obeikandl.com

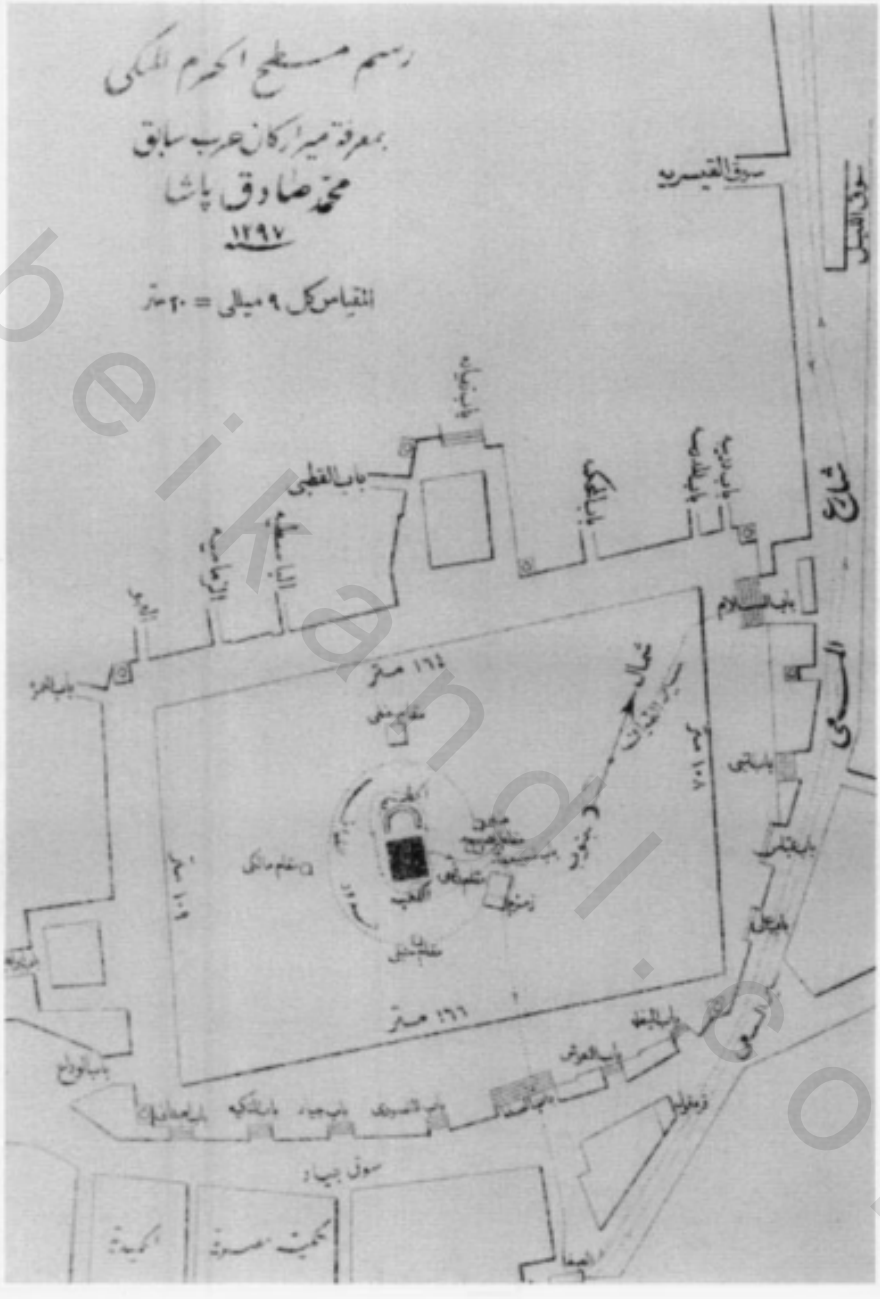

رسم مسطع الحرم كما وضعه محمد صادق عام ١٨٦١

obeikandl.com

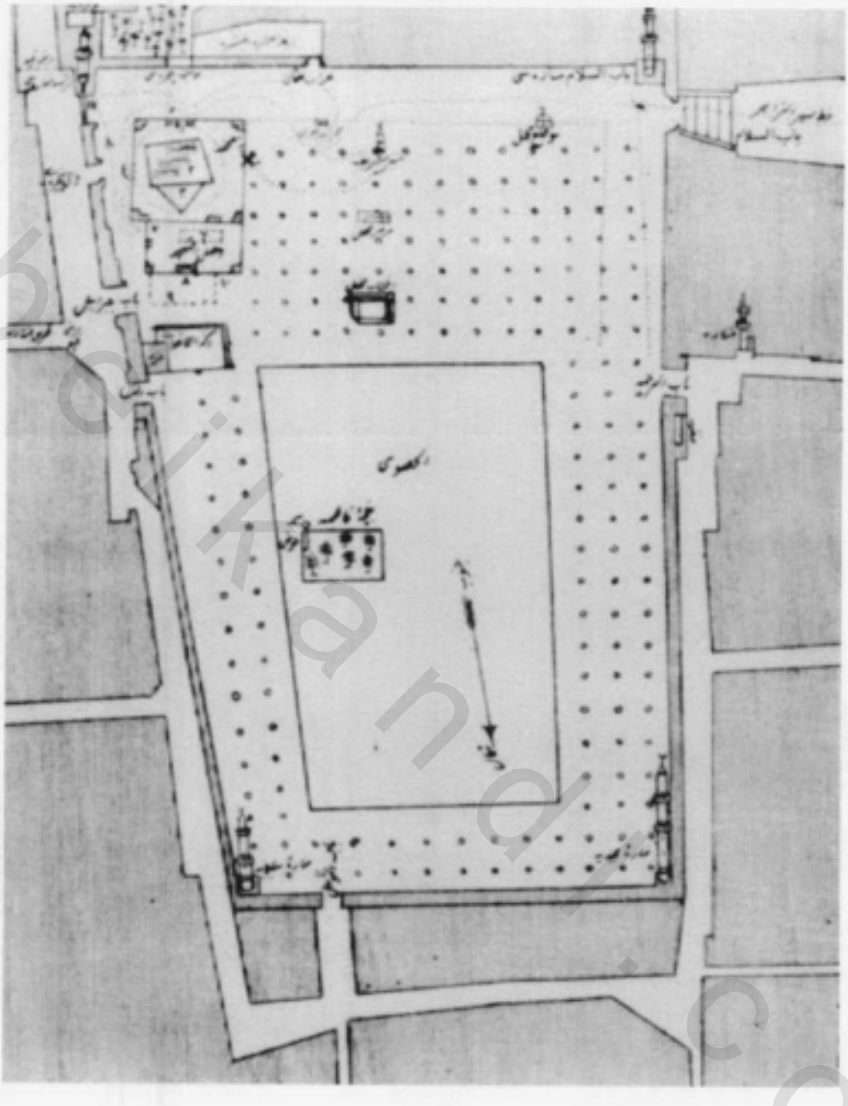

رسم الحـرم النبـوي

obeikandl.com

موكب المحمل بمكة

obeikan.com

المحمـــل

obeikan.com

هينة الحرم

obeikan.com

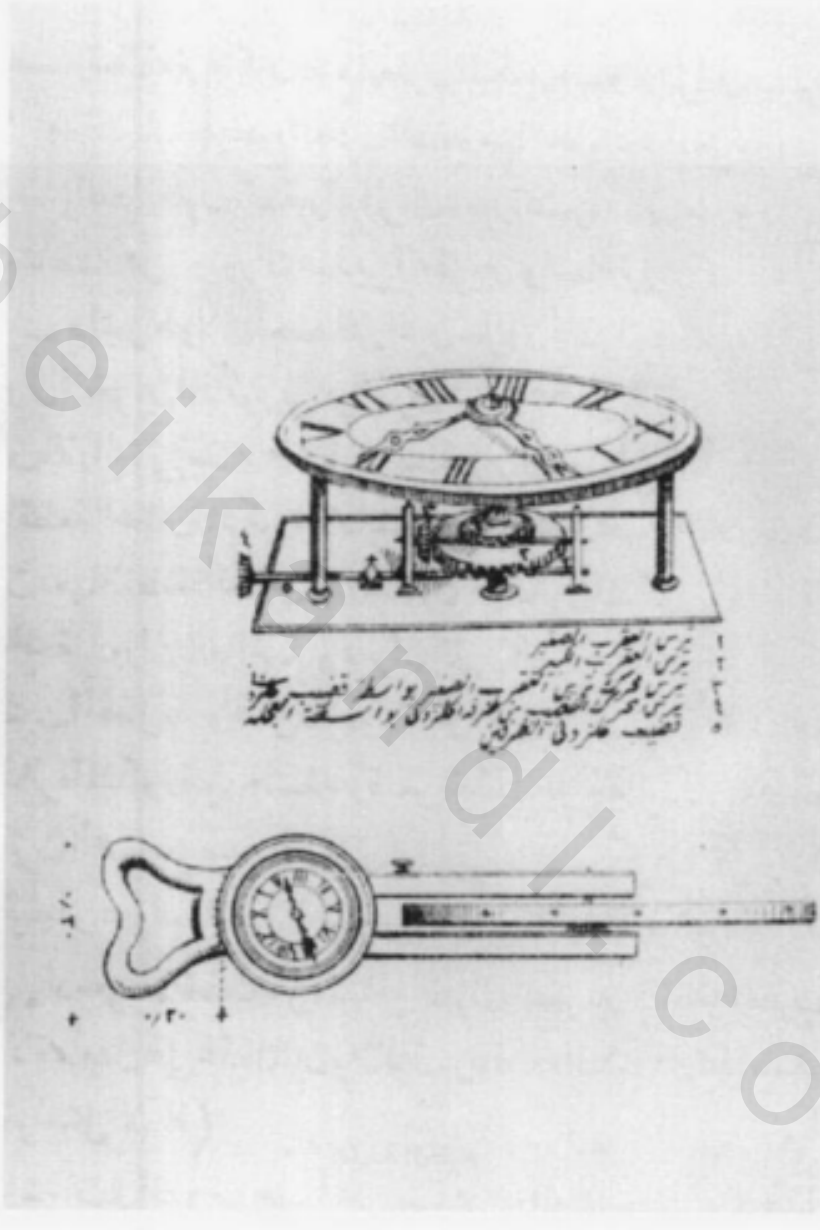

الآلة المقياسية

obeikandl.com

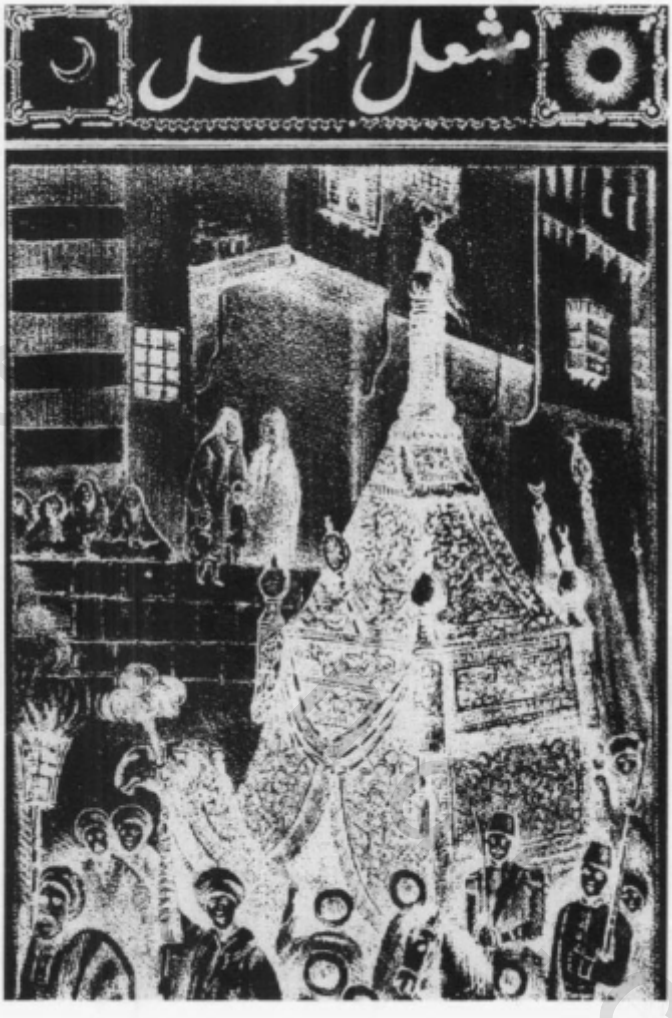

غلاف الطبعة الأولى من كتاب (مشعل المحمل)